



ISSN:

📖 : 3005-6691
📱 : 3005-6705



مجلة فصلية محكمة، تُعنى بالقضايا
المعاصرة من منطلق قرآني

المجلد (٣) - العدد (١١) ربيع ٢٠٢٦م - ١٤٤٧هـ

الاستكبار والمستكبرون في القرآن الكريم



◀ الافتتاحية: ■ العلو في الأرض:
حين تفقد القوة إنسانيتها

◀ المحور: ■ الاستكبار في القرآن الكريم
■ أساليب المستكبرين في السيطرة والتضليل
وإستضعاف الشعوب
■ حتمية هلاك المستكبرين ونجاة المستضعفين
■ الاستكبار في الرؤية القرآنية

◀ دراسات وبحوث: ■ منهجية التعبير عن النقاط التربوية في القرآن الكريم

◀ قراءة في كتاب: السياسات الاستكبارية في القرآن الكريم



مركز بَراثا للدراسات والبحوث

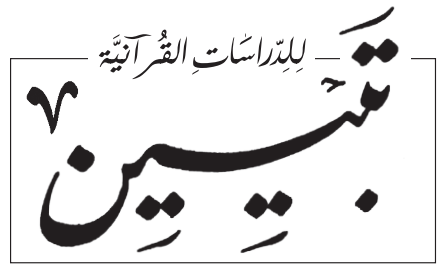
الاستكبار والمستكبرون فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

المجلد (٣) - العدد (١١): ربيع ٢٠٢٦م - ١٤٤٧هـ

ISSN:

 : 3005-6691

 : 3005-6705



تصدر عن:



مجلة فصلية محكمة، تُعنى بالقضايا
المعاصرة من منطلق قرآني

www.barathacenter.com

www.Tabyin.barathacenter.com

Tabyin.magazine@gmail.com

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ

[النحل: ٨٩]

■ رسالة المجلة

١. العودة إلى القرآن وتأكيد مرجعية آياته في معالجة قضايا الأمة المعاصرة.

٢. نشر الثقافة القرآنية على نطاق واسع وربط الأمة بكتابها المقدس لتجاوز القطيعة المعرفية معه.

٣. التأكيد على قدرة القرآن الكريم على بعث الروح وتجديد الفاعلية في عقل ووجدان الأمة لتحقيق النهضة المنشودة.

٤. ترسيخ مرجعية أهل البيت (عليهم السلام) في فهم القرآن وتأويله انطلاقاً من حديث الثقلين؛ لأهمية ذلك في التمهيد للمجتمع المهدوي الموعد.

■ كتاب العدد:

■ سيماء جويني بور (إيران) ■ سهيلا بيروز فر (إيران) ■ الشيخ محمد أسعد ناصر (لبنان) ■ الشيخ د. لبنان حسين الزين (لبنان) ■ سامر توفيق عجمي (لبنان) ■ عرفان يوسفى مقدّم (إيران) ■ محمّد عليّ محمّديّ (إيران) ■ لينا السقّر (سوريا).

العدد (١١)
م ٢٠٢٦

ترحب المجلة بمساهمات الكتاب والباحثين
بالكتابة في المجالات المتعلقة باهتمامات
المجلة العلمية، ويمكن للراغبين بالكتابة
مراسلة المجلة على العنوان الآتي: مركز
براثا للدراسات والبحوث – مجلة تبين:
بيروت، بغداد.

رئيس التحرير:

٠٠٩٦١٣٨٢١٦٣٨

البريد الإلكتروني:

Tabyin.magazine@gmail.com

في العدد المقبل:

المُجْتَمَعَاتُ وَأَنْهِيَارُ الْحَضَارَاتِ

للدراسات القرآنية
تبين

مجلة "تبين للدراسات
القرآنية"

(Tabyin for Quranic studies)

دورية علمية فصلية
محكمة، تصدر عن:

مركز براثا للدراسات والبحوث

وتُعنى المجلة بمقاربة
القضايا والتحديات

الفكرية المعاصرة
مقاربة قرآنية، وتهدف

لتأصيل القضايا
المعاصرة من منطلق قرآني.

تعتمد المجلة سياسة
الوصول المفتوح (Open

Access)، وتنشر جميع
محتواها وفق رخصة المشاع

الإبداعي - النسبة ٤.٠ (CC
BY 4.0)، بما يتيح حرية

الاستخدام والتوزيع وإعادة
النشر شريطة الإشارة إلى

المصدر الأصلي توثيقًا.

المشرف العام:

■ الشيخ جلال الدين الصغير

رئيس التحرير:

■ د. محمد محمود مرتضى

مدير التحرير:

■ أ.د. فاضل مدب المسعودي

المدير المسؤول:

■ د. علي محمد جواد فضل الله

المدير الفني: ■ أ. خالد معماري

التدقيق اللغوي: ■ د. علي زعيتر

المترجمون: ■ أ. ليلى السقر (إنجليزية)

■ د. محمد فراس الحلباوي

■ الهيئة العلمية:

- د. عباس الفحام (البلاغة القرآنية - العراق)
- د. حسن رضا (تربية - الجامعة الإسلامية-لبنان)
- د. مبروك زاد الخير (دراسات اسلامية - الجزائر)
- د. محمد رضا حاجي اسماعيلي (دراسات قرآنية - إيران)
- د. إقبال نجم وافي (علوم القرآن - العراق)
- أ.د. جاسم محمد علي الغرابي (التفسير وعلوم القرآن- جامعة الكوفة-العراق)
- د. ليث عباس سماوه. (علوم القرآن والحديث- جامعة المثنى- العراق)
- د. منير بن جمهور (الفقه وعلومه- تونس)
- د. محمد كاظم رحمن ستايش (علوم القرآن - إيران)
- م. د. طلال فائق الكمالي (التفسير وعلوم القرآن - العراق)

■ هيئة التحرير:

- م. د. أسعد عبد الرزاق الأسدي (الشريعة والعلوم الإسلامية- العراق)
- د. جواد رياض (الفقه وعلومه - مصر)
- د. حسن كاظم أسد (التفسير وعلوم القرآن - العراق)
- د. حسين إبراهيم (علوم القرآن - لبنان).
- د. لبنان الزين (القرآن والحديث- جامعة المصطفى-لبنان)
- م. د. حكيم سلمان السلطاني (علوم القرآن - العراق)
- م. د. علي بنائيان أصفهاني (علوم القرآن والحديث - إيران)
- د. قائد عبد المطلب الفحام (التفسير وعلوم القرآن - العراق)
- م. د. لقاء جواد الكعبي (علوم القرآن والحديث - العراق)
- م. د. محمد رضا ستوده نيا (علوم القرآن والحديث - إيران).



تَبْيِنُ
» تَبْيِنُ «

شروط النشر في مجلة

- البحوث والدراسات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- عند قبول البحث يتعهد المؤلف بنقل حقوق ملكية البحث إلى المجلة، وعدم نشره في أية مجلة أخرى إلا بعد أخذ موافقة خطية من إدارة المجلة، ويكون من حق المجلة نشر البحث في كتاب جماعي، وفي حال أراد الباحث نشر بحثه في أي وسيلة نشر ورقية أو إلكترونية، فيجب عليه أخذ موافقة خطية مسبقة من إدارة المجلة..
- تلتزم المجلة بإعلام المؤلف بالموافقة على نشر البحث من دون تعديل، أو وفق تعديلات معينة بناءً على ما يرد من ملاحظات المقيّمين، أو الاعتذار عن عدم النشر في غضون مدة لا تتجاوز (30) يوماً، إلا في حال الاستكتاب المبكر، لكن يتم إعلام المؤلف بذلك.
- في حال رفض البحث فمن حق المجلة إعلام المؤلف بأسباب الرفض أو عدم إعلامه بذلك.
- ترتيب البحوث (المقالات) في داخل المجلة يخضع لأغراض فنية، ولا علاقة له بمكانة المؤلف (الباحث) وشهرته.
- تدفع المجلة مكافأة مالية لكل بحث يُنشر في المجلة، وتُعلم المؤلف بقيمتها أو طريقة احتسابها مسبقاً.
- المراسلات: ترسل باسم رئيس التحرير: الدكتور محمد محمود مرتضى على العناوين الآتية:
- رقم الهاتف: ٠٠٩٦١٣٨٢١٦٣٨ أو البريد الإلكتروني: Tabyin.magazine@gmail.com

خُلُقِيَّاتِ النُّشْرِ

- تلتزم إدارة المجلة بالحفاظ على حقوق الملكية الفكرية للمؤلفين.
- تلتزم إدارة المجلة بمراعاة مبدأ عدم التمييز على أساس العرق أو الجنس، بل الالتزام بقواعد التفكير العلمي ومناهجه، ولغته في عرض وتقديم الأفكار والاتجاهات والموضوعات ومناقشتها أو تحليلها.
- تلتزم إدارة المجلة بعدم الإفصاح عن أسماء المقومين (المُحكِّمين) للمؤلفين، كذلك تلتزم في الوقت نفسه بعدم الإفصاح عن أسماء المؤلفين للمقومين ويبقى هذا الأمر على نحو سري عند رئيس ومدير التحرير فقط.
- احترام حقوق الملكية الفكرية للبحوث المترجمة.
- يُشترط أن يكون البحث متوافقاً مع معايير الأمانة العلمية وخُلُقِيَّاتِ البحث العلمي.
- يشترط ألا يكون البحث المرسل للنشر في المجلة منشوراً سابقاً في مجلة أو في كتاب، أو مستلاً من رسالة أو أطروحة، وألا يكون جرى تقديمه للنشر إلى مجلة أخرى في الوقت نفسه.

دليل المقومين

- إن المهمة الرئيسة للمقوم العلمي للبحوث المرسلة للنشر، هي أن يقرأ البحث الذي يقع ضمن تخصصه العلمي بعناية فائقة، وتقويمه وفق رؤية ومنظور علمي وأكاديمي لا يخضع لأية أهواء شخصية، ويقوم بتثبيت ملاحظاته البناءة والصادقة بشأن البحث المرسل إليه.
- قبل البدء بعملية التقويم يتأكد المقوم إذا ما كان البحث المرسل إليه يقع ضمن تخصصه العلمي أم لا، فإن كان البحث ضمن تخصصه العلمي فعليه تقدير كونه يمتلك الوقت الكافي لإتمام عملية التقويم؛ ذلك أن عملية التقويم يجب أن لا تتجاوز (١٥) يوماً.
- بعد موافقة المقوم على إجراء عملية التقويم وإتمامها في المدة المحددة يلتزم بإجراء عملية التقويم على وفق المحددات الآتية:
 - أ. تحديد درجة الأمانة العلمية للبحث.
 - ب. تحديد درجة مطابقة عنوان البحث لمحتواه.
 - ج. تحديد درجة وضوح ملخص البحث.

- د. تحديد درجة إيضاح مقدمة البحث لفكرة البحث.
- هـ. تحديد درجة تناسب العناوين الفرعية وترابطها.
- و. تحديد درجة المستوى العلمي للبحث.
- ز. تحديد درجة المستوى اللغوي والأدبي.
- ح. تحديد درجة قيمة المصادر ودقة الاعتماد عليها.
- ط. تحديد درجة أهمية البحث وأصالته من حيث الآلية والنتائج.
- ي. تحديد درجة حجم البحث.
- ك. تحديد درجة صلاحية البحث للنشر.
- ل. يحدد المقومّ بشكل دقيق الفقرات التي تحتاج إلى تعديل من المؤلف.
- يحدد المقومّ أسباب الرفض في حال قرر عدم صلاحية البحث للنشر.
- تجري عملية التقويم على نحو سري.
- يُبلّغ رئيس التحرير في حال أراد المقومّ الأول مناقشة البحث مع المقومّ الثاني.
- ترسل ملاحظات المقومّ العلمي إلى رئيس التحرير لإرسالها إلى المؤلف في حال وجود ملاحظات على البحث؛ لكي يأخذ المؤلف بها للموافقة على النشر، من دون أن يعرف المقومّ من هو المؤلف، ولا أن يعرف المؤلف من هو المقومّ.
- تعتمد ملاحظات المقومّين وتوصياتهم في قرار اعتماد نشر البحث من عدمه.

دليل المؤلفين

- يجب أن يكون البحث جديداً في طرحه، ولم يسبق لأحد أن تناول الموضوع بالآلية نفسها ووصل إلى النتائج نفسها، وأن يتسم بالعمق والتحليل والنقد.
- يجب أن تكون لغة البحث خالية من الأخطاء اللغوية والطباعية، وأن تراعى في كتابتها علامات الترقيم.
- المعلومات الواردة في البحث يجب أن تكون موثقة من خلال المصادر والمراجع العلمية الدقيقة.

- على المؤلف مراعاة أن تكون عدد كلمات بحثه تتراوح ما بين (٤٥٠٠) إلى (٥٥٠٠) كلمة.
- سيجري استعمال برنامج فحص نسبة الاستلال (Plagiarism Check X).
- سيعرض البحث على برنامج الاستلال قبل تحويله للتقويم، وسيرفض البحث إذا تجاوزت نسبة الاستلال النسبة المقبولة عالمياً (٢٥٪).
- في تسجيل الهوامش المرتبطة بالحواشي المرجعية، فإن الكاتب سيستعمل نظام (شيكاجو المعدل)، ويُدرج الهوامش في أسفل الصفحة (Footnote) عبر الإدراج التلقائي.
- مثال على نظام شيكاغو المعدل:
 - في حال التوثيق من كتاب: اسم المؤلف: عنوان الكتاب، ذكر الجزء أو المجلد، رقم الصفحة.
 - في حال التوثيق من مجلة: اسم كاتب البحث أو المقال: عنوان البحث، اسم المجلة، العدد، رقم الصفحة.
 - في حال التوثيق من كتاب جماعي: اسم كاتب مع عبارة وآخرون: عنوان الكتاب أو البحث، رقم الصفحة.
 - في حال التوثيق من رسالة أو أطروحة: اسم الباحث: عنوان الرسالة أو الأطروحة، الجامعة والكلية، رقم الصفحة.
 - توثق الآيات في المتن عقب النص القرآني مباشرة بذكر السورة متبوعة بنقطتين، ثم رقم الآية داخل حاصرتين، هكذا: (الإنسان: ٢٥).
 - الآيات القرآنية تُدرج محرّكة وفق التشكيل القرآني، وتوضع بين مقوسين خاصين، هكذا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.
 - ملاحظة: ما ذكر أعلاه من مصادر إن كانت إلكترونية فيُدرج الرابط بعد رقم الصفحة في الأسفل.
- يُدرج في نهاية البحث ثبت بالمصادر والمراجع، وفق ما ذكرنا أعلاه مع إضافة باقي التفاصيل المرتبطة به: دار النشر، مكان النشر، تاريخ النشر، رقم الطبعة.

يستعمل الكاتب في بحثه باللغة العربية خط (simplified Arabic) بحجم (١٤) في المتن، ونفس الخط بحجم (١٢) في الهامش.

أما باللغة الإنجليزية فيستعمل (Times New Roman) بحجم (١٤) في المتن، بحجم (١٢) في الهامش.

يكتب في الصفحة الأولى الآتي:

- عنوان البحث باللغة العربية.
- اسم المؤلف باللغة العربية (إذا كان عربياً)، مع إدراج حاشية سفلية يذكر فيها: جنسيته، توصيفه العلمي، الدرجة العلمية والشهادة، وجهة الانتساب (الجامعة، الكلية)، أو (المؤسسة البحثية).
- ملخص للبحث باللغة العربية على ألا يتجاوز الملخص الواحد (١٠٠) كلمة.
- الكلمات المفتاحية على ألا تتجاوز (٧) كلمات.
- تقوم المجلة بإجراء ترجمة الملخصات إلى اللغات التي تراها مناسبة.



تعهد حقوق الملكية

أنا المؤلف الباحث:

صاحب البحث الموسوم بـ:

.....

أتعهد بنقل حقوق الطبع والنشر والتوزيع إلى مجلة (تبيين) ومركز براءات للدراسات والبحوث.

التاريخ:

التوقيع:

تعهد الملكية الفكرية

أنا الموقع أدناه:

صاحب البحث الموسوم بـ:

.....

أتعهد بأن البحث الذي أنجزته لم يُنشر أو يُقدّم للنشر إلى مجلة أخرى، سواء أكانت داخل لبنان أو العراق أو أي دولة أخرى، وأرغب بنشره في مجلة (تبيين) ومركز براءات للدراسات والبحوث.

التاريخ:

التوقيع:

المحتويات

الافتتاحية

العُلُوُّ فِيهِ الْأَرْضُ: حِينَ تَفْقَدُ الْقُوَّةَ إِنْسَانِيَّتَهَا | ١٣
د. محمد محمود مرتضى

المحور

- الاسْتِكْبَارُ فِيهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ | ٣١
سيما جويني بور سهيلا بيروز فر
- أَسْأَلِيْبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِيهِ السَّيْطَرَةُ وَالتَّضْلِيلُ وَاسْتِضْعَافُ الشُّعُوبِ | ٦٧
الشيخ محمد أسعد ناصر
- خَتْمِيَّةٌ هَلَاكُ الْمُسْتَكْبِرِينَ وَنَجَاةُ الْمُسْتَضْعَفِينَ | ٩١
الشيخ د. لبنان حسين الزين
- الاسْتِكْبَارُ فِيهِ الرُّؤْيَا الْقُرْآنِيَّةُ | ١١٩
سامر توفيق عجمي

دراسات وبحوث

مَنْهَجِيَّةُ التَّعْبِيرِ عَنِ النُّقَاطِ التَّرْبَوِيَّةِ فِيهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ | ١٤٥
عرفان يوسفجي مقدم محمد علي محمدجي

قراءة في كتاب

السِّيَاسَاتُ الْاسْتِكْبَارِيَّةُ فِيهِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ | ١٧٣
لينا السقر

العلو في الأرض: حين تفقد القوة إنسانيتها

رئيس التحرير

د. محمد محمود مرتضى

لا تعتبر قضية الاستكبار في القرآن الكريم قضيةً جزئيةً تتصل بسلوك فردي معزول؛ إذ هي من القضايا المحورية التي تكشف طبيعة الصراع الإنساني عبر التاريخ؛ لأن القرآن ينظر إلى المُستكبر بوصفه مشروعاً يُنتج الهيمنة، ويعيد تشكيل الوعي، ويصوغ منظومات القهر والفساد والانحراف. ولذلك يتكرر حضور المُستكبرين في القصص القرآني، باعتبارهم نموذجاً متجدداً يعيد إنتاج نفسه بأسماء، وأدوات، وصور مختلفة.

من هنا، نفهم لماذا يبدأ القرآن الكريم غالباً معركة الهداية بكشف البنية النفسية والفكرية للاستكبار قبل الحديث عن مظاهره السياسية أو الاقتصادية؛ لأن أصل الاستكبار يكمن في موقف الإنسان من الحقيقة ذاتها. يقول تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، فالاستكبار هنا هو أكبر من كونه مجرد شعور بالتفوق، وإنما حالة انسداد وجودي تجعل الإنسان غير قادر على رؤية الحق حتى لو كان ظاهراً، فلقد ارتبط الاستكبار في القرآن بالعمى المعنوي، وبالتعطيل المقصود للبصيرة، وبالتمرّد على مقتضيات الهداية.

ولعلّ النموذج الأوّل الذي يقدمه القرآن في هذا السياق هو نموذج (إبليس)، الذي

لم يكن جاهلاً بالله تعالى، ولا منكرًا لوجوده، لكنّه سقط حين تحوّلت الذات إلى معيار للحقيقة، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]. ومنذ تلك اللحظة صار الاستكبار لحظة تأسيسية في تاريخ الانحراف الإنساني؛ لأنّ المشكلة لم تكن في المعرفة بل في الإرادة التي رفضت الخضوع للحقّ. ويكشف القرآن عن أنّ أخطر أشكال الانحراف قد تكون نتيجة تضخم الذات حتى تصبح عاجزة عن الاعتراف بما يهدّد امتيازاتها أو صورتها عن نفسها.

ثمّ تتوسّع الظاهرة في النماذج القرآنية لتحوّل من موقف فردي إلى بنية حضارية كاملة. ف (فرعون) كان نموذجًا لدولة الاستكبار التي تحتكر القوة والسردية معًا، إنّها لحظة مصادرة الوعي الجماعي؛ حيث يتحوّل المُستكبر إلى مرجعية مطلقة تحدّد للناس كيف يفكّرون، وكيف يرون العالم، فيصبح الاستكبار احتلالاً للإدراك نفسه.

ولهذا يربط القرآن دائماً بين الاستكبار والفساد؛ لأنّ المُستكبر يسعى إلى إعادة تشكيل القيم والمفاهيم بما يحفظ منظومة الهيمنة.

إنّ أهمية العودة إلى مفهوم الاستكبار اليوم تنبع من أنّ العالم المعاصر يشهد تحولات هائلة في أدوات السيطرة، بينما يبقى الجوهر واحداً. فالاستكبار بات يمارس حضوره عبر الإعلام، والاقتصاد، والتكنولوجيا، وإعادة تشكيل الوعي الجمعي، وصناعة المعايير الثقافية العالمية. لقد أصبحت الهيمنة أكثر قدرة على التغلغل في العقول، وفي خلق الرغبات وتوجيهها. ومن هنا، تبدو المقاربة القرآنية للاستكبار شديدة الراهنية؛ لأنّها تكشف الجذور العميقة للهيمنة مهما تبدلت أشكالها.

إنّ القرآن، حين يتحدّث عن المُستضعفين، يقدّمهم بوصفهم طاقة التغيير الكبرى. يقول تعالى: ﴿وَوَرِّدُ أَنْ نُمِّنَ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أُمَّةً﴾ [القصص: ٥]. فالقرآن يؤسّس لوعي التحرّر، ولا يكتفي بوصف الواقع، وإنما يفتح أفقاً تاريخياً يتجاوز لحظة القهر نحو مشروع التمكين والعدل.

أولاً: الاستكبار في القرآن - من الخلق الفردي إلى البنية الحضارية

حين يتحدث القرآن الكريم عن الاستكبار، فإنه يقدم مفهوماً مركباً يكشف طبيعة الانحراف حين يتحوّل الإنسان أو الجماعة إلى مركز مغلق للحقيقة، والقوة، والمعنى. فإنّ الاستكبار في الرؤية القرآنية هو موقف وجودي من الحقّ، يتجلّى في رفض الخضوع لله تعالى، وفي محاولة إخضاع الآخرين لإرادة المُستكبر ومنظومته.

ومن هنا، نفهم لماذا يربط القرآن بين الاستكبار وبين الإعراض عن آيات الله تعالى. يقول سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. فالاستكبار هو رفض العبودية لله، أي رفض الاعتراف بمرجعية أعلى من الذات. إنّ المُستكبر في المنظار القرآني يريد أن يكون المرجع النهائي الذي لا يخضع لميزان فوقه.

يكشف القرآن البُعد المعرفي للاستكبار قبل بُعده السلوكي. فالمشكلة ليست دائماً في نقص المعرفة، وإنما في الإرادة التي ترفض التسليم للحقيقة. يقول -تعالى- عن بعض أهل الكتاب: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. فالعلو هو الاستكبار الذي يحوّل المعرفة نفسها إلى أداة صراع مع الحقّ بدل أن تكون سبيلاً إليه. ومن أخطر ما يلفت إليه القرآن أنّ الإنسان قد يعرف الحقيقة ثم يرفضها؛ لأنّ قبولها يهدّد موقعه، أو امتيازاته، أو صورته المتخيّلة عن ذاته.

إنّ الاستكبار هو بنية داخلية تنتج رؤية معيّنة للعالم. فالمُستكبر يرى نفسه مركزاً، ويرى الآخرين تابعين، ويرى الحقّ خاضعاً لمصالحه لا معياراً يحاكمه.

يظهر الاستكبار في القرآن بوصفه ظاهرة جماعية تنتج نُظماً اجتماعية وسياسية كاملة. فلقد أسّس (فرعون) بنية استكبارية أعادت تشكيل المجتمع على أساس الهيمنة، والتفكيك، والسيطرة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤]. إنّ "العلو" هو عملية هندسة للمجتمع تقوم على التفريق، والاستضعاف، وصناعة التبعية. ولذلك، فإنّ القرآن يصف النظام الذي ينتجه الاستكبار.

ومن اللافت أنّ القرآن يستعمل تعبير "الملاّ" في كثير من قصص الأنبياء ﷺ، مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف: ٨٨]. فالاستكبار هنا فعل طبقة تمتلك النفوذ والسلطة والقدرة على التأثير في الوعي الجماعي. إنّ "الملاّ" في القرآن يمثلون البنية التي تحرس مصالح الهيمنة، وكانوا -غالبًا- أوّل من يقف في وجه الأنبياء ﷺ؛ لأنّ الرسالة الإلهية لا تهدّد فقط العقائد الفاسدة، وإنّما تهدّد أيضًا الامتيازات التي بُنيت على الظلم والاستغلال.

ولهذا، فإنّ القرآن يربط الاستكبار دائماً بمحاولة السيطرة على الإدراك الإنساني. فالمستكبر يريد احتلال الوعي ذاته. ومن هنا نفهم قول (فرعون): ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ [غافر: ٢٩]. إنّها ذروة الاستكبار المعرفي؛ حيث يتحوّل الحاكم أو الطبقة المهيمنة إلى مرجعية تحدّد للناس كيف يفكّرون، وما الذي يجب أن يُرى أو يُفهم أو يُصدّق. وهنا، لا يعود الاستبداد مجرد قهر سياسي، بقدر ما يصبح صناعة للإدراك، وإعادة تشكيل للوعي الجمعي.

وفي هذا السياق تتّضح خطورة الاستكبار المعاصر؛ لأنّ أدوات السيطرة لم تعد تعتمد فقط على القوّة العسكرية أو البطش المباشر، وإنّما أصبحت تركز على إنتاج المعاني، والصور، والسرديات. لقد باتت الهيمنة الحديثة أكثر قدرة على اختراق العقول عبر الإعلام، والثقافة، والتكنولوجيا، وإدارة الرأي العام. فتبدو المقاربة القرآنية شديدة العمق؛ لأنّها تكشف أنّ جوهر الاستكبار ثابت وإنّ تغيّرت أدواته. فالمستكبر في كلّ عصر يسعى إلى احتكار القوّة الحقيقية معًا.

لا يكتفي القرآن بإدانة الاستكبار خُلُقياً بل يقدّمه بوصفه خطراً حضارياً يهدّد إنسانية الإنسان نفسها؛ لأنّ المُستكبر حين يرفض الخضوع لله -تعالى- ينتهي غالباً إلى مطالبة الآخرين بالخضوع له. ومن هنا، تتولّد كل أشكال الاستعباد السياسي والاقتصادي والثقافي. ولذلك، فإنّ معركة الأنبياء مع المُستكبرين كانت صراعاً بين مشروع تحرير الإنسان ومشروع تحويله إلى تابع داخل منظومات الهيمنة.

إنّ القرآن، وهو يعرض نماذج المُستكبرين عبر التاريخ، يريد بناء وعي قادر على اكتشاف الاستكبار بأشكاله المتجدّدة. فالمُستكبر قد يكون فردًا، وقد يكون دولة، وقد يكون منظومة إعلامية أو اقتصادية أو ثقافية. لكنّ العلامة الجوهرية تبقى واحدة: رفض الحقّ حين يهدّد الهيمنة، ومحاولة إعادة تشكيل الإنسان بما يخدم استمرار السيطرة. إنّ فهم الاستكبار في القرآن ضرورة لفهم طبيعة الصراع في العالم، وكيف تتحوّل القُوَّة حين تنفصل عن الهداية إلى مشروع لإفساد الإنسان والتاريخ معًا.

ثانيًا: المُستكبرون في النماذج القرآنية الكبرى

يقدم القرآن الكريم المُستكبرين بوصفهم نماذج كاشفة لطبائع الانحراف حين تتحوّل القُوَّة إلى أداة تأليه وهيمنة. لا يُبنى القصص القرآني على مجرد السرد، وإنّما على كشف السُنن التي تتكرّر عبر العصور. فالمُستكبر في القرآن يمثّل بنية نفسية وحضارية قابلة لإعادة الإنتاج كلّما توفّرت شروط الطغيان وغياب الوعي.

ويبدأ القرآن غالبًا من الجذر الأوّل للاستكبار: استكبار (إبليس). فـ (إبليس) لم يكن يجهل الله تعالى، ولم يكن يفتقد المعرفة أو العبادة، لكنّه سقط حين تحوّلت الذات إلى مركز للحقيقة، فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. إنّ هذه الآية تكشف البنية العميقة للاستكبار: قياس الحقّ بمعيار الذات، لا قياس الذات بمعيار الحقّ. ولهذا، فإنّ مشكلة (إبليس) لم تكن فكرية بقدر ما كانت وجودية؛ لأنّه لم يحتمل أن يتقدّم عليه من لا يراه جديرًا بالتكريم.

يكشف الاستكبار الإبليسي خطر المقارنة المتعالية التي تنتج الاحتقار والإقصاء. ثمّ ينتقل القرآن إلى النموذج السياسي الأوضح للاستكبار: (فرعون). وإذا كان (إبليس) يمثّل الاستكبار الوجودي الأوّل، فإنّ (فرعون) يمثّل انتقال الاستكبار إلى نظام حكم كامل. يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤]. إنّ "العلو" هنا هو حالة استعلاء تجعل الحاكم يرى

نفسه فوق الناس، وفوق الحق، وفوق التاريخ. ولهذا قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:

٢٤]. إنها ذروة الاستكبار حين تتحوّل السلطة إلى ادعاء للمرجعية المطلقة.

لكنّ القرآن لا يركّز فقط على طغيان (فرعون) الشخصي، وإنما يكشف الآليات التي استخدمها لصناعة الهيمنة. فهو صحيح أنّه حكم بالقوّة، لكنّه أضاف إليها التحكم بالإدراك الجماعي أيضًا. ولذلك قال لقومه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ [غافر: ٢٩]. إنّ المُستكبر هنا يريد احتكار الرؤية نفسها، بحيث يصبح الناس عاجزين عن التفكير خارج السقف الذي يفرضه عليهم. وعليه، تبدو الفرعونية في القرآن مشروعًا لإعادة تشكيل الوعي، وليست مجرد نظام قمع سياسي.

ولذلك ربط القرآن بين استكبار (فرعون) وبين صناعة الاستضعاف. يقول تعالى: ﴿يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]. فالاستكبار يحتاج دائمًا إضافة للهيمنة، إلى إنتاج فئات مكسورة نفسيًا واجتماعيًا كي تستمر السيطرة؛ فإنّ المُستكبر كما يخاف من القوّة العسكرية للمُستضعفين، فإنّه يخاف قبل ذلك أيضًا من وعيهم، وإرادتهم، وقدرتهم على استعادة إنسانيتهم.

ثمّ يقدم القرآن نموذجًا آخر لا يقلّ خطورة: نموذج (قارون). فإذا كان (فرعون) يمثّل استكبار السلطة، فإنّ (قارون) يمثّل استكبار الثروة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]. ومن اللافت أنّ القرآن لا يربط البغي هنا بالفقر أو الحرمان، وإنما بالوفرة حين تنفصل عن الإنسانية. لقد تحوّلت الثروة عند (قارون) إلى شعور بالاستغناء الكامل، ولذلك قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. إنها عقلية توّله الذات وتلغي البعد الاجتماعي والخُلقي للنعمة.

ويكشف القرآن عن أنّ الاستكبار الاقتصادي هو تحويل الثروة إلى أداة تعال وهيمنة، وإعادة تشكيل للقيم. كما انجذب الناس إلى مظاهر (قارون) حيث قالوا: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ

مَا أُوتِيَ قَارُونُ ﴿ [القصص: ٧٩]. فالاستكبار كما يفرض نفسه بالقوة، كذلك يفعل بالإبهار أيضاً.

ولا يقتصر القرآن على هذه النماذج الفردية بل يتحدث باستمرار عن "الملا" بوصفهم الحاضنة الجماعية للاستكبار. ففي مواجهة الأنبياء ﷺ، غالباً ما كان أول المعارضين هم الطبقات النافذة التي شعرت بأن الرسالة تهدد امتيازاتها. يقول تعالى: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِ الْآخِرَةِ وَأُتِرَفَاتُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [المؤمنون: ٣٣]. إن الترف هنا هو بنية نفسية تجعل الإنسان أسيراً لمصالحه وخائفاً من أي تغيير يهدد منظومة الامتياز. واجه الأنبياء ﷺ شبكات كاملة من المصالح السياسية والاقتصادية والثقافية. وهذا يجعلنا نفهم لماذا كانت مقاومة الوحي غالباً صادرة عن القوى الأكثر نفوذاً؛ لأن الرسالة الإلهية تهدد البنى التي تقوم على الظلم والاستغلال.

ثم يأتي نموذج (قريش) في مواجهة الرسالة المحمدية، ليكشف بُعداً آخر من أبعاد الاستكبار. ف(قريش) لم تكن تجهل صدق النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]. لقد كانت المشكلة أعمق من مجرد خلاف فكري؛ لأن الإسلام هدد بنية السيطرة القبلية والاقتصادية والرمزية التي بنتها (قريش) حول الكعبة، والتجارة، والنسب، والنفوذ.

كان استكبار قريش قائماً على الخوف من فقدان المركزية التاريخية، حيث قالوا: ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥]؛ إذ لم يقتصر رفضهم على مضمون الدعوة فحسب، وإنما رفضوا التحول الذي ستتجه في بنية المجتمع والسلطة. إن الجامع بين هذه النماذج كلها أن الاستكبار يبدأ غالباً من تضحُّم الذات، لكنه لا يبقى محصوراً داخل النفس بل يتحوّل إلى مشروع لإخضاع الآخرين وصناعة أنظمة تحفظ الامتيازات بالقوة، أو بالخوف، أو بالإبهار، أو بالتحكُّم بالوعي. فالقرآن يقدم هذه الشخصيات باعتبارها تحذيراً دائماً من قابلية الإنسان لإعادة إنتاج الفرعونية، والقارونية، والإبليسية، بأشكال جديدة.

إنَّ أخطر ما في الاستكبار هو ما يفعله بالمستكبر نفسه؛ لأنه يعزله تدريجياً عن الحقيقة حتى يصبح أسيراً لوهم القوة المطلقة. ولذلك، كانت نهاية المستكبرين في القرآن دائماً سقوطاً مدوياً يكشف، هشاشة القوة حين تنفصل عن الحق. فـ (فرعون) غرق، و(قارون) خُسف به، و(إبليس) صار رمزاً لعنة الأبدية؛ لأنَّ الاستكبار مهما بدا منتصراً يظلُّ في حقيقته مشروعاً يصارع سنن الله والتاريخ معاً، ولهذا يحمل أسباب انهياره في داخله منذ اللحظة الأولى.

ثالثاً: الآليات النفسية والمعرفية للاستكبار

لا يكتفي القرآن الكريم بوصف أفعال المستكبرين وجرائمهم الظاهرة، بل يتوغَّل في البنية النفسية والمعرفية التي تُنتج الاستكبار أصلاً؛ لأنَّ القرآن يريد تفكيك الجذور التي تجعل الإنسان قابلاً للتحوُّل إلى مُستكبرٍ أو قابلاً للخضوع لمنظومات الاستكبار. فالخطاب القرآني يتعامل مع الاستكبار بوصفه انحرافاً في الرؤية قبل أن يكون انحرافاً في السلوك، وبوصفه خلافاً في العلاقة بالحقيقة قبل أن يكون مجرد نزوع إلى السيطرة.

ولعلَّ أوَّل ما يكشفه القرآن في هذا السياق هو أنَّ الاستكبار يبدأ غالباً من تضخُّم الذات حتى تتحوَّل إلى مرجع أعلى من الحقِّ نفسه. يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]. فالهوى هنا يشير إلى لحظة تصبح فيها الذات هي المعيار النهائي للحكم والتقويم.

يربط القرآن بين الاستكبار وبين "اتباع الهوى"؛ لأنَّ الهوى حين يتحوَّل إلى مركز للوعي يُعطِّل القدرة على الرؤية الموضوعية. فالإنسان لا يعود يبحث عن الحقيقة، بقدر ما يبحث عمّا يؤكِّد ذاته ويحفظ مصالحه. ومن هنا، نفهم لماذا كان كثير من المستكبرين في القرآن يعرفون صدق الأنبياء ﷺ ثم يرفضونهم. يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]. إنَّ المشكلة لم تكن في غياب المعرفة، وإنما في مقاومة الحقيقة حين تهدد البنية النفسية أو الاجتماعية القائمة.

ومن أخطر الآليات النفسية التي يكشفها القرآن أيضاً صناعة الوهم بالتفوق. فالمُستكبر يحتاج دائماً إلى بناء صورة متخيَّلة عن ذاته بوصفه أرقى، أو أحقّ، أو أعلم، أو أقوى من الآخرين. ولذلك، كان خطاب (إبليس) قائماً على المقارنة المتعالية: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢]. إنّها منطق كامل يقوم على تحويل الاختلاف إلى مبرر للاستعلاء، فتتولّد كثير من أشكال العنصرية والطبقية والاستعمار الثقافي والحضاري؛ لأنّ المُستكبر يرى الآخر مادة للهيمنة أو التبعية لا شريكاً في الإنسانيّة.

وبناء على تقدّم، نفهم البُعد المعرفي العميق للاستكبار في القرآن. فالمُستكبر يحاول إعادة تعريف الحقيقة نفسها. ولذلك قال (فرعون): ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ [غافر: ٢٩].

ولهذا يكثر في القرآن الحديث عن "التزيين" و"الصدّ عن السبيل"؛ لأنّ الاستكبار يحتاج دائماً إلى تشويه الوعي كي يستمر. يقول تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [النحل: ٦٣]. إنّ المُستكبر لا يرى نفسه غالباً بوصفه ظالماً بل بعيد إنتاج خطاب يبرّر سلوكه، ويمنحه شرعية حُلُفيّة، أو حضارية، أو أمنية، أو دينية، فتتجلّى خطورة الاستكبار حين يتحوّل إلى قدرة على قلب المفاهيم نفسها، فيصبح الظلم حماية للنظام، والاحتلال نشراً للحضارة، والاستغلال دفاعاً عن الحرية.

ومن الآليات النفسية الخطيرة التي يكشفها القرآن كذلك: الخوف من فقدان الامتيازات. فالمُستكبر ليس دائم الثقة، كما يبدو، بل يحمل في داخله خوفاً عميقاً من انهيار موقعه. ولذلك، كانت مقاومة الأنبياء (عليهم السلام) مرتبطة دائماً بالخوف على السلطة أو الثروة أو النفوذ. يقول -تعالى- عن ملاء (فرعون): ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]. إنّهم يرون التحرر فساداً؛ لأنّ أي وعي جديد يهدّد البنية التي تحفظ امتيازاتهم.

يعيش الاستكبار -غالباً- على صناعة الخوف الجماعي. فالمُستكبر يحتاج إلى إقناع الناس بأنّ بقاءه ضرورة للاستقرار، وأنّ أي محاولة للتحرر ستؤدّي إلى الفوضى أو الانهيار، فكانت

الدعاية إحدى أهم أدوات الطغيان عبر التاريخ. فالهيمنة لا تقوم على القوة وحدها بل على إدارة الإدراك الجمعي وإنتاج القناعات التي تجعل الناس يقبلون القهر بوصفه أمراً طبيعياً أو ضرورياً.

تبدو المقاربة القرآنية شديدة العمق في فهم الاستكبار المعاصر. فالعالم اليوم لا يُدار فقط عبر القوة العسكرية بل عبر التحكم بالإدراك، وصناعة الصور الذهنية، وإعادة تشكيل الرغبات والمخاوف والقيم. لقد أصبحت وسائل الإعلام، والمنصات الرقمية، والصناعات الثقافية، وأدوات الذكاء الاصطناعي، جزءاً من معركة الوعي الكبرى. فإنَّ المُستكبرِ الحديث لا يحتاج دائماً إلى احتلال الأرض ما دام قادراً على احتلال العقول.

إنَّ أخطر ما يواجه الإنسان اليوم ليس فقط الاستكبار الظاهر بل الاستكبار الذي ينجح في التسلُّل إلى داخل الوعي حتى يصبح جزءاً من طريقة التفكير نفسها. فالإنسان قد يتحوَّل إلى أداة داخل منظومة الهيمنة، وهو يظنُّ أنه يمارس حُرِّيَّته كاملة، فتتضح أهمية القرآن في تحرير الإدراك قبل تحرير الواقع؛ لأنَّ المعركة الحقيقية تبدأ من استعادة الإنسان لقدرته على رؤية الحقيقة خارج الضجيج الذي تصنعه قوى الاستكبار.

إنَّ القرآن، وهو يفكِّك البنية النفسية والمعرفية للاستكبار، لا يريد فقط أن يحذِّر من الطغاة بل يريد أن يحذِّر الإنسان من القابلية الداخلية للاستكبار أيضاً؛ لأنَّ كلَّ لحظة يتحوَّل فيها الهوى إلى مرجعية أعلى من الحقِّ، وكلَّ لحظة يحتقر فيها الإنسان الآخرين أو يبرِّر الظلم حفاظاً على مصلحة أو امتياز، تبدأ بذور الاستكبار بالنمو داخله.

رابعاً: الاستكبار في العالم المعاصر - تحوُّلات الأدوات وثبات الجوهر

حين يعرض القرآن الكريم نماذج المُستكبرين عبر التاريخ، فإنَّه يريد بناء وعي قادر على اكتشاف الاستكبار بأشكاله المتجدِّدة. فالاستكبار هو منطق دائم يعيد إنتاج نفسه كلما توفَّرت أدوات الهيمنة وإرادة السيطرة. فإنَّ أخطر ما في الاستكبار المعاصر أنَّه أكثر تعقيداً ومرونة

من النماذج القديمة؛ لأنّه استطاع أن يطورّ أدواته بما يتناسب مع تحوُّلات العالم، بينما بقي جوهره قائماً على احتكار القوَّة والمعنى والحقّ.

فالاستكبار القديم كان -غالبًا- مباشرًا وصريحًا، أمّا الاستكبار الحديث، فقد أصبح أكثر قدرة على التخفّي داخل الشعارات الإنسانية والاقتصادية والثقافية. لقد باتت الهيمنة تُمارس أحيانًا باسم الحرّية، ويُعاد تشكيل الشعوب باسم الديمقراطية، وتُدَمَّر الدول تحت عنوان "حماية النظام العالمي" أو "مكافحة الإرهاب". ومن هنا، تبدو المقاربة القرآنية شديدة العمق؛ لأنّها تكشف عن أنّ الاستكبار يُقاس بالبنية التي ينتجها: بنية السيطرة والإخضاع، وإعادة تشكيل الإنسان بما يخدم مراكز القوَّة.

حين يتحدّث القرآن عن المُستكبرين يربطهم دائماً بمحاولة "العلو في الأرض". يقول تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ مَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]. إنّ "العلو" هنا لا يعني مجردّ التفوّق المادي بل إرادة الهيمنة التي تجعل بعض القوى ترى نفسها وصيّة على العالم، وصاحبة الحقّ في تحديد مصائر الشعوب، والثقافات، والاقتصادات، وحتى القيم الخُلقيّة.

ولعلّ أبرز تحوُّلات الاستكبار الحديث تكمن في الانتقال من الاحتلال العسكري المباشر إلى الهيمنة الناعمة. لقد أصبحت وسائل الإعلام العالمية، ومنصّات التواصل، والصناعات الثقافية، وأدوات الترفيه، جزءاً من معركة السيطرة على الوعي.

إنّ واحدة من أخطر أدوات الاستكبار المعاصر هي صناعة الإدراك الجماعي. فالإنسان اليوم يعيش داخل سيل هائل من الصور والخطابات والمعلومات التي لا تنقل الواقع فقط بل تعيد إنتاجه وفق مصالح القوى المهيمنة، حيث يصبح الإعلام أداة لإعادة تعريف المجرم والضحية، والمقاوم والإرهابي، والمحتلّ والمتحضر. وحين تحدّث القرآن عن "تزيين الأعمال" أو "الصدّ عن السبيل" كان يكشف آليّة عميقة ما تزال فاعلة حتى اليوم، وإن اختلفت الوسائل والأدوات.

لا يفصل القرآن بين الاستكبار والتترف. يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]. فالتترف حالة حضارية تنتج الانفصال عن القيم وتحويل الإنسان إلى كائن استهلاكي فاقد للمعنى. ومن هنا، فإن الاستكبار الحديث لا يحتاج دائماً إلى القمع المباشر؛ لأن السيطرة قد تتحقق أحياناً عبر إغراق الإنسان في الاستهلاك واللهو، وإعادة تشكيل رغباته، بحيث يصبح عاجزاً عن التفكير خارج المنظومة المفروضة عليه.

ومن أخطر تجليات الاستكبار المعاصر أيضاً الهيمنة الثقافية. فالقوى الكبرى تسعى إلى تصدير تصوورها للإنسان، والأسرة، والجنس، والحرية، والدين، والمعنى. فيتحوّل الإعلام، والتعليم، والفن، والمنصّات الرقمية إلى أدوات لإعادة هندسة الهوية الإنسانية عالمياً. ولذلك، فإن الصراع المعاصر هو صراع على تعريف الإنسان نفسه.

وفي هذا السياق، تبرز التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي بوصفها واحدة من أخطر ساحات الصراع الجديدة. فهذه الأدوات تحمل إمكانات هائلة لخدمة الإنسان، لكنّها قد تتحوّل أيضاً إلى وسائل غير مسبوقة للرقابة، والتحكّم، وتوجيه الإدراك، وصناعة الرأي العام. إنّ أخطر ما في الاستكبار المعاصر أنّه لم يعد يحتاج دائماً إلى فرض الطاعة بالقوة؛ لأنّه يسعى إلى إنتاج إنسان يتبنّى قيم الهيمنة طوعاً، ويعيد إنتاجها من داخل وعيه وسلوكه اليومي.

إنّ الاستكبار المعاصر، رغم كلّ ما يملكه من أدوات وتقنيات وقوّة ناعمة وصلبة، يبقى امتداداً لذلك المنطق القديم الذي واجهه الأنبياء عليهم السلام عبر التاريخ: منطق العلوّ في الأرض، واحتكار الحقيقة، وإخضاع الإنسان لمنظومات القوّة. ولأجل ذلك لا يقدم القرآن مواجهة الاستكبار بوصفها معركة ظرفية مرتبطة بزمان أو مكان، بل بوصفها معركة دائمة بين مشروع يريد تحرير الإنسان لله، ومشروع يريد تحويله إلى تابع داخل أنظمة الهيمنة مهما تغيّرت أسماؤها وشعاراتها.

خامساً: المُستضعفون في القرآن - من الضحية إلى الفاعل التاريخي

إذا كان القرآن الكريم قد كشف طبيعة الاستكبار وآلياته، وبناء النفسية والحضارية، فإنه في المقابل لم يقدم المُستضعفين بوصفهم مجرد ضحايا عاجزين يدورون داخل دائرة القهر دون أفق بل قدمهم بوصفهم محوراً رئيساً في حركة التاريخ وسُنن التغيير. فالقرآن ينظر إلى الاستضعاف باعتباره حالة قابلة للتحوّل حين يستعيد الإنسان وعيه وإرادته وصلته بالله تعالى. فالحديث عن المستضعفين في القرآن ليس حديثاً عن الشفقة بل عن مشروع تحرر تاريخي وخلق حضاري.

يفرق القرآن بوضوح بين "الضعف" و"الاستضعاف". فالضعف قد يكون حالة طبيعية ترتبط بالقدرات والإمكانات، أما الاستضعاف فهو عملية تُمارس على الإنسان أو الجماعة بهدف سلب الإرادة، وتحويلهم إلى أدوات داخل منظومة الهيمنة. ولهذا، قال -تعالى- عن (فرعون): ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ [القصص: ٤]. فليس الاستضعاف وصفاً ذاتياً لبني إسرائيل بل سياسة مقصودة هدفها إنتاج جماعة مكسورة نفسياً واجتماعياً حتى يسهل التحكم بها.

يكشف القرآن عن أنّ الاستكبار يعمل على تحطيم البنية النفسية للمُستضعفين، عبر نشر الخوف، وإضعاف الثقة بالذات، وتحويل الناس إلى كائنات فاقدة للإرادة. فإنّ أخطر آثار الهيمنة هو إنتاج عقلية العجز والاستسلام، حتى يصبح القهر جزءاً من الوعي اليومي.

لكنّ القرآن، في مقابل ذلك، يرفض تحويل المُستضعفين إلى هوية سلبية دائمة، فتأتي الآية المحورية في هذا السياق: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. إنها واحدة من أكثر الآيات القرآنية كشافاً لفلسفة التاريخ في القرآن؛ لأنها لا تتحدّث فقط عن رفع الظلم، بل عن انتقال المُستضعفين من موقع التبعية إلى موقع القيادة. فالقرآن يريد للمُستضعف أن يتحوّل إلى فاعل خلق حضاري يعيد بناء التاريخ على أساس العدل.

يبدأ التحرر في الرؤية القرآنية من الوعي قبل السلاح، ومن استعادة الكرامة قبل استعادة السلطة. ولهذا كان أول ما فعله موسى (عليه السلام) ليس بناء جيش، وإنما إعادة بناء الوعي داخل الجماعة المُستضعفة. فالإنسان الذي اقتنع بعجزه لا يمكن أن يتحرر حتى لو امتلك أدوات القوة؛ لأن الهزيمة الحقيقية تبدأ حين تستقر داخل النفس.

ويكرر القرآن الدعوة إلى عدم الخضوع النفسي للمستكبرين. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]. إنها دعوة إلى مقاومة الانكسار الداخلي الذي تحاول منظومات الهيمنة إنتاجه باستمرار. فالاستكبار يعيش دائماً على إقناع الآخرين بأنه قوة لا تُقهر، وأن مقاومته عبثية، وأن العالم لا يمكن أن يتغير. فإن أول انتصار للمستضعفين هو كسر صورة المستكبر المطلقة داخل الوعي.

لا يربط القرآن التمكين بالعدد، أو الثروة، أو القوة المادية وحدها بل بالإيمان والوعي والثبات. يقول تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. فإن الوعي القرآني يعيد تعريف القوة نفسها؛ فالقوة تكمن في ما يملكه الإنسان من بصيرة، وصبر، وقدرة على الثبات أمام محاولات الإخضاع.

وفي هذا السياق تبرز قيمة "الصبر" في القرآن بوصفها فعل مقاومة لا حالة سلبية. فالصبر القرآني قدرة على الثبات وعدم الانهيار أمام الضغط النفسي والسياسي والحضاري. ولذلك، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤]. إن القيادة هنا مرتبطة بالصبر؛ لأن معركة التحرر تحتاج إلى قدرة على مقاومة الإحباط، والخوف، والتضليل. ومن اللافت أيضاً أن القرآن يكشف مسؤولية بعض المُستضعفين عن استمرار الاستضعاف حين يتحولون إلى شركاء في منظومة الهيمنة عبر الخوف، أو التبعية، أو تبرير الظلم. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ * قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ * قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧]. فالقرآن لا يحوّل الاستضعاف إلى ذريعة تلغي المسؤولية الخلقية بالكامل، وإنما يميّز بين من فُرض عليه القهر فعلاً، وبين من استسلم له حتى صار جزءاً من استمراره.

ليس التحرّر في الرؤية القرآنية مجرد انتقال سياسي بل إعادة بناء للإنسان نفسه. فالقرآن لا يريد استبدال مُستكبرٍ بمُستكبرٍ آخر، بل يريد تأسيس مجتمع يقوم على العدل وعدم العلوّ في الأرض. فحين يرث المُستضعفون الأرض لا ينبغي أن يعيدوا إنتاج الفرعونية بصورة جديدة بل أن يتحوّلوا إلى حملة رسالة خُلقيّة تحفظ كرامة الإنسان. وفي العالم المعاصر تبدو هذه الرؤية القرآنية شديدة الأهمية؛ لأنّ كثيراً من الشعوب تعيش اليوم أشكالاً متعدّدة من الاستضعاف السياسي والاقتصادي والثقافي والإعلامي. فهناك أمم تُستنزف ثرواتها، وتُعاد صياغة وعيها، وتُدفع نحو فقدان الثقة بتاريخها وهويتها، وقدرتها على النهوض. فإنّ أخطر أشكال الاستضعاف الحديث ليس الفقر وحده بل إقناع الشعوب بأنّها عاجزة بطبيعتها، وأنّ الهيمنة العالمية قدر لا يمكن مقاومته.

إنّ القرآن، وهو يتحدّث عن المُستضعفين، لا يزرع فيهم عقلية الضحية بل يبني فيهم وعي الرسالة. ولذلك، فإنّ المُستضعف الحقيقي هو من لم يفقد إنسانيّته رغم القهر، ومن لا يزال قادراً على رؤية الحق والتمسك به، وعدم الذوبان داخل منظومة الاستكبار. ومن هنا، فإنّ التاريخ في الرؤية القرآنية لا تصنعه دائماً الإمبراطوريات الكبرى، وإنّما قد تصنعه جماعات قليلة امتلكت البصيرة والإرادة والثبات، فاستطاعت أن تكسر منطق الهيمنة، وتعيد فتح الطريق أمام الإنسان نحو الحرية، والعدل، والهداية.

سادساً: نحو قراءة قرآنية معاصرة لمواجهة الاستكبار

إنّ أخطر ما يمكن أن يحدث مع المفاهيم القرآنية الكبرى هو أن تتحول إلى عناوين وعظية منفصلة عن حركة الواقع والتاريخ. ولا يكتمل الحديث عن الاستكبار في القرآن بمجرد توصيف المُستكبرين أو استحضار النماذج الماضية، بل يقتضي بناء قراءة معاصرة قادرة على اكتشاف البنية الاستكبارية في العالم الحديث، وفهم أدواتها الجديدة، واستعادة الوظيفة التحريرية للقرآن بوصفه كتاباً يصنع الوعي، ويعيد تشكيل الإنسان في مواجهة كل أنماط العلو والهيمنة.

إنَّ أول ما تحتاجه الأمة اليوم هو تجاوز القراءة الاختزالية للاستكبار بوصفه مجردَ عنوان سياسي أو شعار تعبوي. فالاستكبار في القرآن أعمق بكثير من أن يُختزل في دولة أو جغرافيا أو حدث مرحلي؛ لأنَّه منطوق متكامل يقوم على تأليه القوة، واحتكار الحقيقة، وتحويل الإنسان إلى تابع داخل منظومات الهيمنة. فتبدأ مواجهة الاستكبار من إعادة بناء الوعي القادر على فهم كيف تعمل الهيمنة داخل الثقافة، والإعلام، والاقتصاد، والتعليم، وأنماط الحياة اليومية. ولهذا، فإنَّ القراءة القرآنية المعاصرة مطالبة بتفكيك الخطاب الاستكباري الذي يغلف الهيمنة بلغة خُلُقِيَّة وإنسانية براقية. فكثير من مشاريع السيطرة الحديثة تُقدِّم اليوم تحت عناوين "الدفاع عن الديمقراطية" أو "حماية حقوق الإنسان" أو "الحفاظ على الأمن العالمي"، بينما تُمارَس في الواقع أشكال هائلة من الإخضاع والاستنزاف والسيطرة على الشعوب والموارد والثقافات. وعلى هذا الأساس، تتجلى أهمية المنهج القرآني الذي ينظر إلى البنية الفعلية التي تنتج الظلم والفساد والعلو في الأرض.

وفي هذا السياق يصبح من الضروري استعادة مركزية المفاهيم القرآنية في فهم الواقع المعاصر. فالقرآن يكشف البنى الحضارية التي تنتج الطغيان والاستضعاف. فإنَّ مفاهيم مثل: الاستكبار، والاستضعاف، والفساد، والترف، والطغيان، هي أدوات تحليل عميقة لفهم حركة التاريخ والمجتمع والقوة.

تكمن واحدة من أخطر الإشكاليات المعاصرة في أنَّ بعض المجتمعات قد تنجح في التحرُّر السياسي بينما تبقى خاضعة ثقافياً ونفسياً لمنظومات الاستكبار. فقد تستعيد الأمة أرضها لكنَّها تخسر وعيها، أو تمتلك قرارها السياسي بينما تظل أسيرة للمعايير الفكرية والقيمية التي يفرضها الآخر. وانطلاقاً من ذلك، يركِّز القرآن على تحرير الإنسان من الداخل؛ لأنَّ الهزيمة الحضارية تبدأ غالباً حين يفقد الإنسان ثقته بهويته وقيمه وقدرته على إنتاج المعنى.

إنَّ بناء المناعة الثقافية والخُلُقِيَّة يصبح جزءاً رئيساً من معركة مواجهة الاستكبار. فالإنسان

الذي يفقد بوصلته القيمة يصبح أكثر قابلية للاختراق مهما امتلك من إمكانيات مادية. ومن هنا تأتي أهمية إعادة وصل الأجيال بالقرآن بوصفه كتاب وعي، وحركة، وتحرير. واستناداً إلى ذلك، فإن العودة إلى القرآن هي عودة إلى الميزان الذي يمكن الإنسان من رؤية الواقع بوضوح وسط هذا التشابك الهائل من الخطابات والصور والمصالح. فالقرآن يكشف أن الاستكبار مهما تطور تقنياً أو إعلامياً يبقى قائماً على الوهم نفسه: وهم القدرة المطلقة والعلو الدائم. ولذلك يذكر القرآن دائماً بحتمية سقوط الطغيان مهما بدا متماسكاً. يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

إن القراءة القرآنية المعاصرة لمواجهة الاستكبار تهدف فقط إلى تأسيس مشروع وعي يعيد للإنسان حرّيته الداخلية وقدرته على التمييز وعدم الانبهار بالقوة. وفي المحصلة، تبقى الرسالة القرآنية واضحة عبر كل العصور: أن معركة الإنسان الحقيقية ليست فقط ضدّ مُستكبرٍ خارجي بل ضد كل قابلية داخلية للانبهار بالقوة أو الخضوع للباطل أو تحويل الذات إلى مركز للحقيقة. ولذلك فإن القرآن لا يكتفي بإسقاط أصنام الحجر، بل يسعى إلى إسقاط أصنام الوعي أيضاً؛ لأن التحرر الحقيقي يبدأ حين يدرك الإنسان أن الكرامة لا تُستمد من الخضوع للمُستكبرين، بل من العبودية لله وحده.

وفي الختام، لا بدّ من الإشارة إلى أن أبحاث هذا العدد قد جاءت على الشكل الآتي: حيث تناولت دراسات المحور: «الاستكبار في القرآن الكريم: دراسة في الطبائع والأنواع»، و«أساليب المُستكبرين في السَّيْطَرَةِ وَالتَّضْلِيلِ وَاسْتِضْعَافِ الشُّعُوبِ - نماذج قرآنية -»، و«حتمية هلاك المُستكبرين وَنَجَاةُ المُستضعفين - دراسة سُنيَّة قرآنية -»، و«الاستكبار في الرؤية القرآنية: البنية الدلالية وآليات الهيمنة على الوعي والمجتمع والمعيار». أما باب الدراسات والبحوث القرآنية، فقد خصص للغوص في «منهجية التعبير عن النّقاط التّربويّة في القرآن الكريم: سورة الحجرات أنموذجاً»، مضافاً إلى قراءة في كتاب: «السياسات الاستكبارية في القرآن الكريم».

وبذلك نأمل أن يسهم هذا العدد في ترسيخ قراءة قرآنية واعية، تعيد توجيه النقاش نحو القيم، وتحرّر الإنسان من السرديات المغلقة، وتؤسس لوعي حضاري يجعل القرآن مصدرًا للهداية في عالم مضطرب، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

والله الموفق إلى سواء السبيل.

الاستكبار في القرآن الكريم^(١)

دراسة في الطبائع والأنواع

◆ سيما جويني بور^(٢)

◆ سهيلا بيروز فر^(٣)


◆ المترجم: د. محمد فراس الحلباوي^(٤)

■ خلاصة

من البحوث والدراسات المهمة في كلِّ زمان ومكان إدراك ظاهرة الاستكبار وفهمها، ويُعدّ إدراك هذه الظاهرة من لوازم البصيرة الدينيّة والوعي الاجتماعيّ الأهمّ. يسعى هذا المقال لعرض تعريف جامع وشامل لطبيعة الاستكبار، وإعطاء تحليل دقيق له، ودراسة هذه المفردة ودلالاتها. يتطرّق أيضًا هذا المقال إلى أنواع هذه الظاهرة، وتفسيرها، ومعرفة جذورها، واستنباط عواملها، ومعرفة الآثار المترتبة عليها. يستند المقال في دراسته وبحثه إلى المنهج التحليليّ للنصّ، ودراسة الآيات المرتبطة بالاستكبار. كما يشير أيضًا إلى الأرضيّة والعوامل والآثار المرتبطة بهذه الظاهرة الاجتماعيّة المشؤومة بعد دراسة المفردة إلى جانب المفردات المرادفة ومتشابهة الدلالة، ويستنتج أنّ الاستكبار العباديّ هو السبب الرئيس لسائر أقسام الاستكبار. تُعدّ الطبقة المستكبرة، والسلطة العسكريّة، والاقتصاديّة، والاستغناء عن الله، والغفلة عن القدرة الإلهيّة من العوامل الأهمّ لتشكّل ظاهرة الاستكبار.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، علم الدلالة، الاستكبار، الاستضعاف، الكفر، الظلم.

- ١ - فصلية علمية- بحثية: دراسات القرآن والحديث، السنة الثانية عشرة، العدد الأول (المتتابع ٢٣)، خريف وشتاء ٢٠١٨، ص.ص ١٦٩-١٩٨.
- ٢ - دكتوراه في علوم القرآن والحديث من جامعة فردوسي، مشهد، إيران
- ٣ - أستاذ مساعد في قسم علوم القرآن والحديث في جامعة فردوسي، مشهد، إيران.
- ٤ - دكتوراه في اللغة الفارسية وآدابها، مدرّس في جامعة دمشق، ترجمان محلف.



Arrogance in the Holy Qur'an⁽¹⁾

Study of Natures, Types

◆ **Dr. Sima Joveinypour**

PhD in Quranic and Hadith Sciences, Ferdowsi University, Mashhad, Iran.

◆ **Dr. Soheila Pirouzfard**

Assist Professor in the Department of Quranic and Hadith Sciences, Ferdowsi University, Mashhad, Iran.

◆ **Translated by: Dr. Muhammad Firas Al-Halabawi**

PhD in Persian Language and Literature, Lecturer at Damascus University, Sworn Translator.

■ Abstract

Understanding the phenomenon of the arrogance is a research necessity in every time and place, and is essential for religious insight and social awareness. This article seeks to provide a comprehensive definition of the nature of arrogance, analyzing its dimensions and linguistic connotations, addressing the types of this phenomenon, its roots, the factors that led to its emergence, and its consequences. The article's methodology relies on textual analysis of relevant Qur'anic verses, comparing the term "arrogance" with similar terms of connotation, to conclude that "religious arrogance" is the primary root of all other forms of arrogance. It also demonstrates that the dominance of arrogant classes, the power of military and economic forces, coupled with disregard for Allah and ignorance of His power, constitute the most significant factors in the emergence of this ominous social phenomenon.

Keywords:

The Holy Quran, Semantics, Arrogance, Oppression, Disbelief, Injustice.

1 - Research-Scientific Quarterly: Qur'anic and Hadith Studies, Year 12, Issue 1 (Consecutive No. 23), Autumn/Winter 2018, pp. 169- 198.

مقدمة

وردت مفردة «استكبار» بمشتقاتها ٤٨ مرة في القرآن الكريم. وقد وردت كلمات «عتوّ»، و«علوّ»، و«استنكاف»، و«كفر»، و«ظلم» مقترنة بكلمة استكبار في القرآن، وقد وُضعت مفردات مثل «بغي»، و«بطر»، و«استغناء»، و«طغيان» على قدم المساواة من حيث المعنى مع كلمة استكبار. كما سعى المستكبرون في كل عصر وزمان إلى الهيمنة والفساد في الأرض بشتى الأنواع، واستعبدوا واستضعفوا جماعات كبيرة من البشر. يفترض هذا المقال ارتباطاً وثيقاً بين الاستكبار والرفاه الاقتصادي والقوة. لا يدفع الاستكبار بالمستكبر إلى آثار وخيمة فحسب، بل ينتج عنه أيضاً عواقب سلبية وخطيرة على المجتمعات البشرية، ويُعدّ عائقاً مُهمماً أمام تقدّم الحضارات، والسؤال الرئيس لهذا البحث هو كيف يمكن، من خلال تحليل طبيعة الاستكبار وأنواعه، التوصل إلى عوامل الاستكبار وجذوره، وكذلك تقديم الحلول لمواجهة هذه الظاهرة المشؤومة.

ألُفّت مقالات وبحوث كثيرة عن موضوع الاستكبار في القرآن الكريم، وقد درس كل منها هذه الظاهرة من زاوية معينة، وأحياناً من منظورات مختلفة. في ما يأتي نعرّف ببعض منها: مقال «معنى الاستكبار في القرآن» لـ (أصغر افتخاري) و(مجتبى باباخاني)؛ في هذا المقال، يتناول المؤلفان بعد توضيح مفردة الاستكبار، عواقبه على المستويات الخلقية، والعقدية، والنفسية، والاجتماعية المختلفة. ومقال «معنى الاستكبار في القرآن بناءً على نظرية

(إيزوتسو - Toshihiko Izutsu) لـ (سيّد مهدي شهيدي). في هذا المقال، تُوضّح كلمة الاستكبار بمنهج دلاليّ بناءً على طريقة (إيزوتسو). ومقال ”الكبر والاستكبار“ لـ (مينو صابر بور)؛ في هذا المقال، يُبحث في مفهوم الاستكبار من منظور علماء اللغة والأخلاق، ويُشار إلى عواقب الاستكبار وطُرُق علاجه. مقال ”الاستكبار وأساليب مكافحته في القرآن“ لـ (سيّد صمد الموسوي). في هذا المقال، تُدرس دلالات كلمة الاستكبار، وظروف نشأته وعوامله، وطرق مكافحته. في الكتابات والأعمال المشابهة، نادرًا ما جرى التطرّق إلى موضوع تصنيف الاستكبار. لذلك، فقد سعى هذا المقال إلى تقديم توضيح واضح، ودقيق لأنواع الاستكبار وطرق تنفيذه.

ينبغي ملاحظة أنّ كلمة الاستكبار لا تُستخدم أبدًا في حقّ الله تعالى؛ لأنّ الاستكبار يعني السعي وراء العظمة والتفوق، ومن يسعى وراء العظمة هو من لا يملكها، بينما الله عظيم ورفيع الشأن. لذلك، الاستكبار مذموم وقبيح دائمًا، ولكن الكبر مذموم وقبيح فقط في غير الله^(١). وكذلك، على الرغم من أنّ مفردتي ”مستكبر“ و”متكبر“ تختلفان في المعنى، لكنّ مصداقهما واحد، ويُستخدم كل منهما حسب مقتضاه. المستكبر يسعى وراء العظمة ويريد أن يخرج تلك الرغبة من قلبه إلى الخارج، والمتكبر هو من قبل الكبر لنفسه وجعله صفة له^(٢).

أولًا: مفهوم «الاستكبار»

بما أنّ علم الدلالة هو أسلوب جديد وفعال في دراسة المفاهيم والمفردات وتوضيحهما واكتشاف معان جديدة لها، فقد بدأنا في هذا المقال بدراسة كلمة الاستكبار باستخدام طريقة علم الدلالة، ثمّ انتقلنا إلى تصنيف الأنواع لهذا المفهوم؛ لأنّه لا يمكن تحقيق فهم عميق وتحليل شامل لأنماط الاستكبار وأنواعه ما لم يتسنّ توضيح مفهوم الاستكبار، ومعناه الدقيق.

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦.

٢ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٣٤.

١. الاستكبار لغة واصطلاحاً

مفردة "الاستكبار" من باب "الاستفعال"، ومن مادة "كبر" بمعنى "العظمة وجلال القدر"^(١). والكبر حالة ناتجة عن إعجاب المرء بنفسه والشعور بالاستعلاء، وله وجهان: أحدهما، أنّ الإنسان في الظروف الزمانيّة والمكانيّة المناسبة يطلب العظمة، وهذا أمر لائق ومستحسن، والوجه الآخر هو أن يظهر عظمة في حين أنّه ليس كذلك في الواقع^(٢). الكبر له علاقة جوهرية وارتباط رئيس بكلمات ومفردات أخرى من المستوى نفسه، مثل الشرك والكفر، وتقع ضمن شبكة دلاليّة واحدة. عرّف أهل اللغة والمفسّرون "الاستكبار" بأنّه رفض الحقّ عن عناد وتكبر^(٣). والإصرار على عدم سماع كلمة الحقّ، وقبول الدعوة الإلهيّة^(٤). يُطلق لفظ «المستكبر» على من يسعى إلى التفوّق على الآخرين، وهو يرى نفسه أعظم من الآخرين ويسعى للحصول على مكانة لا يستحقّها^(٥). وبسبب هذا الشعور بالاستعلاء، فإنّ المستكبر يمتنع دائماً عن قبول الحقّ ويجادل في آيات الله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

٢. الفرق بين كلمتي «الاستكبار» و«التكبر»

التكبرُ يعني الظهور بالكبرياء وإظهار العظمة؛ سواء كان المتكبرُ يتمتع حقاً بالعظمة مثل الله المتعال أم لا، يتمتع بالعظمة ويدعي العظمة فقط، مثل تكبر غير الله. إذن، التكبرُ حقّ في حالة واحدة، وهي عندما يُستخدم في وصف الله [الحشر، ٢٣]. إذن، التكبرُ باطل في

١ - الخليل بن أحمد الفراهيدي: كتاب العين، ج ٥، ص ٣٦١.

٢ - حسين بن محمّد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٦٧٩.

٣ - محمّد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ١٢٦.

٤ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص ٣٠.

٥ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦ وج ٢٠، ص ٨٠.

غير الله، والمتكبر يُلام^(١).

ينبغي الالتفات إلى أنّ مفردة الاستكبار لا تستخدم لله -عزّ وجلّ- بتاتاً؛ لأنّ الاستكبار يعني طلب الاستعلاء والتفوق، ولا يطلب إلاّ من كان فاقداً لها، في حين أنّ الله عالٍ وكبير. لذلك، فإنّ الاستكبار مذموم دائماً وقبيح، لكنّ التكبر مذموم وقبيح فقط في غير الله^(٢). كذلك فعلى الرغم من أنّ مفردتي المستكبر والمتكبر مختلفتان لكن مصداقهما واحد، وتستخدم كلّ منهما في ما يقتضي ذلك. يسعى المستكبر للتعالي والكبر، ويريد أن يُظهر تلك النزعة ويخرجها من برائن باطن إلى تجليات ظاهره، في حين أنّ المتكبر من رضي بالتكبر لنفسه وجعله صفة له^(٣).

ثانياً: دلالات «الاستكبار»

١. الكلمات الموائمة للاستكبار [المتوافقة في العلاقة التركيبية والأفقية لها]

لتحليل أيّ كلمة بدقّة، من الضروري تحديد المفردات الموائمة لها والمتوافقة أفقياً معها، وتقديم وصف دقيق لها، عندها فقط تُحدّد القيمة الدلالية للكلمات. في القرآن الكريم، وردت كلمات مثل: "عتوّ" في الآية ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، و"علوّ" في الآية ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٦]، و"استنكاف" في الآية ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣]، و"كفر" في الآية ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. و"ظلم" في الآية ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ... فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠] موائمة ومتوافقة ومصاحبة لكلمة استكبار.

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦.

٢ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦.

٣ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٣٣٤.

من ناحية أخرى، وبمراجعة آيات القرآن، يُلاحظ أنّ مفردات مثل "بغى" [الشورى: ٢٧؛ القصص: ٧٦-٧٧]، و«بطر» [القصص: ٥٨؛ الأنفال: ٤٧]، و«استغناء» [العلق: ٦-٧؛ الليل: ٨،٩]، و«طغيان» [طه: ٤٣-٤٤؛ يونس: ٨،٧، ١١؛ النازعات: ٣٧-٣٨]، وُضعت على قدم المساواة من حيث المعنى مع كلمة استكبار، وفي الواقع يمكن عدّها ضمن النطاق الدلالي لكلمة استكبار وتفسيرها. كما أنّ هذه الكلمات تُعبّر عن أسباب الاستكبار وآثاره ونتائجه. طبعاً، ينبغي ملاحظة أنّه في بعض الحالات، لا تُعدّ المفردات الأنفة الذكر مرادفة تماماً ومتطابقة في المعنى مع كلمة استكبار، بل ثمة علاقة تساوي أو تشابه أو علاقة عموديّة [استبدالية] بين تلك الكلمات المفتاحيّة. وهذا التشابه والتساوي أو العلاقات الاستبدالية والحلوليّة بين الكلمات المحوريّة في القرآن تصل إلى حدّ يصعب معه أحياناً التمييز بينها^(١)، وفي ما يأتي شرح موجز لمعاني بعض هذه الكلمات وعلاقتها بالاستكبار:

أ. العتوّ

«عتوّ» على وزن «عُلوّ» تعني التجاوز والعصيان^(٢)، والغرور المفرط، والتصرّف باستكبار. مفردة «عنا» مع حرف الجر «عن» تعني الإعراض والتخلّف عن الأمر والنهي عن الأوامر والتعليمات والتمردّ عليها. إذا حكمنا من خلال الأمثلة المستخدمة لهذه المفردة، ربّما يمكن القول إنّ «عنا» تشير إلى التجلّيات الخارجيّة والملموسة للغرور والتكبّر - في السلوك والقول -، بينما «الاستكبار» يشير إلى الحالة الداخلية للغرور والتكبّر^(٣).

يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى

١ - سيّد مهدي شهيدي: دلالة مفردة الاستكبار في القرآن الكريم حسب نظريّة إيزوتسو، ص. ١٣٤-١٣٥.

٢ - محمّد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، ج ١٥، ص ٢٨.

٣ - توشيهيكو إيزوتسو: مفاهيم اخلاقيّة دينيّة در قرآن مجيد [المفاهيم الخُلقيّة الدينيّة في القرآن المجيد]، ص ٢٩٨.

رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا ﴿ [الفرقان: ٢١].

ب. العلوّ

عدّ علماء اللغة هذه الكلمة بمعنى العظمة والتكبر والتمرد^(١). يمكن أن يكون لـ "العلو" جانب ماديّ وجانب معنويّ، كما استخدم في القرآن الكريم بالمعنيين [النازعات: ٢٣-٢٤] [التوبة: ٤٠]^(٢). يقول القرآن في قصة النبي موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٦]، في هذه الآية، يُعرّف علوّ (فرعون) وأشرف قوم بني إسرائيل وتكبرهم بأنّه أحد جذور استكبارهم وأسبابه. المقصود بـ "العالمين" في الآية هو أنّهم كانوا يتمتّعون بالعلوّ والتفوّق على الآخرين، وقد جعلوا الآخرين عبداً ومطيعين لهم. العلوّ في الأرض كناية عن الطغيان على أهل الأرض وإخضاعهم لطاعتهم^(٣). وقد قال بعض المفسرين -أيضاً- إنّ مقصود القرآن هو ادّعاء فرعون الألوهيّة. هذه الروح الفرعونيّة كانت موجودة أيضاً بين جميع أشرف فرعون وحاشيته، بحيث لو وجد أيّ منهم فرصة، لطغى مثل (فرعون) وادّعى الألوهيّة^(٤).

ج. الاستنكاف

"استنكاف" من جذر "نكف" وتعني الإباء والامتناع^(٥). وقد ذكر بعض علماء اللغة أنّ الأصل في هذه المادّة هو عدم طلب الشيء وعدم الميل إليه^(٦). وقد عدّ بعض المفسرين أيضاً

١ - الخليل بن أحمد الفراهيديّ: كتاب العين، ج ٢، ص ٢٤٥.

٢ - حسن مصطفىويّ: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٨، ص ٢١٣.

٣ - السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، مج ١٥، ص ٣٤.

٤ - محمّد جواد مغنّيّة: التفسير الكاشف، ج ٥، ص ٣٧٣.

٥ - حسين بن محمّد الراغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، ص ٨٢٤.

٦ - محمّد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، ج ٩، ص ٣٤٠.

”الاستنكاف“ مرادفًا لكلمة ”استكبار“^(١). يبدو أنّ سبب انتشار هذا المعنى لـ ”الاستنكاف“ هو اقترانه بالاستكبار في الآيتين الشريفتين ١٧٢ و ١٧٣ من سورة النساء، ولكن الاستكبار لا يدخل في مفهوم الاستنكاف، وسبب ذلك هو ذكرهما بشكل منفصل في هاتين الآيتين^(٢).

د. الكفر

”الكفر“ في اللغة يعني الستر والتغطية، وسبب تسمية ”الكافر“ بذلك، هو أنّه يسعى لتغطية الحقيقة ومنع ظهورها^(٣) في كثير من الحالات، عدّ القرآن الكريم الكفر نتيجة لاستكبار الأفراد وتكبرهم، وأحد أسبابه ومصادره، مثل استكبار الشيطان عن طاعة الأمر الإلهي بالسجود لآدم عليه السلام في الآية الآتية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]. وفي آية أخرى، عن الذين يتمنون بعد موتهم عند رؤية العذاب الإلهي أن يعودوا إلى الدنيا ليكونوا من المحسنين، يقول: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩].

هـ. الظلم

يعني الظلم وضع الشيء في غير موضعه. سواء أكان ذلك بزيادة أم نقصان فيه، أم بالخروج عن زمانه ومكانه^(٤) في الواقع، ”الظلم“ هو إضاعة للحقوق القائمة بين الإنسان والله والناس الآخرين، وهو الخروج عن طريق الحق والاعتدال في الأفكار، والمعتقدات،

١ - حسن مصطفويّ: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ١٢، ص ٢٤٧.

٢ - حسن مصطفويّ: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ١٢، ص ٢٤٧.

٣ - حسين بن محمّد الراغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، ص ٧١٩.

٤ - حسين بن محمّد الراغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، ص ٥٣٧.

والأعمال، والآداب، والأخلاق، والصفات النفسية، والأقوال.^(١) يذكر الله -تعالى- في بعض الآيات الاستكبار بوصفه سبباً لظلم المستكبرين:

﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانَظَرُ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٣٩-٤٠].

٢. الكلمات المقابلة والمضادة للاستكبار.

إنّ دراسة المفردات المضادة مهمّ للفهم الكلمات بدقّة، وإيجاد المعاني المشتركة بينها. لذلك يسعى المقال في هذا القسم، لتحقيق فهم أفضل وأكثر دقّة لمفردة الاستكبار من خلال دراسة المفردات المقابلة والمضادة لها.

أ. الإيمان

”الاستكبار“ هو نقيض ”الإيمان“، وهو من عوامل عدم الإيمان بالله والأنبياء. كما يقول:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

ويقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢-١٣٣]. كما يلاحظ، في هذه الآيات، فقد وُضع الاستكبار في مقابل الإيمان.

ب. التقوى

لقد ورد في بعض الروايات أنّ عدم إرادة العلو والاستكبار هو أوّل درجة من درجات

١ - حسن مصطفىوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج٧، ص ١٧١.

التقوى. يقول الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث طويل: «وَلَا يَطْلُبُ الدُّنْيَا تَكَثُرًا وَتَفَاخُرًا وَلَا يَطْلُبُ مَا عِنْدَ النَّاسِ عِزًّا وَعُلُوًّا وَلَا يَدْعُ أَيَّامَهُ بَاطِلًا فَهَذَا أَوَّلُ دَرَجَةِ التَّقَى قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]»^(١).

ج. الاستضعاف

يمكن عدّ هذه الكلمة نقيض الاستكبار تمامًا. ورد لفظ الاستضعاف بصيغتي الاسم والفعل ١٥ مرّة في القرآن،^(٢) ويعني سلب القدرة والطاقة على أداء الواجب [الأعراف: ١٥٠] و[هود: ٩١]، وعدم وجود حيلة أو مخرج من الظلم [النساء: ٧٥]، وعدم التمتع بالمكانة الاجتماعية والضعف والتشتت [الأنفال: ٢٦]، والعجز العلمي والتبعية العمياء للشخصيات السياسية والاجتماعية [إبراهيم: ٢١]، وغير ذلك.

لقد وضع القرآن الكريم المستكبرين في مقابل الضعفاء [إبراهيم: ٢١]؛ لتنبههم إلى أنّ استكبارهم كان بسبب قوتهم البدنية والمالية، وفي مكان آخر وضع المستكبرين في مقابل المستضعفين^(٣).

كلمة "مستضعف" مشتقة من مادة "ضعف"، ولكن بما أنّها صيغت على وزن "استفعال"، فهي تعني من جرى إضعافه وتقييده. بمعنى آخر، المستضعف ليس ضعيفاً وعاجزاً ويفتقر إلى القوة والطاقة. المستضعف هو من يمتلك قوى فعلية وكامنة، ولكنه يتعرض لضغط شديد من الظالمين والمتجبرين. للمستضعف أنواع وأقسام، ولكن ما ركّز عليه القرآن الكريم أكثر هو

١ - محمّد باقر المجلسي: بحار الأنوار، ج ١، ص ٢٢٦.

٢ - محمّد فؤاد عبد الباقي: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، صص ٥٣٣-٥٣٤.

٣ - حسين بن محمّد الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٤٣٨.

المستضعفون سياسياً وخلقياً^(١). في الجدول أدناه، توضيح للعلاقة بين الاستكبار والكلمات المرادفة والمضادة له.

تصنيف الكلمات المرادفة والمضادة للاستكبار

المفردات المرادفة للاستكبار	العتوّ، والعلوّ، والاستنكاف، والكفر، والظلم.
المفردات المضادة للاستكبار	الإيمان، والتقوى، والاستضعاف.
النتيجة	العتوّ، والاستنكاف، والكفر، والظلم هي نتائج الاستكبار، والعلوّ هو جذره. كما أنّ غياب الإيمان والتقوى يؤدي إلى ظهور روح الاستكبار واستضعاف الآخرين وتطوّر ذلك.

٣. مستويات الاستكبار

يمكن دراسة الاستكبار على مستويين فرديّ واجتماعيّ. يؤثر هذان المستويان في بعضهما الآخر. وهذا يعني أنّ الاستكبار الفرديّ يؤدي إلى الاستكبار الاجتماعيّ. نتناول هذين المستويين أدناه:

أ. المستوى الفرديّ

التفسير الأوّل لكلمة الاستكبار يرتبط بالفرديّ؛ بمعنى أنّ هذه الآيات تعدّ المستكبرين كفّاراً لم يخضعوا أنفسهم للدعوة الإلهية، وأنهم قد عصوا الله. توجد هذه الفئة من المستكبرين

١ - ناصر مكارم الشيرازي وآخرون: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ١٩، ص ٢٠.

في كل طبقة وفئة، سواء أكانوا فقراء أم أغنياء، حكماً أم محكومين، كما أشار القرآن الكريم في عدة آيات إلى استكبار (إبليس) وعصيانه للأمر الإلهي بالسجود لآدم (عليه السلام) [البقرة، ٣٤] و[ص: ٧٤-٧٥].

ب. المستوى الاجتماعي

التفسير الثاني لكلمة الاستكبار يرتبط بالمجتمع. تصف آيات من القرآن المستكبرين بأنهم كُفَّار يمتلكون مواقع اقتصادية، وعسكرية، وسياسية في المجتمع، ويخضعون عدداً من الناس لسيطرتهم. هذه الفئة من الكفار، فضلاً عن استكبارها على آيات الله على المستوى الفردي، تحتقر خلق الله وتتكبر عليهم: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

تسعى هذه الفئة من الكفار بما تحظى به من تسلط على المجتمع، وما تمتلكه من إمكانات بكل ما أوتيت من قوة لإضلال الناس. يقول القرآن في هذا الشأن ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا التَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْتَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

٤. أنواع الاستكبار في القرآن الكريم

وفقاً لآيات القرآن الكريم، ينقسم الاستكبار بنحو عام إلى نوعين:

■ استكبار المخلوق على سائر المخلوقات.

■ استكبار المخلوق على الخالق.

إنَّ استكبار المخلوق على سائر المخلوقات قبيح؛ لأنَّ كلاهما متساويان في الفقر

والحاجة. ومن هذا المنظار، فإنَّ استكبار أحدهما على الآخر هو تجاوز للحدود، وهذا يعدّ بنفسه ظلماً وطغياناً. أمّا استكبار المخلوق على الخالق، فهو أن يرى المخلوق نفسه مستقلاً وغيئاً عن الخالق، وهذا يحدث عندما يكون المخلوق غافلاً عن مقام ربّه؛ لأنّه لو علم أنّ مكانته بالنسبة إلى خالقه هي مكانة المحتاج، والفقير والذليل في مقابل الغنيّ والعزيز، لما سعى أبداً إلى ظنّه بالتفوق على خالقه. نتيجة هذا الاستكبار والتكبر على الخالق هو الاستكبار في العمل، ومثل هذا الشخص لا يطيع أوامر الله ولا يتعد عن نواهيّه. إذا لم ير الإنسان لنفسه إرادة مستقلة ومنفصلة عن إرادة ربّه، فلن يمتنع أبداً عن طاعته^(١).

أ. تكبر المخلوق تجاه الخالق: إنّ التكبر العبادي هو من أهمّ أنواع تكبر المخلوق تجاه الخالق. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من التكبر في بضع آيات: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٢-١٧٣]. في هذه الآية ينبغي ملاحظة نقطتين:

■ وردت في هذه الآية الكريمة كلمة «استنكف» ملاصقة لكلمة «استكبار». الاستنكاف يعني الامتناع والابتعاد عن شيء، ولهذه المفردة معنى واسع، ومع ورود عبارة «استكبروا» يُقيد هذا المعنى بشيئين؛ لأنَّ إنّ الامتناع عن عبودية الله يكون تارة ناشئاً عن الجهل وعدم الإدراك، وأحياناً يكون بسبب التكبر والاعتداد بالنفس والعصيان؛ ورغم أنّ كلاهما خطأ، لكنّ الثاني أسوأ بكثير من الأوّل^(٢). المقصود في الآية هو استنكاف يكون بدافع

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٢، ص ٢٦٦-٢٦٧.

٢ - ناصر كارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٤، ص ٢٣٢.

التكبر والاعتداد بالنفس لا استنكاف ناجم عن الجهل وعدم الإدراك. الاستنكاف بمفرده لا يوجب سخط الله؛ لأن الاستنكاف نوعان: أحدهما من الجهل والضعف، والآخر من الاستكبار. الاستنكاف الذي يُغضب الله هو الذي يكون بدافع الاستكبار^(١). إذن، الاستنكاف هو الإعراض الجاهل، والاستكبار هو العصيان عن وعي. لذلك، إذا كان لدى المرء معرفة لكنّه أعرض عن عبادة الله، فاستنكافه سيمتزج مع الاستكبار، كما في هذه الآية والآية التي تليها فقد جاء بعد الاستنكاف مفردة الاستكبار؛ لأن استنكاف عيسى المسيح عليه السلام والملائكة لا يتحصّل إلا باستحكام روح الاستكبار فيهم وبما أنّ العلم والإيمان لدى المسيح عليه السلام، والملائكة هو حائل ومانع من الاستنكاف. لذلك، فإن ذكر الاستكبار في الجملة الثانية هو للتعبير عن طهارة هذه الذوات القدسيّة من الخبائث والدنس^(٢).

ورد الاستكبار عن العبادة في آية أخرى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وقد اختلف المفسرون في المراد بالدعاء في هذه الآية، فقال بعضهم: إنّ الآية أمر بالدعاء، وقال آخرون: إنّها أمر بالعبادة؛ وذلك بسبب العبارة التي تليها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾. فالأمر بالدعاء هو أمر بالدعاء المطلق، والدعاء بمعنى العبادة قد ورد في القرآن بكثرة. فالدعاء في الواقع هو اعتراف بالعبوديّة والذلّة والمسكنة، وتارك الدعاء مستكبر عن إظهار العبوديّة. وعلى كلّ حال، فإنّ فائدة الدعاء هي الفزع والانقطاع إلى الله^(٣).

■ أجاز بعض المفسرين استعمال لفظ الدعاء والاستجابة بمعناهما الظاهري؛

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ١٥٠-١٥١.

٢ - عبد الله جوادي آملي: تسنيم، ج ٢١، ص ٤٣٨.

٣ - فخر الدين الرازي: مفاتيح الغيب، ج ٢٧، ص ٥٢٧.

لأنّ الدعاء باب من العبادة ومن أفضل أبوابها^(١). وهكذا، فقد فسّر عدد من المفسرين الدعاء في هذه الآية بمعناه المعروف. والأهمّ من ذلك هو أنّ الدعاء والعبادة مرتبطان ارتباطاً وثيقاً في ما بينهما، والدعاء هو أحد تطبيقات العبادة وفروعها المهمّة.

كذلك، يذكر القرآن الكريم استكبار (إبليس) في عدم امتثاله لأمر السجود لآدم عليه السلام بقوله: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي * اسْتَكْبَرْتَ * أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١-٧٦]. يصدّر الله -تعالى- في هذه الآيات شعور الشيطان بالتفوق على آدم عليه السلام بصفته سبباً لاستكباره عن السجود له. وقد استدلل الشيطان في هذه الآية بأنّ خلقته كانت من النار، وخلقة الإنسان من طين. وهذا ما حدا بالشيطان متكبراً ليشعر بأنه أفضل من آدم عليه السلام، ويميّز عنه ويتفوق عليه، ومما يستنتج من إجابة الشيطان أنّ الاستكبار ينتج عن التمحور حول الذات، وهدف الشيطان من سوق عبارة «أنا خير منه» هو التعبير عما يعتقد من تميّز عرقِيّ جنسيّ وأيضاً التفاخر على الإنسان، وقد أدّى جميع ذلك إلى غروره وتكبره.

يُستنكر عمل الشيطان من عدّة جوانب، أحدها بسبب جرأته على ربّه؛ لأنّه لا ينبغي للمخلوق أن يتفوّه بكلمة «أنا» أمام خالقه، والآخر هو إعلاؤه من شأن نفسه أمام خالقه، بينما هو أعلم بأحواله من الجميع. والنقطة الأخرى هي أنّ الشيطان بجهله ظنّ أنّ النار أفضل من التراب، بينما لم يكن الأمر كذلك، وهذا لا يمكن أن يكون معياراً لتفوّق الشيطان على الإنسان^(٢).

واستناداً إلى الآيات التي فسّرت ووضّحت يمكن استنتاج أنّ «الامتناع والاستنكاف عن

١ - محمود الزمخشري: الكشاف، ج ٤، ص ١٧٥.

٢ - محمّد بن حبيب الله السبزواري النجفي: الجديد في تفسير القرآن المجيد، ج ٦، ص ١٣٦.

طاعة الأوامر الإلهية هو أحد نتائج الكبر أمام الله، ونتيجته هي العذاب الإلهي الشديد. لذا، يمكن استنتاج أنّ جميع الذنوب في التحليل النهائي تعود إلى ادّعاء الأنانية والصراع مع كبرياء الحقّ تعالى.

ذكر القرآن الكريم فضلاً عن أمثلة للمستكبرين أمثلة -أيضاً- لأولئك الذين لا يتكبرون ويخضعون لأوامر الله؛ مثل ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]. فكلّ ما في السماوات والأرض هو ملك لله، والملائكة والأرواح القدسيّة المقربّة من حضرته لا ترفض عبادته أبداً، ولا تتعب من العبادة التي يؤدونها بشوق ورغبة. في هذه الآية، يشير إلى الروح النقيّة من الكبر لدى العباد المقربين والملائكة الكرام؛ أولئك الذين يعرقون في عبادة الله دون كلل أو وملل، ولا يشغلهم أو يمنهم أي شيء عن هذه العبادة الدائمة^(١).

ب. استكبار المخلوق تجاه المخلوقات الأخرى

■ الاستكبار السياسي

المستكبرون السياسيون هم أولئك الذين يتولّون الحكم وإدارة المجتمع، وبنوع من السيطرة والاستعمار والاستغلال، يسعون لجعل عباد الله صغاراً ودينين وجهلة، ويستعبدونهم ويحكمون الناس بالباطل. في القرآن الكريم، يرتبط الاستكبار دائماً بكلمات مثل «الظلم» و«الطاغوت»، وقد وُصفت شخصيات مثل (إبليس)، و(فرعون)، و(نمرود) و... بأنّهم مستكبرون.

في هذا السياق، يبدو التكبر الصفة الأكثر تكراراً فيما يرتبط بشخصية (فرعون)، وهي الصفة الناجمة عن صفاته الأخرى.

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ص.ص ٢٦٥ - ٢٨١

النقطة المقابلة للاستكبار السياسي في الثقافة القرآنية هي الاستضعاف. يسعى المستكبرون بأساليب متنوعة إلى استعباد الآخرين وإضعافهم والسيطرة عليهم. ولما كان هدف المستكبرين هو تربية المستضعفين، فإنهم يستخدمون أي وسيلة لمنع النمو الفكري لدى البشر، والحد من تقدمهم وتطورهم، فهم يحقرونهم بطريقة لا تمكّنهم من المضي قدماً نحو الأمام. هذا التحقير والاستهانة بالخلق ليس باللسان فقط، بل يهيئون عملياً وبأساليب مختلفة أسباب الذل والشقاء والإهانة للبشر الآخرين.

أحد النماذج القرآنية العظيمة في محاربة الاستكبار هو النبي موسى (عليه السلام)، ولربما أحد المظاهر الجميلة والبارزة هي حركة النبي موسى (عليه السلام) لمواجهة استكبار فرعون واستضعافه لبني إسرائيل؛ إذ كانت هذه الحركة مواجهة للسلطة الفرعونية العظيمة في مجتمع اعتاد على الاستضعاف الفرعوني، وكانت مهمة صعبة للغاية. يصف القرآن الكريم الاستكبار الفرعوني على النحو الآتي:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَدَّبْحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٤-٥]؛ لقد استعلى فرعون في الأرض، وقسم أهلها إلى جماعات مختلفة؛ أضعف جماعة منهم، وذبح أبناءهم واستحى نساءهم للخدمة؛ لذلك نعته الله بسمة المفسدين. وبالتالي، أراد الله -عز وجل- أن يمن على المستضعفين في الأرض، وأن يجعلهم أئمة ووارثين في الأرض. فالقرآن يدعم دائماً المستضعفين ضد المستكبرين. في هذه الآية أيضاً تتعلق إرادة الله ومشيئته بالحاكمة العالمية للمستضعفين وبدعم مظلومي التاريخ ضد المستكبرين.

لقد قام (فرعون)، بناءً على هذه الآية، بعملين استبداديين ومستكبرين:

● اتبع سياسة فرق تسد، فقد شكّلت هذه السياسة على مر التاريخ الركن الرئيس لحكم المستكبرين؛ لأنّ حكم أقلية ضئيلة على غالبية كبيرة لا يمكن أن يتحقق إلا بهذه السياسة. ويخشى المستكبرون كثيراً من تماسك صفوف الناس. ولهذا

السبب، الحكم الطبقي هو السبيل الوحيد للحفاظ عليهم.^(١)

● الجريمة الثانية لـ (فرعون) كانت إضعاف مجموعة من سكان تلك الأرض. لقد خطّط الفراعنة لإضعاف بني إسرائيل من خلال القضاء على ذكورهم الذين كان بإمكانهم القيام ضدّهم والثورة عليهم ومحاربتهم، وترك الفتيات والنساء فقط اللاتي لم يكن لديهنّ القدرة على الثورة والمقاومة بمفردهن، للخدمة^(٢).

احتجّ النبيّ موسى (عليه السلام) على فرعون بسبب هذا الاستضعاف لبني إسرائيل واستعبادهم، لكنّ (فرعون) ردّ على كلامه قائلاً: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرَبِّكْ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨-١٩].

أجاب موسى (عليه السلام) قائلاً: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]؛ أهذه نعمة تمنّها عليّ أن استعبدت بني إسرائيل؟! في نظر فرعون ذلك اليوم والفراعنة اليوم، عباد الله والجماهير والشعوب الأخرى هم عبيدهم، ولهم الحقّ في قتل واستعباد من يشاؤون منهم.

تسمح هذه النظرة لدى التيار الاستكباري باتخاذ القرارات عن الشعوب الأخرى وفرض قراراتهم عليها. فأسلوب المستكبرين دائماً هو عدّ جميع الناس "عبيداً لهم". كما كان (فرعون) يرى أنّ بني إسرائيل عبيداً وخدمًا له: ﴿فَقَالُوا أَنْوْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

إحدى طرق السيطرة النفسيّة والروحيّة على الآخرين هي تحقير شخصيّتهم، وبثّ هذا الشعور لديهم بأنّهم أدنى من الآخرين. على مرّ التاريخ، عمل المستكبرون دائماً بهذه الطريقة وسيطروا على الناس من خلالها. كان فرعون من المستكبرين الذين استخدموا هذه الطريقة للسيطرة على الناس: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

١ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ١٦، ص ١١.

٢ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ١٦، ص ١٣.

يسعى المستكبرون الكفار إلى تحقيق أهدافهم من خلال السيطرة على أفكار الناس ومعتقداتهم وثقافتهم، وتهيئة الظروف لزيادة سيطرتهم. ولا بد من الإشارة إلى أنه فضلاً عن المستكبرين، فإنَّ المستضعفين أنفسهم يلعبون دوراً في ظهور الاستكبار والتأسيس له، وإنَّ اتباعهم للمستكبرين وخططهم ومخططاتهم هو أحد العوامل المهمّة في خلق الاستكبار وتقويته. تشير بعض الآيات إلى دسائس المستكبرين الليلية والنهارية لغرس أفكارهم في المستضعفين وتشجيعهم على اتباعهم، وكذلك تُبيِّن اتِّباع المستضعفين للمستكبرين بسبب الاستضعاف الثقافي الذي غالباً ما يكون مصحوباً بضعف اقتصاديٍّ وعسكريٍّ. هؤلاء المستضعفون الذين يتقاعسهم عن المستكبرين يتسبَّبون في تقوية الاستكبار وسيطرته، سيكونون في العذاب الأخرى مع قاداتهم المستكبرين [غافر: ٤٧]، [سبأ: ٣١-٣٤] و[إبراهيم: ٢١].

أساليب الاستكبار السياسي المختلفة

- يستخدم المستكبرون عامّة قوتهم وقدرتهم ضدَّ الجماهير المستضعفة بطريقتين:
- طريقة إيجابية: من خلال إضفاء الشرعية على حكمهم عبر إقناع الجماهير بأنَّ الحقَّ دائماً معهم، وينبغي دعم أصحاب السلطة وإطاعتهم الذين يمثلونها وإجبار الآخرين على طاعتهم.
 - طريقة سلبية: نزع الشرعية عن قوة الأعداء وإلقاء هذا الأمر على الآخرين بأنَّ معارضيتهم يستحقُّون الدمار والهلاك [إنهاء وجود المعارضين] في هذا الصدد، يتَّخذ المستكبرون إجراءات لتوسيع سلطتهم الاستكبارية، وهي:

* الأساليب الإيجابية

- الرغبة بتماهي الآخرين معهم
- يحبُّ الكفار المستكبرون الذين لم يؤمنوا بالله -تعالى- أن يكون الجميع مثلهم بلا إيمان.

في هذه الحالة، بجعل الآخرين مثلهم، لن يهددهم أي خطر عملياً: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [النساء: ٨٩]؛ فهم يتمنون لو تكفرون كما كفروا فتكونون مثلهم ومشابهين لهم.

■ الإغراء

كان الإغراء أحد الأدوات الفعّالة لجذب الأفراد والجماعات لتحقيق أهداف المستكبرين، بتقديم الوعود الدنيويّة أو للوصول إلى مكانة رفيعة، واكتساب القرب والمنزلة في الحكومات و... إلخ. ونموذج على ذلك حينما اتُّخذ القرار لاختبار موسى عليه السلام أمام السحرة وعد فرعون السحرة بأنهم لو غلبوا موسى عليه السلام سيكونون من زمرة المقرّبين منه، ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأَجْرَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢].

إنّ سؤال السحرة عمّا إذا كان لهم أجر؟ كان بمعنى طلب الأجر، وقد نجح بالفعل؛ لأنّ (فرعون) حدّد لهم أجراً ووعدهم بأن يجعلهم من المقرّبين لديه^(١). هذا التعبير يُظهر مدى أهميّة القرب من فرعون في تلك البيئّة والمجتمع؛ حيث يذكره باعتباره أجراً عظيماً، ويحدّد بأنّ ليس ثمة أجر أعلى من أن يتقرّب الإنسان من القوّة التي يرغب فيها^(٢).

■ تهيج المشاعر

يحاول المستكبرون أحياناً باللين والصدّاقة، وفي ثوب الخير والإصلاح، تبرير أعمالهم الاستبداديّة وجرائمهم، ويستغلّون العواطف والعصبيّات الوطنيّة والدينيّة للناس. كما فعل (فرعون): ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ٣٨٤.

٢ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٠، ص ٢٢٢.

يُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ* وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿غافر: ٢٦-٢٧﴾. يذكر (فرعون) سببين لتبرير قراره بقتل موسى (عليه السلام)، أحدهما له جانب ديني ومعنوي، وهو الخوف من تغيير الدين وزوال دين الأجداد، والآخر له جانب دنيوي ومادي، وهو الخوف من إحداث الفساد والفتنة. بالطبع، الدين من منظار (فرعون) لم يكن إلا عبادته أو عبادة آلهة أخرى، دين في سبيل تخدير الناس وتجهيلهم، ووسيلة لتقديس سلطته الجائرة. أما الفساد من وجهة نظره، فكان ظهور ثورة ضد الاستكبار لتحرير الجماهير المستعبدة والمقيّدة، ومحو آثار عبادة الأصنام وإحياء التوحيد^(١). وقد ردّ موسى (عليه السلام) على كلام فرعون قائلاً: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. من هذا القول لموسى (عليه السلام) نستنتج نقطتين:

■ الأفراد الذين يتّصفون بصفتي "التكبر" و"عدم الإيمان بيوم القيامة"، يعدّون أشخاصًا خطيرين، وينبغي اللجوء إلى الله منهم. التكبر يجعل الإنسان لا يرى إلا نفسه وأفكاره، ويصف آيات الله ومعجزاته بالسحر، والمصلحين بالمفسدين، ونصائح الأصدقاء والمقربين بالتحقّظ وضعف النفس. كما أنّ عدم الإيمان بيوم الحساب يجعل برنامج الإنسان وعمله بلا حساب بل ويواجه قوّة الله اللا محدودة بقوّة الضئيلة جدًّا، فيحارب أنبياءه لأنّه لا يوجد حساب^(٢). ربّما يمكن القول إنّ عدم الإيمان بالحساب يجعل الإنسان متكبرًا.

■ يشير موسى (عليه السلام) بقوله ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ ضمّنًا إلى الناس بأنّ (فرعون) ليس إلهكم، وأنّه ينبغي اللجوء إلى الله الواحد الأحد فقط. لا شكّ بأنّ أحد عوامل بسط السلطة الاستكباريّة على جماهير الناس هو جهل الناس وعدم وعيهم، ووجود عصبّيّات خاطئة وجمود فكريّ. لذلك، يعدّ الاعتماد على العادات

١ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٠، ص ٧٩-٨٠.

٢ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٠، ص ٨١.

والتقاليد الخاطئة الماضية واتباع عقائد الآباء والأجداد، عائقاً كبيراً أمام العقلانية وذريعة مناسبة للمستكبرين لتوسيع الفكر والروح الاستكبارية في المجتمع. من هذا المنطلق، ينتقد القرآن الكريم مراراً وتكراراً المعتقدات الناتجة عن الجمود الفكري والجهل. ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصَدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاءَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَىٰ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣].

* الأساليب السلبية

■ التحقير والتكذيب

قام المرفهون المستكبرون من قوم صالح عليه السلام بالنيل من النبي صالح عليه السلام والتشكيك في حقه: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَلَحًا مَرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٦-٧٥].

■ كيل التهم

كان المستكبرون، يتهمون الرسل الإلهيين ضمن مواجعتهم لهم بأمور لتبدو دعوتهم الإلهية كاذبة، ويحرصوا الناس ضدهم. كانت هذه الاتهامات تتناسب في كل زمان مع الجو السائد في المجتمع ومع ما يتحسس منه الناس، مثل اتهام الأنبياء بالسحر والجنون [الذاريات: ٥٢]. ووصف تعاليمهم بأنها أساطير الأولين [الأنفال: ٣١] وعدد دعوتهم وسيلة للسيطرة على الأراضي [الشعراء: ٣٤-٣٥]. ومن هذه النماذج الأخرى من الاتهامات. لقد كان ترسيخ مثل هذه الذهنية في أذهان الناس يجعلهم يشكون ويترددون في اتباع الأنبياء الإلهيين، ويهيئ للمستكبرين المناخ الموائم للسيطرة.

عدّ (فرعون) -أيضاً- دعوة موسى عليه السلام مؤامرة لإخراج الناس من أرضهم لكي يضعهم في مواجهة موسى عليه السلام، وقال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٥٧]. في الواقع، هذا الاتهام هو اتهام سياسي؛ لكي يحرض الرأي العام ضده ويقدمه باعتباره عدواً للأمم؛ حيث يريد بمخططاته أن يخرجهم من وطنهم وأرضهم^(١). كانت هذه مؤامرة مدروسة؛ لأنّ غالبية الناس يحبّون أرضهم ووطنهم بوصفها أرواحهم، ولذلك في بعض آيات القرآن، وُضع هذان الأمران جنباً إلى جنب [النساء: ٦٦].

■ إثارة الجدل والتشويش وتحريف الرأي العام

مع وجود بيئة اجتماعية صحيّة، فإنّ الضمائر النقيّة والفطر السليمة ستبج الحقّ. لذلك، يسعى المستكبرون إلى خلط الحقّ بالباطل، وفرض الباطل على الناس باعتباره حقاً. يقوم هؤلاء لتحريف الرأي العام بتمثيل مشاهد لجذب أفكار الجماهير وصرفهم عن الحادثة المقصودة، ومثال ذلك في القرآن، تمثيل (فرعون) أنّه قد بنى برجاً المعروف لإخراج موسى عليه السلام من الساحة. فكما هو مذكور بعد سماع (فرعون) بإيمان السحرة بموسى عليه السلام. وفي سبيل تحريف الأفكار العامّة، قال لقومه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. على أيّ حال، وفقاً لبعض التواريخ، أمر (هامان) بتخصيص مساحة واسعة للقصر والبرج العالي، وأرسل خمسين ألف بناة ومهندس لهذا العمل. ارتفع البناء لدرجة أنّه أشرف وأطلّ على جميع المناطق المحيطة. عندما اكتمل البناء، احتفل (فرعون) هناك وصعد البرج بنفسه. من المعروف أنّه وضع سهماً في القوس وأطلقه نحو السماء، وعاد السهم ملطخاً بالدم نتيجة اصطدامه بطائر أو وفقاً لمؤامرة سابقة، ثمّ نزل (فرعون) من هناك،

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٤، ص ٢٤٠.

وقال للنّاس: اذهبوا، وارتاحوا، لقد قتلت إله موسى^(١). كان (فرعون) يهدف من خلال هذه المسرحيّة توفير وسيلة لشغل فكر الناس وصرف انتباههم عن قضية نبوة موسى (عليه السلام) وقيام بني إسرائيل. فضلاً عن ذلك، كان يقول إنّه لا يعلم إلهاً غيره ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨]. وفي الحقيقة، ادّعى هذا الادعاء لتضليل الناس وإغوائهم^(٢)، ليطنى بناء هذا الصرح الشاهق على القضايا الأخرى، ويلفت انتباه الناس إليه أكثر. وينسى الناس انتصار موسى (عليه السلام) على السحرة.

كان المستكبرون أيضاً في زمن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) يثيرون الجدل، وينشرون جواً دعائياً مسموماً. هؤلاء الأفراد كانوا يلجؤون إلى هذه الحيلة لحرمان الخصم من فرصة الظهور وإخفاء صوت الحقّ بإثارة الجدل. يصف القرآن الكريم حال هؤلاء المستكبرين فيقول: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ وهنا عبارة "الغوا فيه" تعني بثّ الأصوات المزعجة والتشويش أثناء تلاوة القرآن لصرف الانتباه عن أفكاره الحقّة. لذلك، كان أحدهم أحياناً أثناء تلاوة القرآن من جانب النبي (صلى الله عليه وآله) يصفق ويصفّر في محاولة لجذب انتباه الناس حتى لا يدركوا حقائق الرسالة. هذا التشويش الجاهليّ هو نوع من السيطرة على الساحة والميدان من قبل استكبار ممتزج بالباطل في الأرض. فبناء الكفّار الثقافي قائم على التشويش وتشويه الرؤى الصادقة والحقّة^(٣).
من هذه الآية ندرك عدّة حقائق:

- لا شك بأنّ ما ينشره الطواغيت عبر أجهزتهم الدعائيّة هو ضلال وبطالان، والحقّ هو ما بيّنه الوحي الإلهي.
- البناء الثقافيّ للمتكبرين والمستكبرين قائم على مواجهة الحق وتشويهه.

١ - أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن، ج ٢٠، ص ٤٩.
٢ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٦، ص ٥٢.
٣ - محمّد تقي المدرسي: من هدى القرآن، ج ١٢، ص ٢١١.

■ هدف أجهزة الدعاية الكافرة هو العلو والتفوق في الأرض والسيطرة في المعركة ضدّ الحقّ. لا شكّ بأنّهم يُضلّون الناس عن الحقّ ويمنعونهم من الوصول إلى الحقائق ويحجبون عنهم النور الإلهي، وحجم العذاب الذي ينتظرهم هو بقدر ما يوصلونه للناس ويطرقون به أسماعهم^(١).

■ التهديد والترهيب

استخدم المستكبرون عبر التاريخ وفي مواجهة الثورات التوحيدية والمجاهدين المنبثقين من الأديان الحقّة هذه الطريقة لإخراج الخصم من الميدان. وكان المستكبرون من قوم شعيب عليه السلام وأشرفهم أيضاً يهدّدون الناس بأنّهم إذا اتبعوا شعيباً فسيخسرون: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠]. كما هدّدوا شعيباً عليه السلام بالنفي والإخراج من الوطن: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]. كان جميع المستكبرين الذين وقفوا في وجه الأنبياء الإلهيين، ولم يُسلموا لهم القيادة في سبيل الخير والصلاح، يخيّرون أنبياء قومهم بين أمرين: إمّا العدول عن الطريق الإلهي وقبول العادات والتقاليد والثقافة السائدة في المجتمع، وإمّا الخروج من ديارهم. وقد وردت هذه المسألة في آيات أخرى من القرآن أيضاً [إبراهيم: ١٣]، و[الأعراف: ٨٨]، و[الشعراء: ١٦٧] و[الإسراء: ٧٣-٧٤]. تولّى جماعة الأشراف والأثرياء من ذوي المظهر الجميل والباطن السيئ الذين يُعبر عنهم بـ "الملاء"^(٢) [الذين يملأون العين] زمام المعارضة لهذا النبيّ الإلهي العظيم^(٣)، وهم أشراف

١ - محمّد تقي المدرسي: من هدى القرآن، ج ١٢، ص ٢١٢.

٢ - "الملاء" هم جماعة من الناس تملأ هيئتهم العين والقلب.

٣ - ناصر مكارم الشيرازي وآخرون: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٦، ص ٢٣٨.

الناس ورؤساؤهم الذين يلتفت الناس إلى أقوالهم^(١). بناءً على تعاليم القرآن الكريم، كان معظم المستكبرين من طبقة الأشراف في المجتمع، وكان معظم الذين قبلوا دعوة الأنبياء الإلهيين واستسلموا لأوامر الله من المستضعفين والطبقات الدنيا في المجتمع. لذلك يمكن عدّ "الطبقة المرفّهة التي تدّعي الشرف" أحد العوامل التي تؤدي إلى نشأة الاستكبار في المجتمع.

■ التعذيب والقتل

آخر حيلة للمستكبرين للقضاء على المعارضين هي إزالتهم جسدياً من الساحة الاجتماعية. فعندما واجه (فرعون) إيمان السحرة على عكس توقعه هددهم: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبِنَاكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

ترتكز شخصية المستكبرين على نمط مجاف للآخرين وحالة عداوية تنهر غيرهم بسبب اعتقاداتهم القلبية ويطالبونهم بالتماهي وتحقيق الانسجام معهم ومع عقائدهم المنحرفة، بحيث لو قام أحدهم بأمر يخالف ما يروونه وما يريدونه، فإنهم سوف يصبّون جام غضبهم عليه ويزجرونه.

أساليب بسط السلطة السياسيّة							
الأساليب السلبيّة				الأساليب الإيجابيّة			
التحقير والإهانة	كيل التُّهم	بثّ الفوضى	التهديد والإرهاب	التعذيب والقتل	الإجبار على التماهي	الإغراء	إلهاب المشاعر

١ - فخر الدين الطريحي: مجمع البحرين، ج ١، ص ٣٩.

■ الاستكبار الاقتصادي

يُسَمَّى الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِجَمْعِ الثَّرَوَاتِ مِنَ السُّحْتِ وَكَنْزِهَا، وَيَتَسَمَّوْنَ قَمَمِ السِّيَادَةِ وَالْهَيْمَنَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَيُمَسُّوْنَ قَطْبَ رَحَى الْاِقْتِصَادِ فِي مَجْتَمَعَاتِهِمْ مَتَفَاخِرِينَ بِهَا عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ، وَيُقْبَلُونَ عَلَى الْبَغْيِ وَالْفَسَادِ بِالْمُسْتَكْبِرِينَ الْاِقْتِصَادِيِّينَ. وَقَدْ كَانَ (قَارُونَ) هُوَ الْاَنْمُوذَجِ الْاَعْلَى لِهَذِهِ الْفِتْنَةِ.

يَذَكَرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي عِدَّةِ آيَاتٍ غُرُورَ (قَارُونَ) وَازْدِرَاءَهُ لِعَامَّةِ النَّاسِ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٧]. وَقَدْ قُدِّمَتْ مَعَادِلَةٌ طَرَفَاهَا الْفِعْلُ "بَغَى" فِي الْآيَةِ وَالْفِعْلُ "فَرَحَ". فَكَلِمَةُ "فَرَحَ" هُنَا فِي الْأَصْلِ تَعْنِي الْفَرَحَ الشَّدِيدَ بِشَيْءٍ مَا. وَمِنْ هُنَا يَتَّضِحُ أَنَّ كَلِمَةَ "بَغَى" تُشِيرُ إِلَى حَقِيقَةِ أَنَّ (قَارُونَ) اغْتَرَّ بِثَرَوَتِهِ وَمَمْتَلَكَاتِهِ، وَاغْتَرَّ بِقُوَّتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَذَكَرَ "الفساد" بِاعْتِبَارِهِ تَجَلِيًّا مَلْمُوسًا لِتِلْكَ الْحَالَةِ الْبَاطِنِيَّةِ الَّتِي وَصَفَتْ بِـ "البغي"^(١).

كَانَ سَبَبُ بَغْيِ (قَارُونَ) وَظَلَمِهِ أَنَّهُ حَصَلَ عَلَى ثَرَوَةٍ طَائِلَةٍ، وَبِمَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ الْوَعْيُ الْكَافِي وَالْإِيمَانُ الْقَوِي، فَإِنَّ هَذِهِ الثَّرَوَةَ الْكَبِيرَةَ خَدَعَتْهُ وَقَادَتْهُ إِلَى الْاِنْحِرَافِ وَالْاِسْتِكْبَارِ.^(٢) وَبِسَبَبِ كَنْزِهِ وَثَرَوَاتِهِ الْكَثِيرَةِ، أَظْهَرَ قُوَّةَ وَتَفَاخُرَ أَمَامِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَعَدَّى عَلَيْهِمْ^(٣). وَقَدْ رَدَّ (قَارُونَ) بِغُرُورِهِ وَتَكَبُّرِهِ النَّاجِمَ عَنْ ثَرَوَتِهِ الْهَائِلَةِ عَلَى نُصْحِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ قَوْمِهِ قَائِلًا إِنَّهُ حَصَلَ عَلَى هَذِهِ الثَّرَوَةِ بِفَضْلِ عِلْمِهِ وَكِفَايَتِهِ. لِذَلِكَ، هُوَ حَرٌّ فِي إِفْقَاقِهَا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي يَرَاهَا

١ - توشيهيكو إيزوتسو: مفاهيم اخلاقي ديني در قرآن مجيد [المفاهيم الخُلُقِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ]، ص ٢٩٥.

٢ - مكارم الشيرازي وآخرون، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ١٦، ص ١٥٣.

٣ - الفضل بن حسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧، ص ٤١٦.

مناسبة: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]. عدّ المفسرون العلم الذي ادّعاه (قارون) لنفسه عدّة أشياء: علم التوراة، وأنواع التجارة والزراعة وسائر المكاسب، وعلم الكيمياء^(١).

مهما كان هذا العلم، فقد كانت نتيجته أنّه قاد (قارون) إلى الغرور، وفي النهاية إلى الاستكبار، لدرجة أنّه عدّ جميع نعمه وثرواته ليست من الله بل من نفسه وكفاءته، وتفاخر واستكبر بتلك الثروة على الآخرين. في رؤية المستكبرين، تُقاس جميع القيم بمقياس الماديات، والمعيار الوحيد للحكم هو الثروة التي يُعدّ وجودها دليلاً على الحقّ، وعدم وجودها لا يدلّ على أيّ قيمة. لهذا السبب، يتباهون بامتلاك مزيد من الأموال والأولاد، ويرون ذلك علامة على كرامتهم الذاتية، بل ويعتقدون أنّ الله قد أكرمهم في هذه الدنيا لذلك سيحظون بمكانة مرموقة في الآخرة أيضاً: ﴿وَلَيْنَ أَدْقِنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

الفخر والتباهي بالامتيازات المادية وتصوّر انعدام العذاب الأخرويّ، هي سمة المستكبرين والمفسدين الاقتصاديين. كما يقول القرآن على لسان هذه الشخصيات: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

يرى المستكبرون أنفسهم بهذه الرؤية والفكر المادي أفضل من الآخرين ويحتقرون الجماهير المستضعفة. كما أنّ رؤية المستكبرين وحكمهم على المؤمنين من الطبقات المستضعفة في المجتمع تعتمد على أنّهم أراذل ومن الطبقات الدنيا، ويزعمون أيضاً أنّ الله

١ - محمود الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل، ج ٣، ص ٤٣١؛ رشيد الدين أحمد بن أبي سعد الميبدي: كشف الأسرار وعدّة الأبرار، ج ٧، ص ٣٤٦؛ أبو الفتوح حسين بن عليّ الرازي: روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، ج ١٥، ص ١٦٩-١٧٠.

لم يمنح المحرومين والمستضعفين الخير والسعادة. لذلك ينبغي أن يُحتقروا، وهم يتوقَّعون مثل هذا التعامل من الأنبياء أيضًا. في الواقع، يُعدُّ الفقراء والمستضعفون في المجتمع، في الرؤية الظاهرية والسطحية لمن يعدُّ نفسه من الأشراف بشرًّا حقيرين ودينين ويستحقون الاحتقار والإهانة. يتحدث القرآن الكريم عن مستكبري عصر نوح عليه السلام: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧].

إحدى الطرق الشائعة والمتداولة لمواجهة المستكبرين لمعارضتهم هي الحصار الاقتصادي، ومثالها التاريخي حصار النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأصحابه في شعب أبي طالب عليه السلام. يصف القرآن الكريم كلام المنافقين أعداء رسول الله صلى الله عليه وآله كالآتي: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

ينبغي أن نعلم أنّ طريقة مواجهة الاستكبار الاقتصادي هي تقوية روح القناعة وعدم الاهتمام بالأثرياء: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

■ الاستكبار العلمي

بعض ممّن يصل إلى مراتب ودرجات علمية، وتتجدّد لديه حالة من الغرور جرّاء هذه المرتبة العلمية يندفع نحو هذا النوع من الاستكبار. (وبلعم بن باعوراء) هو الأنموذج البين لهذا النوع من الاستكبار. فقد كان عالماً في البداية ضمن صفوف المؤمنين، وحاملاً للآيات والعلوم الإلهية، لكنّه خرج عن هذا المسار، وانضمّ إلى الفراعنة والمستكبرين، وانتهى به الأمر إلى الضلال.

﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

تتحدث الآيات الأنفة الذكر عن عالم وباحث كان في البداية ماضيًا في طريق الحق، لدرجة أنه لم يتوقع أحد أن ينحرف يومًا ما، لكنّه في النهاية انحرف عن جادة الصواب بسبب حبّ الدنيا واتباع الهوى، وكذلك ميله إلى (فرعون) ووعوده، وفقد جميع مقاماته، وأصبح في صفّ الضالين واتباع الشيطان ومعارضى موسى عليه السلام. معنى "الانسلاخ" هو الخروج أو نزع أي شيء من جلده^(١). هذا التعبير هو كناية استعارية عن أنّ الآيات كانت متغلغلة في (بلعم بن باعوراء)، وكان ملازمًا للآيات كما يلزم الجلد الجسد، وبسبب خبثه الباطني خرج من جلده^(٢).

■ الاستكبار الإعلامي

قدّم السامريّ للبشرية، وهو شخصية تاريخية معروفة في قصة النبي موسى عليه السلام دينًا مصطنعًا مبتدعًا نتيجة لاستكباره العلميّ الدعائيّ، وكان قد تسبّب في تفرقة بني إسرائيل وضلالهم بعد الجهود المضيئة التي بذلها النبيّ موسى عليه السلام. وقد وردت قصّته في عدّة آيات من القرآن الكريم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي* قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْتَحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنْنَسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿[طه: ٩٥-٩٧].

ما هو مشهور ومعروف بين المفسرين، وبعض الروايات التي تتحدث عنه هو أنّ (السامريّ) أخذ من تراب ما تحت قدّم جبرائيل الذي ظهر على هيئة بشر لإغراق (فرعون)، ووضع ذلك

١ - حسين بن محمّد الراغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، ص ٤١٩.

٢ - السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٣٣٢.

التراب في بطن العجل، فأصدر العجل صوتاً. وهكذا، خدع (السامريّ) الناس بأنّ هذا هو إله موسى (عليه السلام)، فأخذ الناس العجل وسجدوا له. وجه آخر لتفسير الآية هو أن المقصود بالرسول هو موسى (عليه السلام)، وأثره هو سنّته وطريقته وأوامره^(١).

على أيّ حال، هذه الأقوال التفسيرية هي في حدود الاحتمالات ولا تعود إلى نصّ معتبر و يقينيّ. المهمّ هو أنّ عمل (السامريّ) كان من نوع الصناعة، وبذكائه وعلمه الذي كان يمتلكه، صنع العجل بطريقة خاصّة، ومن خلال وسائل إعلاميّة ودعائيّة، حرّف الرأي العام للناس. حتّى أنّه حقّق نجاحاً في هذا الأمر، وألقى ما أراده في أفكار الناس وقلوبهم. في مقابل فعل السامريّ من تضليل للناس، تعامل موسى (عليه السلام) مع انحراف السامريّ بطريقتين: عزل (السامريّ) عن المجتمع؛ لأنّه كان أصل الفساد والفتنة، وتحطيم وتدمير العجل. فقد أحرق موسى (عليه السلام) العجل ورمى رماده في البحر ليقطع جذور الفتنة. لم يكن يريد أن يبقى منه أو من رماده ذرّة واحدة خشية أن يُقدّس في المستقبل من قبل الطغاة. ندرك من هذه الآية أنّه لا يكفي إزالة الطاغوت بل ينبغي اقتلاع جذوره وتدمير جميع آثاره ورموزه.^(٢) وهكذا، فقد حارب موسى (عليه السلام) في حياته ثلاث قوى طاغوتيّة مستكبرة: فرعون الذي كان رمزاً للاستكبار السياسيّ والقوّة والحكم، و(قارون) الذي كان رمزاً للاستكبار الاقتصاديّ والثروة، و(السامريّ) الذي كان رمزاً للاستكبار الإعلامي والصناعة والخداع والتضليل.

خاتمة

١ . الاستكبار في القرآن الكريم يأتي مصحوباً بكلمات مثل العتوّ، والعلوّ، والاستنكاف، والكفر، والظلم. بناءً على ذلك، يعدّ العتوّ، والاستنكاف، والكفر، والظلم نتيجة

١ - السيدة نصرت أمين: مخزن العرفان در تفسير قرآن [مخزن العرفان في تفسير القرآن]، ج ٨، ص ٢٠٣-٢٠٤.

٢ - تقيّ المدرسيّ: من هدى القرآن، ج ٧، ص ٢١٩.

للاستكبار.

٢. من خلال دراسة الكلمات المرتبطة بالاستكبار ومع الأخذ بالحسبان الآيات ذات الصلة، يمكن عدّ العلوّ والتفوّق هما الجذر والسبب للاستكبار.
٣. الاستكبار من أخطر الأمراض الاجتماعية التي تسبّب تخلف المجتمعات واستضعاف الجماهير. إنّ كلمات الإيمان والتقوى والاستضعاف هي كلمات متضادّة لمفردة الكفر في القرآن الكريم، ويمكن القول إنّ عدم الإيمان بالله والأنبياء والمعاد وعدم التقوى يؤدي إلى الاستكبار، والاستكبار على المستوى الاجتماعي يؤدي إلى استضعاف الجماهير.
٤. الاستكبار الفردي يؤدي إلى الاستكبار الاجتماعي. وهذا يعني أنّ الاستكبار الذي هو في البداية حالة داخلية ناتجة عن الغرور، يؤدي إلى الاستكبار العبادي. الاستكبار العبادي بدوره يؤدي إلى ثلاثة أنواع أخرى من الاستكبار؛ وهي الاستكبار السياسي والاقتصادي والعلمي. وبالتالي، يمكن القول إنّ جذور جميع أنواع الاستكبار تكمن في استكبار العبد أمام الله والشعور بالاستغناء عن الذات الإلهية وتجاهل القدرة الإلهية.
٥. يرتبط كلّ من الاستكبار السياسي والاقتصادي والعلمي ببعضهم الآخر ويؤثر كلّ منهم في الآخر بتأثيرات متبادلة.
٦. تتداخل عوامل وأسباب مختلفة في نشأة الاستكبار. ومن هذه العوامل: المال والثروة الوفيرة، الأرستقراطية والرفاهية، القوّة العسكرية والمكانة السياسيّة-الاجتماعية، الفقر الثقافيّ وعدم الاستقلال الفكريّ للمستضعفين، والكفر، والتفوّق، وهوى النفس، والأنانية، والإثم، وكذلك الغفلة عن قدرة الله.
٧. لقد قدّم القرآن الكريم حلولاً لمواجهة أنواع الاستكبار المختلفة، ومن هذه الحلول: الثورة ضدّ المستكبرين السياسيين، وتعزيز روح الثقة بالنفس لدى أفراد

المجتمع، وتعزيز روح القناعة والاهتمام بالقيم السامية، وكذلك الخروج من إसार الأنانية وهوى النفس، وهي من طرق مواجهة الاستكبار السياسي والاقتصادي والثقافي.

٨. للاستكبار آثار ونتائج سلبية على الصعيد الفردي والاجتماعي والديني والأخروي. الحرمان من الرحمة والهداية الإلهية، وإضلال النفس والآخرين، وسوء العاقبة والوقوع في العذاب الديني والأخروي، جميعها من آثار الاستكبار وعواقبه.

لائحة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- محمّد بن مكرم بن منظور: لسان العرب بيروت، دار صادر، ط ٣، ١٤١٤هـ.ق.
- السيدة نصرت أمين: مخزن العرفان در تفسير قرآن [مخزن العرفان في تفسير القرآن]، طهران، نهضة النسوة المسلمات، ١٩٨٢.
- توشيهيكو إيزوتسو: مفاهيم اخلاقي ديني در قرآن مجيد [المفاهيم الخلقية الدينية في القرآن المجيد]، طهران، فروزان روز، ١٩٩٩م.
- عبد الله الجوادى الأملي: تسنيم، قم، دار إسرائ للنشر، ٢٠١٠.
- أبو الفتوح حسين بن عليّ الرازي: روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، مشهد، مؤسّسة البحوث الإسلامية التابعة للعتبة الرضوية المقدّسة، ١٤٠٨هـ.ق.
- فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي: مفاتيح الغيب، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، ط ٣، ١٤٢٠هـ.ق.
- حسين بن محمّد الراغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن، دمشق، الدار الشامية، ١٤١٢هـ.ق.
- محمود الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، بيروت، دار الكتاب العربيّ، ط ٣، ١٤١٧هـ.ق.
- محمّد بن حبيب الله السبزواري النجفي: الجديد في تفسير القرآن المجيد، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٤٠٦هـ.ق.
- سيّد مهدي شهيدي: دلالة مفردة الاستكبار في القرآن الكريم حسب نظرية إيزوتسو، فصلنامه معرفت [فصلية المعرفة]، العدد ١٤٣، ٢٠٠٩.
- السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ: الميزان في تفسير القرآن، قم: مكتب النشر الإسلاميّ

- العائد لجامعة المدرّسين في الحوزة العلميّة في قم، ط ٥، ١٤١٧هـ.ق.
- الفضل بن الحسن الطبرسيّ: مجمع البيان في تفسير القرآن، طهران: ناصر خسرو، ط ٣، ١٩٩٣ م.
- أبو جعفر محمّد بن جرير الطبريّ: جامع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار المعرفة، ط ١، ١٤١٢هـ.
- فخر الدين الطريحيّ: مجمع البحرين، طهران، مكتبة مرتضوي، ط ٣، ١٩٩٦ م.
- محمّد فؤاد عبد الباقيّ: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، قم، دار الحر للنشر، ط ١، ١٩٩٩ م.
- أبو هلال العسكريّ: معجم الفروق اللغوية، قم، مؤسسة النشر الإسلامي، ١٤١٢هـ.ق.
- الخليل بن أحمد الفراهيديّ: كتاب العين، قم، هجرت، ط ٢، ١٤١٠هـ.ق.
- محمّد باقر المجلسيّ: بحار الأنوار، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ.ق.
- سيّد محمّد تقيّ المدرسيّ: من هدى القرآن، طهران، دار الحسين، ط ١، ١٤١٩هـ.ق.
- حسن مصطفويّ: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، طهران، مركز الترجمة ونشر الكتب، ١٩٨١ م.
- محمّد جواد مغنيّه: التفسير الكاشف، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٤٢٤هـ.ق.
- ناصر مكارم شيرازي وآخرون: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، ١٩٩٥ م.
- رشيد الدين أحمد بن أبي سعد المبيديّ: كشف الأسرار وعدّة الأبرار، طهران، دار نشر الأمير الكبير، ط ٥، ١٩٩٢ م.

أساليب المستكبرين في السيطرة والتضليل واستضعاف الشعوب - نماذج قرآنية -

◆ الشيخ محمد أسعد ناصر^(١)

■ خلاصة

تتناول هذه المقالة ظاهرة الاستكبار بوصفها بنية اجتماعية متكررة في الرؤية القرآنية، لا مجرد أحداث تاريخية معزولة؛ حيث تكشف عن الأساليب المنهجية التي يعتمدها المستكبرون في السيطرة على الشعوب وتضليلها واستضعافها. ومن خلال استقراء نماذج قرآنية، يبيّن الكاتب أنّ أدوات الاستكبار تقوم على توظيف القوّة المادية والإعلامية، ضمن مسار تدريجي يبدأ بتفكيك المجتمع، ويمرّ باحتكار المرجعية، وتدمير الوعي، وقلب المفاهيم، وتوظيف النخب، وصولاً إلى صناعة تهديدات وهمية لضبط الجماهير. كما يؤكّد البحث على حيوية القرآن بوصفه مصدراً لتحليل الظواهر الاجتماعية والسياسية المعاصرة، وعلى أنّ مواجهة الاستكبار هي في جوهرها معركة وعي ومعنى قبل أن تكون مواجهة مادية.

الكلمات المفتاحية: الاستكبار، الاستضعاف، الهيمنة، التضليل الإعلامي، تفكيك المجتمع، الوعي، السنن الإلهية، الصراع الحضاري.

١ - طالب علوم دينية من لبنان ومدرّس في الحوزة العلميّة - قم المقدّسة.



Methods of Arrogant in Control, Misleading, Weakening Peoples Qur'anic Models

◆ Sheikh Mohammad Asaad Nasser

Lebanese student of religious sciences, teacher at the religious seminary [Hawza] in Qom, the Holy City.

■ Abstract

This research examines the phenomenon of arrogance as a recurring social structure in the Qur'anic perspective, not merely isolated historical events. It reveals the methodologies employed by the arrogant to control, mislead, and subjugate nations. Through an analysis of Qur'anic examples, the author demonstrates that the tools of arrogance utilize material and media power in a gradual process that begins with the dismantling of society, progresses through the monopolization of religious authority, the destruction of consciousness, the distortion of concepts, the exploitation of elites, and ultimately the fabrication of imaginary threats to control the masses. The research also affirms the vitality of the Qur'an as a source for analyzing contemporary social and political phenomena, emphasizing that confronting arrogance is fundamentally a battle of consciousness and meaning before it is a material confrontation.

Keywords:

Arrogance, Weakness, Hegemony, Media Manipulation, Dismantling of Society, Awareness, Divine Laws [Sunan], Civilizational Conflict.

مقدمة

تحدّث القرآن الكريم في مواضع عدّة ضمن سورة وآياته المباركة عن الاستكبار والمُستكبرين، وتعامل معه على أساس كونه بناءً اجتماعياً يجري التأسيس له في المستكبر نفسه وموارد سلطته ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤]؛ حيث يبيّن مجتمعاً قابلاً للاستضعاف، لا على أساس أنّ الاستكبار حالة مفاجئة تكون في التاريخ من دون أسباب أو سياقات اجتماعية. وقد ذمّ -تعالى- المُستكبرين وصرّح بـ ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وجعل الاستكبار مقروناً بالكفر؛ حيث قال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وعن الإمام الصادق (عليه السلام): «أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد»^(١)، وأخبر بأنّ عاقبته في الآخرة دخول النار، فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وقال: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢].

مضافاً إلى ذلك، فقد بلور لنا القرآن الكريم حقيقة هذا السياق وطريق المُستكبرين له، فتكلّم عن الأساليب والأدوات التي يتسعملها المستكبر في سبيل تحقيق أهدافه وغاياته من استضعاف الشعوب والسيطرة عليهم وتضليلهم بما يخدم مصالحه على المستوى المادي

١ - محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، ج ٢، ص ٢٨٩.

والمعنوي والاقتصادي والسياسي، ويكرسه مستكبراً مهيمناً على مَنْ يستضعفهم من خلق الله تعالى. فعرض لنا جملة من المواقف التي واجه فيها الأنبياء (عليهم السلام) والصالحون قوى الاستكبار في زمانهم من أفراد وأقوام، بدءاً من استكبار (إبليس) الذي عصى أمر الله بالسجود لآدم (عليه السلام) ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، ومروراً بـ ﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنُوا سَابِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩] وغيرهم، وانتهاءً باستكبار قريش على النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) ودينه ﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

هذا، والأرض - على مرّ الأزمنة والعصور - لا تخلو من المُستكبرين، فهم موجودون في كل زمان ويستخدمون الأساليب ذاتها للأغراض ذاتها، ويمتلكون الصفات نفسها؛ إذ الاستكبار في اللغة - وكما ورد في القرآن الكريم - اسم معنى ومصدر لـ «استكبر»، وهو بمعنى التعالي، والامتناع عن قبول الحق مُعاندةً و تكبراً^(١)، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٢٤٣]. والمستكبر من الكبر^(٢)، صفة فاعل بمعنى متعال ومتعجرف، والمستكبر هو الذي امتنع عن قبول الحق مُعاندةً و تكبراً^(٣)، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾.. وقد عرفه الإمام الشهيد (السيد علي الحسيني الخامني) قُدَسَتْ رُوحُهُ - قائد جبهة المستضعفين الذي قضى في مواجهة مستكبري العصر - قائلاً: الاستكبار تعبير قرآني، والشخص المستكبر والحكومة المستكبرة والجماعة المستكبرة هي الجماعة أو الحكومة التي تتفصّد التدخّل في شؤون وأمور البشر والشعوب الأخرى من أجل صيانة مصالحها. وترى نفسها حرةً ولها حق فرض ما تريد فرضه على الشعوب، وتقرّر لنفسها حق

١ - محمد بن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ١٢٦.

٢ - مجموعة من المؤلفين: لسان اللسان (تهذيب لسان العرب)، ج ٢، ص ٤٣٩.

٣ - مجموعة من المؤلفين: المعجم الوسيط، ج ٢، ص ٧٧٣.

التدخل في شؤون البلدان، ولا تتحمل مسؤولية ذلك أمام أي أحد^(١).

وعليه، فالقرآن كما تحدّث عن الماضين أشار في ضمن ذلك أيضاً لمن بعدهم فهو - من خلال نصوصه وقواعده؛ إذ إنّ القرآن، كما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام)، «حيّ لم يمّت وإنّه يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر ويجري على آخرا كما يجري على أولنا»^(٢)، وعنه أيضاً (عليه السلام): «القرآن حيّ لا يموت والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام وماتوا ماتت الآية لمات القرآن، ولكن هي جارية في الباقيين كما جرت في الماضين»^(٣).

فليس ما نراه اليوم وما نعيشه من أحداث في مواجهة الاستكبار الأمريكي والإسرائيلي الذي يستضعف شعوب المنطقة والعالم، وما عاشته شعوبنا في تاريخنا المعاصر في حقبة الاستعمار الغربي -مثلاً- إلا امتداداً لما سلف من استكبار (فرعون) و(قارون) و(نمرود) وغيرهم من المُستكبرين، واستكمالاً لصراع الحقّ مع الباطل الممتد عبر الزمن. والذي ستكون خاتمته - حسب منطق السنن الإلهية في القرآن الكريم - نصراً مؤزراً للمؤمنين المستضعفين: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] وهلاكاً للمُستكبرين الكافرين؛ حيث سيكون دأبهم ﴿كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١].

وتتلخّص استراتيجية المُستكبرين في السيطرة، والتضليل، واستضعاف الشعوب باتّباع مجموعة من الخطوات المترابطة التي تهدف إلى تفكيك المجتمع وتمكين الحكم، وذلك بالاستفادة من أداتين أساسيتين هما: القوّة الماديّة والقوّة الإعلامية، ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]. وهذا ما

١ - من كلام له (فده) بمناسبة اليوم الوطني لمقاومة الاستكبار العالمي، ٠٣-١١-٢٠١٣ م - بتصرّف.

٢ - محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٠٣.

٣ - محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٠٣.

سببته في هذه المقالة من خلال استعراض نماذج قرآنية نحاول من خلالها استخلاص أدوات المستكبرين وخطواتهم وتوضيحها، كما سنسعى لتطبيقها على نماذج الاستكبار المعاصر في محاولة للتنبه لها ومعرفة سبل مواجهتها، ومعرفة العدو وتشخيصه تشخيصاً دقيقاً.

أولاً: نماذج استخدام القوة المادية

استخدم المستكبرون عبر العصور القوة المادية والعسكرية والسياسية لترهيب المستضعفين وصدّهم عن سبيل الله: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: ٨٣]. وقد وثق القرآن الكريم هذه الأساليب في مواضع عدة، واصفاً عقلية المستكبرين بأنها لا تؤمن إلا بلغة القوة الغاشمة: ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]، و﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [النمل: ٣٣]. ومن هذه المواضع والنماذج:

١. التهديد بالسجن، وهو من مظاهر استخدام المستكبرين للسلطة السياسية لتقييد حرّية من يخالفهم الرأي؛ حيث قام (فرعون) بتهديد موسى (عليه السلام) قائلاً: ﴿قَالَ لَئِن أَخَذْتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].
٢. التهديد بالقتل والصلب؛ حيث قام (فرعون) أيضاً بالردّ على إيمان السحرة بالوعيد والتعذيب، ليكونوا عبرة لغيرهم: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].
٣. التهديد بالنفي والإخراج من الأرض، ونموذجه القرآني تهديد قوم شعيب وقوم لوط لهما (عليهما السلام) بالنفي والإخراج من الأرض بعد رفضهما الانصياع لباطلهم: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شَعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا﴾: [الأعراف: ٨٨]. ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

٤. التعذيب الجماعي، وهو نموذج للإبادة الجماعية الذي تجلّى في قصة أصحاب الأخدود: ﴿قَتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٤٦].

وشواهد استخدام القوّة الماديّة كثيرة في حاضرنا؛ حيث يعمد المُستكبرون إلى تكريس قوتهم ومكتسباتهم المادية التي جَنُوهَا من استكبارهم في سبيل الوصول إلى أهدافهم. وذلك عبر الترويج الصهيوني لمقولات وأفكار، مثل «قوّة الإرغام»، و«فرض السلام بالقوّة»، و«ما لا يأتي بالقوّة يأتي بمزيد من القوّة»، والتطبيق الخارجي لها ما يفعله الأمريكي اليوم -مثلاً- من تهديد ومهاجمة كلّ من يخالفه حتى يخضع لإرادته. وما يقوم به «الإسرائيلي» من مجازر الإبادة والتهجير الجماعي لأهل الأرض في غزّة ولبنان بهدف التوسّع وبسط النفوذ. وما تقوم به بعض الأنظمة المحليّة المستبدّة الحليفة لهما من تعقّبٍ وسجّنٍ بل وقتلٍ أحياناً للمعارضين وأصحاب الرأي المخالف.

ثانياً: نماذج استخدام القوّة الإعلاميّة

استخدم المُستكبرون «التضليل الإعلامي» باعتباره أداة أساس لتشويه الحقائق، وصرف الناس عن اتباع الأنبياء عليهم السلام، وقد فصل القرآن هذه الأساليب وفق الآتي:

١. قلب الحقائق وممارسة الحرب النفسية؛ حيث اتّهم المُستكبرون الأنبياء عليهم السلام بالجنون والسحر؛ لزعزعة ثقة الناس بالأنبياء عليهم السلام وبتصلّاهم الوحياني مع الله عزّ وجلّ. وقد أخبرنا -تعالى- عن ذلك في قوله: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وفي قوله: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

٢. التشويش الإعلامي ومنع سماع الرأي الآخر، وهذا ما لجأ إليه كفّار قريش، لمنع وصول رسالة القرآن للناس بعد أن اعترفوا بروعة بيانه وعدوبة ألفاظه. قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾
[فصلت: ٢٦].

٣. استخدام "لهو الحديث" لصرف الانتباه من خلال اعتمادهم بثّ الأساطير لتشيتت الجماهير عن القضايا المهمّة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٦].

٤. صناعة دعاية أحادية المنظار "البروباغندا" والزخرف القولي من خلال الاستثمار في الفصاحة والخطابة، لتمرير الباطل في ثوب الحقّ ودسّ السمّ في العسل. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

٥. استخدام المنابر العامة والحشد الجماهيري، لترهيب المستضعفين وتثبيت السلطة. كما فعل (فرعون) عندما جمع الناس ونادى فيهم ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣-٢٤] ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١].

وموارد استخدام هذه القوّة في واقعنا المعاصر أكثر من أن تُحصى. وتتجلّى بوضوح في السياسات الإعلامية للمحطّات والمنصّات الإعلامية المدعومة ماليّاً، والمنتشرة بكثرة لمخاطبة فئة صغيرة أحياناً، والتي تعمل على بناء السردية، وتكثير الباطل، وإيهام المشاهد والقارئ. وتتجلّى هذه القوّة -أيضاً- في المنابر العلميّة ومراكز الدراسات الموجهة التي تقوم بإدارة الحرب الناعمة، وتمارس ما يُعرف بعمليات المعلومات التي تعمل على كيّ الوعي وتحويل الإدراك والتحكّم بالمعنويّات. وسيأتيك تفصيل هذا في الخطوات الآتية.

ثالثاً: خطوات التفكيك المنهجي وبسط الهيمنة

يتدرج المُستكبر في سبيل إحكام سيطرته على المجتمعات والشعوب، باستخدام خطوات

منهجية مترابطة تعتمد على القوة والخداع كما بينا؛ حيث يعتمد أولاً إلى تفكيك الجماعة والمجتمع، لينتقل ثانياً إلى تنصيب نفسه مرجعاً رمزياً للشعوب رغم اختلافاتهم. ويعتمد ثالثاً إلى تدمير وعي الناس وسلب قدرتهم على قياس الحقائق، ثم يقوم رابعاً بقلب المفاهيم وتحريفها، والتشويش على الحق، بحيث يصير الحق باطلاً والباطل حقاً. وبعد ذلك، ينتقل في خطواته الخامسة إلى صناعة النخب والاستفادة منهم لترويج مفاهيمه المغلوطة وتثبيتها، وإعطاء شرعية لسرديته، واعتبارها حقاً، ثم يقوم أخيراً بالترويج لكون الفكر الآخر يشكّل تهديداً لوجود جماعته وللحق المزعوم.

وقد يختلف ترتيب هذه الخطوات بحسب طبيعة التركيب الاجتماعي للجماعة، وظروف عيشها وغيرها من المؤثرات. لكننا عرضنا هنا ما استفدناه من القرآن الكريم ما يمكن أن نعتبره الأكثر انسجاماً في بناء كل خطوة على سابقتها.

١ - تفكيك البنية الاجتماعية

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُمْ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]

يُعدّ تفكيك المجتمع المفتاح الأساس الذي يعتمد عليه المُستكبرون لإحكام السيطرة؛ إذ إنّ قوّة أي مجتمع تنبع من تماسكه الداخلي ووحدة كلمته. لذلك، يسعى الطغاة منذ البداية إلى ضرب هذه الوحدة وتحويل المجتمع إلى كيانات متفرقة يسهل التحكم بها. وفي الآية المذكورة أعلاه قدّم القرآن الكريم نموذجاً واضحاً لهذا الأسلوب في قصة (فرعون). ونستكشف من هذه الآية أنّ العلوّ في الأرض وامتلاك أدوات السلطة واستمرارها مرتبط بتفريق المجتمع، وجعله شيعاً وجماعات مفكّكة؛ وذلك أنّ الاستضعاف ليس نتيجة عرضية لعمل المُستكبرين بل هو نتاج هذا التفكيك والتفريق باستخدام السلطة وأدوات القوّة. ويحصل هذا التفكيك والتفريق بأشكال عدّة، منها إثارة ما يعزّز الانقسامات من نعرات مذهبية، وعرقية،

وسياسية، وغيرها. فتعيش الأفراد في صراع بين الهوية الفرعية والهوية الجامعة، وبهذا تنقلب الصراعات من صراع مع الطاغية إلى صراع بين الشعب ونفسه.

ومن جهة ثانية يؤكد القرآن الكريم على أثر هذا التفكك وخطورته الذي به يتحوّل المجتمع بعد تمزيقه إلى كيان فاقد للقدرة على المواجهة، ما يزيد في استضعاف الأمم والجماعات ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]. وهذا واضح الخطورة؛ حيث إنّه يُذهب بقوة الجماعة ويعدمها القدرة على المواجهة، ويجعل الروابط منعدمة أو قليلة جداً، الأمر الذي يمنع من تشكّل وعي جماعي موحد. والوعي الجامع هو أكثر ما يهدّد المُستكبر، وبذهابه تنتفي إمكانية بناء روابط رمزية أو حياتية جامعة تكون محرّكاً للقيام في وجه المُستكبر. وهو ما التفت إليه المصلحون، ففي هذا السياق نفهم قول هارون لموسى (عليهما السلام) ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [طه: ٩٤]. ولأجل ذلك، دعا القرآن الكريم في المقابل إلى التوحّد والالتفاف: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]. ويتجلّى هذا الأسلوب بوضوح في الواقع المعاصر؛ حيث تبرز مظاهره في سياسات "فرّق تسد" الشهيرة؛ حيث يعمل المُستكبرون على تأجيج النزاعات الطائفية والعرقية داخل الدول من أجل تفرقة الجماعة، ويكتفي بإدارة الصراعات عن بُعد. مضافاً إلى إبراز هذه الخلافات وإشعالها من خلال وسائل إعلامهم التي تعمل على التركيز على هذه الخلافات بشكل يومي. فبريطانيا -مثلاً- تحتضن المؤسسات الإعلامية للمذاهب الإسلامية التي تقوم ببث خطاب الكراهية، والعنف، وتكفير الآخر.

٢- احتكار القوّة الرمزية

يعرض القرآن الكريم هذا النموذج بوضوح في خطاب (فرعون)؛ حيث يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ويقول أيضاً ﴿...فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي...﴾ [القصص: ٣٨].

هاتان الآيتان لا تعبران فقط عن ادعاء عقدي بل تكشفان عن مشروع هيمنة رمزية شامل، يقوم على نفي أي مرجعية عليا خارج سيطرة الطاغوت والمُستكبر الحاكم. ف (فرعون) لم يكتفِ بإدارة حكمه بل سعى إلى احتكار تعريف الحقيقة وتحديد مصدر الشرعية، وذلك عندما اعتبر أنّ كلّ ذلك يرجع إليه من خلال إلغاء أي مرجعية بديلة خصوصاً مرجعية الوحي بين الناس.

وإذا أردنا تفصيل هذا النمط من الهيمنة إلى آليات عملية وأساليب تطبيقية، يمكننا إرجاعها إلى:
 أ. إلغاء المرجعيات العليا؛ سواء الدينية أم الخلقية أم الفكرية، فلا يبقى معيار للحقيقة إلا ما تقرّره السلطة والحكم الطاغوتي: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ب. تقديس السلطة أو شخص الزعيم المُستكبر، سواء بشكل مباشر (كما في فرعون) أم غير مباشر عبر صناعة هالة رمزية حوله تجعل الجماعة تحتاج حتى أن تتنقي العبارات التي تستخدمها ذكراً لهذا الحاكم: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

ج. محاربة البدائل الفكرية والقيمية، خصوصاً الدعوات الإصلاحية التي تعيد ربط الناس بمرجعية مستقلة حقيقية، كدعوات الأنبياء (عليهم السلام) والمصلحين: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

إنّ خطورة هذا الأمر تكمن في تحويل السلطة إلى ما هو أبعد من السلطة السياسية، فسلطة بهذا النحو هي سلطة شاملة تتحكّم بوعي الإنسان والجماعة واعتقاداتهم أيضاً. فقوى الاستكبار لا تكتفي بالسيطرة المادية على المجتمعات بل تسعى إلى السيطرة على البعد الرمزي الذي يشكّل وعي الناس ويحدّد اتجاهاتهم. فالإنسان لا يتحرّك فقط بدافع القوّة بل بدافع المعنى والاعتقاد. ومن هنا تصبح السيطرة على "المرجعية الرمزية" أحد أخطر أدوات الهيمنة؛ حيث إنّ المجتمعات تحتاج إلى هذا البعد لتستند عليه في مواجهة المخاطر

والأزمات والتحديات، مضافاً إلى كونه مصدرًا أساسًا في تحريك إرادة الشعوب نحو الانقياد خلف القيادات، خصوصًا ما يتعلق بالربوبية؛ حيث إنَّ أعظم وأرفع ما ادَّعى في قيادة الشعوب على المستوى الرمزي هو الربوبية، فعندما تُدعى من قبل طاغوت لا يملك زمام أمور نفسه في الحقيقة والواقع، تكون استكبارًا حقيقيًا بكل المعايير.

ويتجلَّى هذا الأسلوب في الواقع المعاصر بصيغ متعددة، منها:

- احتكار الغرب للمرجعية الفكرية للحق والحقيقة، وامتلاك الحصرية في تعريف المصطلحات والمفاهيم الأساسية في الحياة، كـ "الحرية، والعدالة، والإرهاب، والحياة، والسعادة، والحق، والنجاح، و..." . ومن ثمَّ جعل الحياة مبنية عليها لصناعة النموذج الأوحده المتناسب مع قيام هذه الدول المستكبرة وبقاء نموذجهم في الحكم والحياة. وهذا ما يجعل كثيرًا من شعوب العالم مأسورين لنمط التفكير المغلوط الذي فرضه المُستكبرون بما يتناسب مع مصالحهم.
- إقصاء الدين وتحجيمه في المجال العام وبين الناس، وإفراغه من محتواه بجعله مجموعة من الطقوس والعبادات الفرديَّة، بحيث يُفصل عن توجيه الحياة كأنَّه فكرة مجردة لا علاقة لها بالحياة وتوجُّهات الشعوب، وإحلال الفكر القومي مكانه. ما يُحدث فهمًا مغلوطًا للدين، ويُفقد الناس القدرة على جعل الدين معيارًا للحقائق ومرشدًا في الحياة وتحديد نمط العيش، ما يصيرُه بعيدًا عن معظم هذه الحاجات الفطرية، ويجعل البحث عنه ترفًا فكريًا بالنسبة إلى الغارقين في مستنقع اللهو.
- التحكُّم في الخطاب الإعلامي والثقافي بحيث يعيد تشكيل القيم والمعايير، وهذا من أبرز ما تعمل عليه قوى الاستكبار في عالمنا المعاصر بشكل دائم ولحظي. فإنَّ منصَّات الإعلام التي تعمل لأجل حرف المفاهيم وتشويهها، مضافًا إلى تشكيل المعايير والقيم المزيَّفة تكاد تصل إلى كل عائلة وكل بيت وكل فرد من أفراد المجتمعات البشرية في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي سياق المواجهة لهذا الأسلوب، ذكر القرآن الكريم طرق الأنبياء عليهم السلام في صدّ عمل المُستكبرين، ومنها قصة نبي الله موسى عليه السلام؛ حيث أعاد بناء المرجعية الرمزية الحقيقية وإحيائها في نفوس الناس من خلال ربط الناس بالله -تعالى- بما هو الأصل الذي ينبغي الرجوع إليه وحده: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا﴾ [الأعراف: ١٢٨]. فَإِنَّ لِلَّهِ الْقِيُومِيَّةَ الْوَاقِعِيَّةَ عَلَى الْكُونِ وَالنَّاسِ وَالْجَمَاعَاتِ وَالْحُكَّامِ: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. ومن جهة ثانية، قدّم النبي عليه السلام معجزات تكسر احتكار المعنى الذي فرضه فرعون المُستكبر، ففجّر لهم الماء في الصحراء: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، وظلّهم بالغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى: ﴿وَوَهَبْنَا لَكُمْ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: ٥٧]، وأحيا لهم الموتى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]. وهذا ما كان مواجهة بكل ما للكلمة من معنى، يفوق المواجهات العسكرية في أثرها؛ حيث إنَّها صراع على تعريف الحقيقة وإيصاله إلى الناس.

٣- تدمير الوعي عبر التضليل والاستخفاف بالعقول:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

تُبرز الآية علاقةً عليّةً واضحةً بين استخفاف القوم -أي إضعاف عقولهم ووعيهم- وبين طاعتهم للمُستكبر بما هي نتيجة للاستخفاف. والاستخفاف يجري عبر الإضلال بمعنى تفرغ الإنسان من قدرته على التفكير المستقلّ والصحيح. فالطاعة هنا - لا أقل في بداية الأمر - لم تكن نتيجة قناعة حقيقية بل نتيجة تشوّه في الوعي وتعطيل في الفكر. وإذا كان تفكيك المجتمع يُضعف قوّته الخارجية، واحتكار المرجعية الرمزية يسيطر على مصدر التوجيه ويُبعد الناس عن الحقيقة، فإنَّ تدمير الوعي يُعدّ أخطر مرحلة في مشروع

الاستكبار؛ لأنه يستهدف قدرة الإنسان على التفكير والفهم والتمييز. فالمجتمع الذي يفقد وعيه لا يحتاج إلى قمع دائم، بل يتحوّل إلى أداة طيعة بيد المستكبر ﴿فَأطاعوه﴾. فهو مجتمع فاقد لأدواته التي بها يقيس الحق، وهذا أخطر من البُعد عن الحق نفسه؛ حيث إنّه لا يمكن للإنسان الذي يكون كذلك أن يميّز بين الحق وغيره، فهو خال من كل معيار ومقياس.

وقد اعتمد المُستكبرون عبر العصور آليات وطرق لتثبيت هذا النوع من أساليب الاستكبار. أبرزها:

أ. تبسيط القضايا المعقّدة بشكل مُضلل؛ أي جعل الواقع مختزلاً في شعارات سطحية تمنع من الفهم العميق. فنجد أنّ تمام هموم بعض الأقسام التابعة للطاغوت والمطيعه له هي تلبية نداءات أعدّها المُستكبر مُسبقاً بغض النظر عن الالتفات إلى سياقات هذه الشعارات ونسبتها إلى الحقيقة. ف (فرعون) -مثلاً- اختصر دعوة موسى الإصلاحية في أنّها مجرد "مؤامرة سياسية" للاستيلاء على السلطة ﴿قَالَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤-٣٥].

ب. إغراق الناس بالهموم التفصيلية اليومية والسطحية؛ سواء ما له علاقة بهموم الحياة أم حياة المستكبر أم طرق الترفيه وغيرها، ما يجعل الجماعة منشغلة عن التفكير والتأمل بما يوصل إلى حقائق الأمور وواقع التفسير: ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

ج. إضعاف القدرة النقدية من خلال تخويف الناس من التشكيك أو طرح الأسئلة، وذلك من خلال وسائل متعدّدة، منها ما هو قمعي وترهيبى: ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ومنها يكون عبر حرف السياق في الأسئلة الشائعة نحو مواضيع لا دخالة لها بموضوع الحكم والاستكبار. د. إعادة توجيه الإدراك الجمعي، بحيث يكون التفسير للواقع منحصرًا بزواياة نظر

واحدة لا ثانية لها، كأنَّ الذي يفكّر من غير الزاوية التي يريدّها المُستكبر يكون خارجاً عن طبيعة الناس وتفكيرهم العرفي. ومن ذلك وصف (فرعون) لموسى عليه السلام بأنّه خارج عن المنطق العرفي للناس: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

٥. ربط الطاعة بالمصلحة والاستقلال بالخوف، وهذا ما يجعل التفكير المستقلّ البعيد عن التفكير الطاغي بين الجماعة يحتاج إلى تضحية وتكلفة نفسية واجتماعية قد تصل إلى التضحية بالمفكر نفسه وروحه. فعندما بدأ السحرة يطرحون رؤية نقدية لواقع (فرعون)، كان الردُّ فورياً بالترهيب: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٤].

هذا، ويمكن ملاحظة تطبيقات هذه الخطوة في عصرنا من قبل مستكبريه؛ حيث إنهم يعمدون مثلاً إلى:

- زيادة الأعباء والهموم الحياتية اليومية من خلال نشر ثقافة الاستهلاك والإنتاج الدوري للعلائم التجارية للهواتف والسيارات وغيرها.
- زيادة كلفة نصره الحقّ من خلال القمع والقتل والحروب من جهة، والترغيب بالانصياع للاستكبار الذي يؤمّن نموذج حياة أفضل، كما حصل في الترويج لفكرة "الحلم الأمريكي".

- تضخيم قضايا ثانوية لصرف النظر عن قضايا مصيرية ومحورية لتتبع دون تمحيص أو تدقيق أو غوص في معانيها الحقيقية، وذلك عبر خلق دوارج "Trends" وسائل التواصل، وصيحات الموضة، ومشاركة حياة المشاهير. فنجد أنّ حركة مشهور ما قد تأخذ ضجّة تفوق ضجّة مجازر بحق ما يقارب ٨٠ ألف إنسان في بقعة جغرافية صغيرة كـ "غزة".

وقد تبين في هذه النقطة أنّ الاستخفاف بالعقول ليس مجرد وسيلة من وسائل الاستكبار

بل هو أداة مركزية لتحويل الشعوب إلى كيانات مُتقادة، فحين يُدمر الوعي، تصبح الطاعة تلقائية، ويغيب الإدراك بحقيقة الصراع، ما يضمن للمستكبر استمرار هيمنته بأقل تكلفة ممكنة. وهذا ما ينتج أبعد من مجرد فهم خاطئ للحقائق؛ حيث إنّه يجعل الجماعة والأفراد في وضع نفسي بعيد عن قابليتهم للتفكير الصحيح، كأنّهم منصرفون ومنشغلون عنه بل غير قادرين عليه.

٤- إعادة تشكيل الحقيقة عبر قلب المفاهيم والمعايير

يُجسّد القرآن الكريم هذا الأسلوب في مواقف متعدّدة للمستكبرين وما أنتجوه من قلب للمفاهيم لدى أتباعهم في مواجهة الأنبياء، ومنها قول قوم نوح له (عليه السلام): ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]. فهنا لا يقتصر الأمر على رفض دعوة النبي (عليه السلام) بل يصل إلى حدّ اتهامه بالضلال. وهذا قلب كامل للحقيقة؛ إذ يوصّف المصلح بالضال، ويُقدّم الانحراف الذي هم فيه على أنّه هو الصواب ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

فإذا نجح المستكبر في إضعاف وعي الناس، ينتقل بعد ذلك إلى مرحلة خطيرة أيضاً يبني فيها على هذا الإضعاف. وهي إعادة تشكيل إدراكهم للحقيقة نفسها، فلا يكتفي بتضليلهم عبر سلب قدرتهم على القياس الصحيح بل يعمل على قلب المعايير والمقاييس عندهم بحيث يصبح الباطل حقاً، والحقّ باطلاً كما أسلفنا. وهنا مكمّن الخطورة في هذا الأسلوب، فهو يمنع الناس عن رؤية الحقيقة؛ حيث يقفون في مقابلها ويرفضونها كلّما ظهرت بفكرهم وشعورهم المولدين للإرادة. وهذا ما فعلته قريش ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِحَقِّ كَارِهِونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]. مضافاً إلى اعتبارهم دعوة الأنبياء خطراً على المجتمع؛ حيث طالبت قريشاً النبيّ محمّداً (صلى الله عليه وآله) بتبديل القرآن بما يتماشى مع أفكارهم: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنِّي وَكَأَنِّي أَبْتَلِيهِمْ﴾ [يونس: ١٥]،

ما يدلّ على أنّ موقع الحقّ مزيف في وعي الناس، وأنّ الصراع لم يكن على السلطة فقط بل على تعريف الحقيقة ذاتها. وإذا أردنا التفصيل في آليات عمل المُستكبرين في هذه الخطوة، تبرز عندنا المواقف المترابطة الآتية:

أ. تشويه صورة المصلحين عبر اتهامهم بالضلال، والفساد، والعمالة، وغيرها من أوصاف تكشف عن أنّ المفاهيم في أذهان المجتمع زرعت بشكل مغلوط ومخالف للحقيقة: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

ب. إعادة تعريف القيم: حيث يُقدّم الظلم على أنّه ضرورة مثلاً، والفساد على أنّه مصلحة لا بدّ منها. وهذا ما يخلط المفاهيم؛ لأنّه يزيل الحدود الواضحة بين الحقّ والباطل، والخير والشرّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

ج. صناعة خطاب مضادّ للحقيقة، يجري تكراره وتكريسه حتى يتحوّل إلى وعي عام جديد تُنبذ معه الحقائق: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. هذا، وإنّ الاستكبار المعاصر امتداد للاستكبار على مرّ العصور، لذا فهو يستعمل هذه الأساليب الخبيثة والمضلّلة نفسها، ففي زماننا يبرز هذا الأسلوب بأشكال متعدّدة، أبرزها:

- د. وصم حركات المقاومة، وحركات التحرّر، والاستقلال، والإصلاح، بأوصاف سلبية لا يصحّ أن يتّصف بها إلا الضالّ أو الشرير لتشويه صورتها.
- هـ. تقديم حركات الهيمنة أو التدخّل الخارجي غير المحقّ من قبل المُستكبر والطاغوت في بعض المجتمعات على أنّها حركات حماية وإصلاح.
- و. استخدام وسائل الإعلام لإعادة صياغة الأحداث، بحيث تُظهر المُستكبر على أنّه

الضحية والمظلوم الذي يسعى إلى استنقاذ حقه، كما يحصل الآن في ادعاءات العدو الصهيوي-أمريكي تجاه إيران ومحور المقاومة. وهكذا، يجري تسويق الباطل باعتباره حقيقة مطلقة مفروضة على الشعوب. وهي مرحلة متقدّمة من مشروع الاستكبار؛ حيث لا يعود الصراع ظاهراً بين الحق والباطل لدى أتباع المستكبر بل يتحول إلى صراع داخل وعي الإنسان نفسه.

٥- تثبيت الهيمنة عبر توظيف النخب وصناعة الشرعية

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٩-١١٠]

تشير هذه الآية إلى محوريّة دور الملاء وأهميته إلى جانب المستكبر. فهم من بادروا إلى التحريض وصياغة الخطاب الذي يصور نبي الله موسى (عليه السلام) مفسداً في الأرض وصاحب مشروع وأغراض شخصية؛ إذ لا يمكن لقوى الاستكبار أن تحكّم المجتمعات بالقوة المجردة وحدها؛ لأنّ القمع المباشر مكلف وغير مستدام. لذلك تعود إلى ممارسة السطوة الفكرية عبر الإعلام، وتجري هذه المرّة عبر طبقة وسطية من «النخب» تكون الأبرز والأعلم بين الناس، وتقوم ببنائها بنفسها. وقد عبّر القرآن عنها باسم «الملاء»، وهم أصحاب النفوذ والقادة في المجتمع أو الوجوه المؤثرة فيه، فقليل إنهم سمّوا ملاء لأنّهم يملؤون العيون هيبة، أو لأنّهم يملؤون المجال العام حضوراً وتأثيراً. وهذا ما يوضّح محوريّة هذه النخب المعينة للمستكبر؛ حيث تقوم بالدفاع عن سلطة المستكبر وتبريرها، ومهاجمة خصومها من جهة: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِي الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]، والترويج لكونها الحق من جهة أخرى: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، فتتحوّل الهيمنة من حالة مفروضة إلى حالة تبدو كأنّها مقبولة اجتماعياً بل قانونياً وفكرياً.

وقد اعتمد الاستكبار على عدة وسائل لضمان ولاء هذه الطبقة وتوظيفها. ومن أبرزها شراء الولاءات عبر المال والمناصب والامتيازات، ودمج مصالح النخبة بمصالح النظام فلا يعود بإمكانها الانفصال عنه: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤]. واللجوء لتخويفهم حيث يلزم: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ... فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَأَلْصِقَ بَنَاتِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

ويتجلى هذا الأسلوب في الاستكبار المعاصر بوضوح من خلال:

- أ. صناعة النخب السياسية والإعلامية واستخدامها لتبرير السياسات الاستكبارية، خصوصاً شرعنة أفعال المستكبرين قانونياً ودولياً.
- ب. توظيف بعض المثقفين أو المؤثرين في صناعة خطاب يخدم السلطة.
- ج. خلق موجة رأي عام عبر شخصيات تبدو مستقلة، لكنها مرتبطة بالنظام الاستكباري.
- د. تقديم قرارات هيمنة كبرى على أنها إجماع نخبوي، مع أن النخب المجمعمة هي التي تدعم المستكبر دون غيره.
- هـ. تشويه صورة أي نخبة معارضة عبر الحرب الإعلامية والثقافية، وذلك من خلال تكثيف الضغط الإعلامي وضخ الأكاذيب بين الناس.

وهذا الدور للنخب يعدّ في غاية الخطورة؛ حيث إنه يثبّت السلطة الأعلى للمستكبر عبر دعمهم للحاكم وتقديم المشورة له من جهة، وضبط المجتمع من الأسفل عبر تأثيرهم على الجماهير وتوجيه مواقفهم من جهة ثانية. وهذا ما يجعلهم حلقة وصل تجعل الاستكبار ظاهراً بشاكلة أنيقة متناسقة غير فجّة بالنسبة إلى كثير من الجماعات. ففي كثير من الأحيان يثق الناس بالنخب أكثر من السلطة نفسها، ما يجعل تأثيرها أشدّ خطورة: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. ولذا، فإنّ توظيف النخب ليس مجرد أداة مساندة للاستكبار بل هو ركيزة أساس في استمراره. فبواسطتهم تتحوّل الهيمنة من

قسر ظاهر إلى قبول في نفوس الجماعات، وتُصاغ الشرعية التي تضمن بقاء النظام الطاغوتي، حتى في ظل وجود الرفض الشعبي الكامن في بعض الأحيان.

٦- تعبئة الجماهير عبر صناعة التهديدات الوهمية

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

يُصَوِّرُ لَنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هَذَا الْأَسْلُوبَ فِي قَوْلِ (فِرْعَوْنَ) الْمَتَقَدِّمِ؛ حَيْثُ تَكْشِفُ هَذِهِ الْآيَةُ بوضوح أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمْ يَنْكُرْ دَعْوَةَ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) فَقَطْ، بَلْ أَعَادَ تَأْطِيرَهَا بِوَصْفِهَا خَطَرًا وَجُودِيًّا يَهْدِدُ الْجَمَاعَةَ. فَبَدَلَ أَنْ تَظْهَرَ دَعْوَةُ النَّبِيِّ مُوسَى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) لِبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى أَنَّهَا تَحْرِيرٌ لَهُمْ مِنْ هَيْمَنَةِ (فِرْعَوْنَ) الطَّاغِيَةِ، صُوِّرَتْ عَلَى أَنَّهَا تَهْدِيدٌ لِدِينِهِمْ وَخَطَرٌ عَلَى مُسْتَقْبَلِهِمْ وَاسْتِقْرَارِهِمْ، وَهَذَا مَا يُمَثِّلُ ذُرْوَةَ عَمَلِ الْمَنْظُومَةِ الْاسْتِكْبَارِيَّةِ، وَقِمَّةَ التَّلَاعِبِ بِالْوَعْيِ الْمَبْنِيِّ عَلَى كُلِّ مَا تَقَدَّمَ مِنْ نِقَاطٍ تَجَهَّزَ الْأَرْضِيَّةُ لِمِثْلِ هَذَا الطَّرْحِ الَّذِي يَجْعَلُ الْحَقَّ تَهْدِيدًا، وَالباطل استقرارًا بالنسبة إلى أتباعه. وهنا تبرز علاقة هذه الخطوة مع الخطوات السابقة، فهي تعتمد على جميع ما مرَّ، خصوصًا في ما يتعلَّق بالاستخفاف بالعقول، وقلب المفاهيم، وترويج النخب له.

وتعتمد هذه الخطوة على جملة من الأساليب التفصيلية، أبرزها:

أ. تضخيم خطر معين أو اختلاقه، بحيث يبدو كأنه يهدد وجود المجتمع: ﴿يُرِيدُ أَنْ

يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠].

ب. ربط هذا الخطر بالقيم، والدين، والأمن، والاستقرار: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ

الْمُنْتَلَى﴾ [طه: ٦٣].

ج. إثارة الخوف الجمعي: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ...﴾ [الشعراء: ٣٥].

د. تقديم السلطة الاستكبارية على أنها طريق الحق الوحيد، ومصدر الأمان من هذا

التهديد: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ... وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

ه. تجريم أي معارضة باعتبارها دعمًا للخطر الذي اختلقه لهم: ﴿...إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ

الَّذِي عَلَّمَكُمْ السِّحْرَ ﴿طه: ٧١﴾.

ويتجلّى هذا الأسلوب بوضوح في زماننا المعاصر، وذلك من خلال:

■ تصوير بعض الحركات الإصلاحية أو التحررية على أنّها تهديد للاستقرار في منطقة ما. وهو ما يحصل بالنسبة إلى أهل فلسطين الساعين نحو تحرّهم، فيبرز هذا التحرر على أنّهم تهديد لأمن المنطقة مثلاً.

■ تضخيم الخطر الخارجي لتبرير سياسات داخلية وتميرها، أو تبرير التداخلات في الشعوب الأخرى، ونموذجه تبرير غزو العراق لتدمير أسلحة الدمار الشامل، واختطاف رئيس فنزويلا بدعوى اتّجاره بالمخدرات، والعدوان على إيران بدعوى منعها من صناعة القنبلة النووية.

■ تصوير أي تغيير محتمل في النظام والأنظمة الحليفة بأنّه يؤدّي إلى الفوضى أو الانهيار ما يجعل التحرك والتحرر خطراً في أذهان الناس، وأنّ بقاءه أنفع لمصلحة الناس.

■ استخدام مصطلحات تعزّز البحث عن الحماية داخل النظام الاستكباري، كالأمن القومي أو حماية القيم بل الاستفادة من هذه المصطلحات حتى لتبرير قمع الحركات التحررية.

■ خلق حالة دائمة من القلق تجعل الناس تشعر بالحاجة إلى الحماية ودفع الخطر الوجودي لا إلى الحرية، ما يؤدّي بهم إلى التنازل عن حقوقهم ومحاربة من يسعى إلى التحرر، وذلك بدافع الخوف لا القناعة. ونموذجه ما يحصل من دعوة اللبنايين للتطبيع مع إسرائيل ومحاربة المقاومة باعتباره حلاً وحيداً لدفع وحشيتها.

وهذه الصناعة للتهديدات الوهمية تمثّل المرحلة التي يبلغ فيها الاستكبار ذروة إحكامه للسيطرة؛ حيث لا يكتفي بإخضاع الناس بل يدفعهم للدفاع عنه، وعندها يتحوّل الصراع من مواجهة بين المستكبرين والمستضعفين، إلى صراع داخل وعي الجماهير نفسها، ما يضمن

استمرار الهيمنة للمستكبرين على هؤلاء التابعين، وذلك من خلال هذه الأدوات النفسية والمعنوية المؤثرة.

خاتمة

يتبين لنا من خلال هذا العرض أنّ القرآن الكريم لم يتناول ظاهرة الاستكبار بوصفها حالات تاريخية منفصلة بل قدّمها بوصفها نموذجاً بنوياً متكرراً تحكمه سنن اجتماعية ثابتة، يمكن رصدها وتحليلها واستحضارها في مختلف الأزمنة. فالمستكبر - في المنظار القرآني - ليس مجرد فرد متعال بل هو منظومة متكاملة توظف القوة الماديّة والرمزيّة والإعلاميّة لإعادة تشكيل الواقع والوعي بما يخدم مصالحها.

وقد أظهر البحث أنّ أساليب المستكبرين تتخذ طابعاً منهجياً متدرجاً، يبدأ بتفكيك البنية الاجتماعيّة، ويمرّ باحتكار المرجعيّة الرمزيّة، وتدمير الوعي، وقلب المفاهيم، وتوظيف النخب، وينتهي بصناعة التهديدات الوهميّة لتعبئة الجماهير. وهذا التدرج يكشف عن عقلٍ استراتيجيٍّ يدير عمليّة الهيمنة، لا عن ممارسات عشوائية أو ظرفيّة.

ومن الناحية المنهجية، يثبت هذا البحث إمكانية اعتماد القرآن الكريم مصدراً لتحليل الظواهر الاجتماعيّة والسياسيّة، من خلال منهج الاستقراء الموضوعي للآيات وربطها بسياقاتها التاريخيّة والسُننيّة، ثمّ إسقاطها على الواقع المعاصر بوصفها قوانين جارية لا تختص بزمن دون آخر. وهذا ما يؤكّد حيويّة النصّ القرآني وقدرته على إنتاج معرفة تفسيرية تتجاوز حدود التفسير التقليدي إلى مجالات التحليل الحضاري والاجتماعي.

كما يبرز أنّ مواجهة الاستكبار - وفق المنطق القرآني - لا تقتصر على البُعد العسكري أو السياسي بل هي في جوهرها معركة وعي ومعنى، تبدأ بإعادة بناء الإنسان فكرياً وروحياً، وإحياء المرجعيّة الإلهيّة، واستعادة القدرة على التمييز بين الحقّ والباطل. فحيثما يُستعاد

الوَعِي، تَتَرَجَعُ الْهَيْمَنَةُ، وَحَيْثَمَا يُدْمَرُ، تَتَرَسَّخُ.
وَعَلَيْهِ، فَإِنَّ أَمَّ مَا يُمْكِنُ الْخُرُوجُ بِهِ هُوَ أَنَّ فَهْمَ أَسَالِيبِ الْاِسْتِكْبَارِ لَيْسَ غَايَةَ مَعْرِفِيَّةٍ
فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ شَرْطٌ أَسَاسٌ فِي بِنَاءِ اسْتِرَاطِيَجِيَّاتِ الْمَوَاجَهَةِ؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ مَقَاوِمَةُ مَنْظُومَةٍ
مَعْقَدَةٍ دُونَ وَعِيٍّ دَقِيقٍ بِأَدْوَاتِهَا وَأَلْيَاتِ عَمَلِهَا. وَمِنْ هُنَا، تَبْرُزُ الْحَاجَةُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ الدِّرَاسَاتِ
الْقُرْآنِيَّةِ التَّطْبِيقِيَّةِ الَّتِي تَرْبُطُ النَّصَّ بِالْوَاقِعِ، وَتَحَوِّلُ الْهَدْيَ الْإِلَهِيَّ إِلَى أَدْوَاتٍ فَعَّالَةٍ فِي تَشْخِصِ
التَّحْدِيَّاتِ وَصِيَاغَةِ الْحُلُولِ.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، تحقيق: علي أكبر غفاري، طهران، دار الكتب الإسلامية، ط ٤، ١٤٠٧ هـ.ق.
- محمد بن منظور: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط ٣، ١٤١٤ هـ.ق.
- مجموعة من المؤلفين: لسان اللسان (تهذيب لسان العرب)، تحقيق المكتب الثقافي لتحقيق الكتب، بيروت، دار الكتب العلمية، لا ط، ١٩٩٣ م.
- مجموعة من المؤلفين (مجمع اللغة العربية بالقاهرة): المعجم الوسيط، دار الدعوة، لا ط، لا ت.
- كلمة الإمام الخامنئي (قده) بمناسبة اليوم الوطني لمقارعة الاستكبار العالمي، ١١-٠٣-٢٠١٣ م، <https://arabic.khamenei.ir/news/2337>
- محمد بن مسعود العيَّاشي: تفسير العيَّاشي، طهران، المكتبة العلمية، ط ١، ١٣٨٠ هـ.ق.

حتمية هلاك المستكبرين ونجاة المستضعفين

-دراسة سننية قرآنية-

◆ الشيخ د. لبنان حسين الزين^(١)

■ خلاصة

تتناول هذه المقالة بالبحث والدراسة الصراع التاريخي بين المُستضعفين والمُستكبرين من منظار سنني قرآني، وذلك على طول حركة المجتمع الإنساني. وتبين سعي المُستكبرين الدائم إلى استضعاف أهل الحقّ والإمعان بالاستكبار والفساد في الأرض، وما يصيبهم من سنن إلهية؛ بفعل استكبارهم وإفسادهم. وكذلك تكشف عن السنن الإلهية الجارية في مجتمع المُستضعفين، والوعد الإلهي بتمكينهم في الأرض وتوريثهم إياها. وتؤكد المقالة على أن هذا الصراع وما يجري فيه محكوم بسنن إلهية لا تبدل ولا تتحول. ولذا، لا بدّ من فهمها والوعي بها والاسترشاد بهديها في إدارة الصراع مع المستكبرين، والتمهيد لتمكين المُستضعفين في الأرض. وبالمحصلة، تجيب المقالة عن الأسئلة الآتية: ما هي مفاهيم «الاستكبار» و«الاستضعاف» و«السنن» في القرآن الكريم؟ وما هي السنن الاجتماعية ومحدداتها وخصائصها وأشكالها ومساراتها؟ وما هي أبرز السنن الجارية في مجتمع المُستضعفين والمُستكبرين؟ وكيف يمكن الاستفادة من هذه السنن في تشكيل فهم سنني لمجتمع المُستضعفين في مواجهته لمجتمع المُستكبرين؟

الكلمات المفتاحية: السنن القرآنية، السنن الاجتماعية، السنن التاريخية، الاستكبار، الاستضعاف، هلاك المُستكبرين، نجاة المُستضعفين.

١ - مدرّس متفرّغ ورئيس لجنة القرآن والحديث في جامعة المصطفى ﷺ العالمية في بيروت، باحث وكاتب في الدراسات الإسلامية والقرآنية، من لبنان.



Inevitability of the Arrogant Destruction, Salvation of the Weak

Qur'anic Sunnah Study

◆ **Sheikh Dr. Loubnan Hussein Al-Zein**

Lebanese full-time teacher, Head of the Qur'an and Hadith Committee at Al-Mustafa International University in Beirut, researcher and writer in Islamic and Qur'anic studies

■ Abstract

This article examines the historical conflict between the oppressed and the oppressors from a Qur'anic perspective that aligns with the dynamics of human society. It demonstrates the oppressors' persistent efforts to weaken the righteous and perpetuate corruption, and the inevitable divine laws that result from this. It also reveals the prevailing laws within the oppressed society and the divine promise of their empowerment and inheritance of the earth, emphasizing immutable divine laws govern this conflict. This necessitates awareness of these laws and guidance in managing the conflict and paving the way for empowerment.

Finally, the article addresses fundamental questions concerning the concepts of oppression, subjugation, and divine laws [Sunan] in the Holy Qur'an. It explores the nature, determinants, and trajectories of social laws, analyzes the most prominent prevailing laws in the societies of the oppressed and the oppressors, and examines how these can be utilized to construct a divinely ordained vision that supports confrontation and empowerment.

Keywords:

Qur'anic Laws, Social Laws, Historical Laws, Arrogance, Oppression, Destruction of the Arrogant, Salvation of the Oppressed.

مقدمة

الصراع بين المُستضعفين والمُستكبرين هو في جوهره وواقعه صراع بين أهل الحق وأهل الباطل؛ فالمُستضعفون يمثلون جبهة الحق، والمُستكبرون يمثلون جبهة الباطل؛ وذلك على طول حركة المجتمع الإنساني في التاريخ والواقع.

وقد بدأ هذا الصراع مع إمام المُستكبرين (إبليس) اللعين الذي استكبر عن طاعة الأمر الإلهي بولاية الإنسان الكامل المُستخلف في الأرض، وأعلنها عداوة ومعرفة مفتوحة مع جبهة الحق [ص: ٧١-٨٣].

وسعى المُستكبرون عبر التاريخ والواقع إلى استضعاف أهل الحق والإفساد في الأرض؛ كما نجد في الأقوام الغابرة المُستكبرة التي حكى القرآن الكريم قصصها؛ كقوم نوح، وعاد، وشمود، وفرعون... حيث أهلكهم الله تعالى بسبب طغيانهم وعتوهم واستكبارهم، ونصر المُستضعفين عليهم، ووعدهم بالتمكين في الأرض وتوريثهم إياها [القصص: ٥-٦؛ النور: ٥٥؛ الأنبياء: ١٠٥]. وهذا الصراع وما يجري فيه محكوم بسُنن إلهية لا تتبدل ولا تتحول: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

لذا، كانت معرفة مجتمع المُستضعفين بهذه السُنن والوعي بخصائصها والاسترشاد بهديها، له بالغ الأثر والأهمية في سلامة سيرهم نحو التمكين في الأرض.

فما هي مفاهيم «الاستكبار» و«الاستضعاف» و«السُنن» في القرآن الكريم؟ وما هي السُنن الاجتماعية ومحدداتها وخصائصها وأشكالها ومساراتها؟

وما هي أبرز السنن الجارية في مجتمع المُستضعفين والمُستكبرين؟
وكيف يمكن الاستفادة من هذه السنن في تشكيل فهم ووعي سنني لمجتمع المُستضعفين
في مواجهته لمجتمع المُستكبرين؟

أولاً: مفاهيم (الاستكبار، والاستضعاف، والسنة) في القرآن:

١. مفهوم الاستكبار:

أ. الاستكبار في اللغة:

الكبر في اللغة أصل صحيح يدلّ على خلاف الصغر. والكبر: معظم الأمر، والكبر:
العظمة، وكذلك الكبرياء^(١).

والكِبْرُ والتَّكَبُّرُ والاستِكْبَارُ تتقارب في المعنى؛ فالكِبْرُ هو خصوص الحالة التي يتخصّص
بها الإنسان من إعجابه بنفسه؛ وذلك أن يرى الإنسان نفسه أكبر من غيره. وأعظم التَّكَبُّرِ هو
التَّكَبُّرُ على الله تعالى؛ بالامتناع من قبول الحقّ والإذعان له بالعبادة.
والاستِكْبَارُ يُقال على وجهين:

- أحدهما: أن يتحرّى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً؛ وذلك متى كان على ما يجب،
وفي المكان الذي يجب، وفي الوقت الذي يجب؛ وهو محمود.
- والثاني: أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له، وهذا هو المذموم.
والتَّكَبُّرُ يُقال على وجهين:

- أحدهما: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره،
وعلى هذا وصف الله تعالى بالتَّكَبُّرِ.
- والثاني: أن يكون متكلِّفاً لذلك متشبِّعاً؛ وذلك في وصف عامّة الناس بغير الحقّ.

١ - انظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ١٥٣.

وَالكِبْرِيَاءُ: الترفع عن الانقياد؛ وذلك لا يستحقّه غير الله تعالى^(١).

ب. الاستكبار في الاستعمال القرآني:

وردت مفردة (الاستكبار) ومشتقاتها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة [البقرة: ٣٤؛ ٨٧؛ نوح: ٧؛ فاطر: ٤٣؛ فصلت: ١٥؛ الأحقاف: ٢٠؛ ٤٠؛ ٧٥؛ ١٣٣؛ غافر: ٤٧؛ النحل: ٢٢؛ ٢٣]؛ وأريد منها قريب المعنى اللغوي المتقدم؛ وهو: استعظام الإنسان نفسه بما ليس له وبغير وجه حق، واستحسان ما فيها؛ فيرى نفسه أكبر من غيره، ويترفع ويتعالى على الآخرين ويحتقرهم ويجور عليهم ويطغى، ويتمتع عن قبول الحق؛ عناداً وجحوداً وإنكاراً. وهذا الاستكبار قد يكون حالة فردية أو حالة مجتمعية^(٢).

٢. مفهوم الاستضعاف:

أ. الاستضعاف في اللغة:

ضعف في اللغة أصلان متباينان، يدلّ أحدهما على خلاف القوة^(٣). والضعفُ قد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال. والاستضعاف يقابل الاستكبار^(٤).

ب. الاستضعاف في الاستعمال القرآني:

وردت مفردة (الاستضعاف) ومشتقاتها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة [القصص: ٥؛

١ - انظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٩٧-٦٩٨.

٢ - انظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٦٩٧-٦٩٨؛ حسن مصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ١٠، ص ١٧-١٩.

٣ - انظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٣، ص ٣٦٢.

٤ - انظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٠٦-٥٠٧.

النساء: ٧٥؛ ٩٧؛ ٧٩؛ ١٢٧؛ الأعراف: ١٥٠؛ سبأ: ٣٣؛ الأنفال: ٢٦]؛ وأريد منها قريب المعنى اللغوي والمعنى المقابل للاستكبار؛ وهو: طلب شخص أن يكون شخص آخر ضعيفاً، فهو مُسْتَضْعَفٌ، وذلك مُسْتَضْعَفٌ. فالمُسْتَضْعَفُ هو الَّذِي يُجْعَلُ ضَعِيفًا. ويقابله المُسْتَكْبِرُ الَّذِي اسْتَضْعَفَ غيره وطلب ضعفه. وهذا الاستضعاف قد يقع على الفرد، وقد يقع على المجتمع، وقد يكون صادرًا من فرد أو من مجتمع^(١).

٣. مفهوم السُّنَّة:

أ. السُّنَّةُ فِي اللُّغَةِ:

السُّنَنُ فِي اللُّغَةِ مُشْتَقَّةٌ مِنْ فِعْلِ سَنَّ؛ وَهُوَ جَرِيَانُ الشَّيْءِ وَإِطْرَادُهُ فِي سَهُولَةٍ. وَمِنْهُ اسْتَنْتَّ السُّنَّةُ؛ وَهِيَ السِّيْرَةُ^(٢).

ب. السُّنَّةُ فِي الاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ:

وردت مفردة السُّنَّةُ ومشتقاتها فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مَوَارِدٍ عَدَّةٍ [الأحزاب: ٣٨؛ ٦٢؛ فاطر: ٤٣؛ الإسراء: ٧٧؛ الأنفال: ٣٨؛ الحجر: ١٣؛ الكهف: ٥٥؛ آل عمران: ١٣٧؛ النساء: ٢٦]؛ أُريد منها معنى جامع؛ وهو جريان أمور على تقديرات وضوابط مخصوصة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير^(٣).

وَسَنَّ اللّٰهُ -تَعَالَى- هِيَ جَرِيَانُ أَمْرِهِ وَحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ فِي خَلْقِهِ؛ بظهور صفاته وأسمائه وأفعاله

١ - انظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٥٠٦-٥٠٧؛ حسن مصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٧، ص ٣١.

٢ - انظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٣، ص ٦٠-٦١.

٣ - انظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص ٤٢٩؛ حسن مصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٥، ص ٢٣٧.

فيهم، على تقديرات وضوابط مخصوصة. وبناءً على ما تقدّم، نستنتج أنّ سُنن التاريخ هي: مجموعة القوانين والاتجاهات الموضوعية الإلهية الحاكمة على حركة التاريخ والمجتمع الإنساني^(١).

ثانياً: السُنن الاجتماعية الإلهية.. الخصائص، والمحددات، والأشكال:

كشف القرآن الكريم عن أنّ حركة التاريخ والمجتمع محكومة بسُنن لها خصائص ومحددات معيَّنة، وتجري ضمن أشكال وأنماط ومسارات محدّدة.

فما هي خصائص هذه السُنن؟

وما هي محدّداتها؟

وما هي أشكالها ومساراتها؟

١. خصائص السُنن الإلهية في القرآن الكريم:

يكشف القرآن الكريم عن خصائص تختصّ بها السُنن الإلهية الجارية في التاريخ والمجتمع الإنساني^(٢)؛ وهي:

أ. ربّانية السُنن:

فالسُنن الاجتماعية مرتبطة بالله -تعالى-؛ لأنّها كلماته التي أجزاها في خلقه؛ وهو المدبّر الأوحد لأُمور خلقه، فكلّ تدبير يرجع إليه، ولا يخرج شيء عن تدبيره؛ ومن تدبيراته: ما

١ - انظر: محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص ٤٠-٥٣.

٢ - لمزيد من التفصيل، انظر: محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص ٥٥-٦٣؛ محمد حسين الطباطبائي: الميزان، ج ٢، ص ١٨١-١٨٢، ٢٩٣-٢٩٥؛ ج ٤، ص ٢٨-٢٩؛ ج ٨، ص ٢٠١؛ ج ١٣، ص ٥٩-٦٠؛ ج ١٤، ص ٣٣٠-٣٣١؛ ج ١٦، ص ١٩٥-١٩٦؛ ج ١٧، ص ٥٨-٥٩؛ ج ١٨، ص ٢٢٩؛ ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٤، ص ٩٦-١٠٠؛ ج ٨، ص ١٠٣-١٠٥؛ ج ٢٢، ص ١١٢، ٣٣٧-٣٣٨؛ ج ٢٦، ص ١٨٣؛ ج ٨، ص ٢١.

يجريه في حركة التاريخ والمجتمع الإنساني من سُنَن. قال -تعالى-: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢؛ وانظر: الأحزاب: ٣٨؛ فاطر: ٤٣].

ب. العموم والشمول:

فالسُنَن الاجتماعية تعمّ بجريهاها وتشمل الناس جميعهم، على اختلاف أزمتههم وأمكتهم، فلا تستثني أحدًا منهم. قال -تعالى-: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣] وانظر: [البقرة: ٢١٤].

ج. الاضطراد والاستمرار والثبات:

فالسُنَن الاجتماعية ليست سُنَنًا عشوائية بل ثابتة ومستمرّة؛ تجري وفق قانون أو اتجاه طبيعي له ضوابطه وشروطه ومساراته التي لا تختلف ولا تتخلف. قال -تعالى-: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] و[الإسراء: ٧٧؛ الأنعام: ٣٤].

د. انسجام السُنَن مع اختيار الإنسان:

جريان السُنَن الاجتماعية ينسجم مع اختيار الإنسان وصدور الأفعال منه باختياره وإرادته الحرة للفعل، فلا تسلبه الاختيار وتجبره على الفعل. وهذا لا يستلزم أنّ يخرج الإنسان عن حاكمية الله -تعالى- وقدرته، بل ما يختاره الإنسان من فعل وما يترتب عليه من أثر هو بإذن الله -تعالى-، وبتقديره، وقضائه المحيط بجميع خلقه. غاية الأمر أنّ الإنسان له اختيار مصيره، ولكنّ هذا الاختيار يترتب عليه نتيجة وأثر لا تخرج عن أمر الله -تعالى- وحكمه^(١). قال -تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا

١ - انظر: محمد حسين الطباطبائي: الميزان، ج ١، ص ١٠٦-١١٠؛ ج ١٠، ص ٣٧٠-٣٧٣.

مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴿الرعد: ١١﴾ وانظر: [الكهف: ٥٩؛ الجن: ١٦].

٢. محدّدات السُّنن الإلهية التاريخية:

من السُّنن الإلهية ما يتعلّق بعالم الطبيعة؛ كالقوانين الحاكمة على عالم المادة؛ من قبيل: قانون الغليان، ومنها ما يتعلّق بحركة التاريخ الإنساني؛ وهو السُّنن التاريخية. ولهذا القسم من السُّنن الإلهية ميدانه الخاصّ الذي تحكم فيه على الساحة التاريخية الإنسانية، وتختلف فيه ظواهرها وقوانينها عن سائر الظواهر والقوانين الكونية والطبيعية التي يحكمها علاقة سبب بمسبّب، ونتيجة بمقدّمات فقط، كظاهرة الغليان التي هي ظاهرة طبيعية محكومة بعلاقة السببية فقط؛ لارتباطها بظروف معينة عند تحقّقها يحدث الغليان.

وأما السُّنن التاريخية فتحمل أبعاداً زائدة عن ذلك؛ فمضافاً إلى كون السُّنن محكومة بعلاقة السببية، لكنّها خصوص السببية التي لها غاية وهدف، وتتجاوز ذات الفرد العامل إلى المجتمع. وعليه، فموضوع السُّنن التاريخية هو العمل الهادف الذي يشكّل أرضية ويتّخذ من المجتمع أو الأمة أرضية له^(١).

وبعبارة مختصرة، يمكن القول إنّ محدّدات السُّنن الإلهية التاريخية؛ هي:

- السببية
- الهدفية والغائية
- الاجتماعية

٣. أشكال السُّنن وصيغها:

كشف القرآن الكريم عن أنّ الساحة التاريخية البشرية عامرة بسُّنن إلهية، عبر عن حقائقها

١ - لمزيد من التفصيل، انظر: محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص ٦٧-٧٥.

بأشكال وأساليب مختلفة وبصيغ وتعبير متعددة؛ فتارةً عبرَ عنها بصيغة قضائية شرطية مكونة من طرفين يرتبطان بعلاقة شرطية يتحقق بموجبها الطرف الثاني عند تحقق الطرف الأول، وتارةً أخرى عبرَ عنها بصيغة علمية حتمية ثابتة لا تتخلف ولا تختلف، وتارةً ثالثةً عبرَ عنها بصيغة قضائية ذي اتجاه موضوعي قد تقبل مخالفة الإنسان لها على المدى القصير، ولكنها حتمية وقاهرة له في حال استمراره في مخالفتها على المدى المتوسط والبعيد. وهذه الأشكال السننية هي:

أ. الشكل الأول «السنن المصاغة على نحو القضية الشرطية»:

ذكر القرآن الكريم مجموعة من السنن التاريخية الجارية في المجتمع الإنساني، وعبرَ عنها بصيغة قضائية شرطية تربط بين حادثتين أو مجموعتين من الحوادث على الساحة التاريخية وتؤكد العلاقة الموضوعية بين الشرط والجزاء، وأنه متى ما تحقق الشرط تحقق الجزاء. وهذه صياغة نجدها في كثير من القوانين والسنن الكونية والطبيعية.

ومثل هذه القوانين تقدم خدمة كبيرة للإنسان في حياته الاعتيادية وتلعب دوراً عظيماً في توجيه الإنسان؛ لأنه بتعرفه على هذه القوانين يصبح بإمكانه أن يتصرف بالنسبة إلى الجزاء، ففي كل حالة يرى أنه بحاجة إلى الجزاء يُعمل هذا القانون ليحقق شروط هذا القانون. وهذا في السنن الشرطية الإيجابية، كسنة التغيير الإيجابي: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وفي الحالة التي يكون الجزاء متعارضاً مع مصالحه ومشاعره يحاول الحيلولة دون تحقيق شروط هذا القانون. وهذا في السنن الشرطية السلبية؛ كسنة التغيير السلبي: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

لذا، كان القانون الموضوع على نحو القضية الشرطية بمثابة موجّه عملي للإنسان في

حياته^(١). ومن نماذج هذه السُّنن الواردة في القرآن الكريم: سُنَّة التغيير، وسُنَّة التدافع، وسُنَّة النصر، وسُنَّة دمار المجتمعات وانهيارها بحكم الفاسقين، وسُنَّة وفرة الرزق بالتقوى الاجتماعية، وغيرها من السُّنن.

ب. الشكل الثاني «السُّنن المُصاغة على نحو القانون العلميّ الناجز»:

كشف القرآن الكريم عن مجموعة من السُّنن التاريخية الجارية في المجتمع الإنسانيّ وعبرَ عنها بصيغة قضية علمية فعلية ناجزة محقّقة. فلا يملك الإنسان تجاهها إرادة تغيير ظروفها، أو تعديل شروطها، وإنما صيغت بلغة التنجيز والتحقيق بلحاظ زمان معين ومكان معين^(٢).

ومن السُّنن الواردة في القرآن الكريم على نحو القضية العلمية الفعلية الناجزة: سُنَّة الاستخلاف، وسُنَّة الابتلاء والامتحان، وسُنَّة التداول، وسُنَّة التفاضل والتمايز، وسُنَّة آجال الأمم، وغيرها من السُّنن.

ج. الشكل الثالث «السُّنن المُصاغة على نحو القضية ذي الاتجاه الموضوعي»:

ورد في القرآن الكريم ذكر مجموعة من السُّنن التاريخية الجارية في المجتمع الإنسانيّ عبرَ عنها بصيغة قضية ذي اتجاه موضوعي في حركة التاريخ والمجتمع، وهي ليست كالسُّنن السابقة المُصاغة على نحو القانون العلميّ الناجز؛ لجهة عدم قبولها للتحدي والمخالفة. فالقانون العلميّ لا يقبل التحدي من قبل الإنسان، ولا يمكن له أن يخالفه أو ينقضه. بينما يمكن للإنسان أن يتحدى السُّنن المُصاغة على نحو الاتجاه الموضوعي؛ فهناك اتجاهات وسُنن موضوعية في حركة التاريخ والمجتمع لها خاصية المرونة؛ بحيث قد تقبل تحدي

١ - انظر: محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص ٧٧-٨٠.

٢ - انظر: محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص ٨١.

الإنسان لها، ولو على المدى القصير، ولكنها لا تقبل ذلك على المدى المتوسط والبعيد؛ حيث يتحطّم المتحدّي حينها بسُنن التاريخ نفسها^(١).
ومن السُنن ذي الاتجاه الموضوعي التي بينها القرآن الكريم: سُنّة ارتباط الإنسان بالدين، وسُنّة حبّ الحقّ وبغض الباطل، وسُنّة الإقبال على الطّيبات والإعراض عن الخبائث، وسُنّة الارتباط بين الرجل والمرأة، وسُنّة تناسب الأعمال الاجتماعيّة مع خصائص الرجل والمرأة، وغيرها من السُنن.

ثالثاً: السُنن الجارية في المُستضعفين والمستكبرين:

كشف القرآن الكريم عن نماذج كثيرة لسُنن اجتماعيّة حاکمة على حركة المجتمع والتاريخ، ولا سيّما في سياق صراع الحقّ والباطل، والمُستضعفين والمستكبرين عبر التاريخ والواقع. وسوف نركّز على تلك السُنن المرتبطة بالخصوص بحركة مجتمع أهل الحقّ المُستضعفين، وحركة مجتمع أهل الباطل المستكبرين؛ بهدف الاستفادة منها لتشكيل فهم ووعي سُننيّ للمُستضعفين في مواجهة المستكبرين.

١. سُنّة الاستخلاف:

بيّن القرآن الكريم أنّ استخلاف الإنسان في الأرض هو سُنّة تاريخيّة إلهيّة حتميّة على نحو القانون العلميّ الناجز، الذي لا يقبل التغيير ولا التبديل، ولا التحديّ، وأنّه جعل إلهيّ لا يتخلّف فيه المراد الإلهيّ، وهو إرادة الاستخلاف للإنسان في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾ [البقرة: ٣٠-٣٤]؛ وتلخّص هذه الآيات مسيرة الاستخلاف منذ خلق آدم عليه السلام وامتحان الملائكة و(إبليس) في أمر استخلافه، وإسكانه

١ - انظر: محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنيّة، ص ٨٤-٨٦.

الجَنَّةَ، وخروجه منها، وهبوطه إلى الأرض، ورجوعه وذريته بعدها إلى الله بالمعاد، فلا سؤال الملائكة دفع الاستخلاف، ولا إباء (إبليس) عن السجود لآدم (عليه السلام) أبطله، ولا اقتراب آدم (عليه السلام) من الشجرة وهبوطه إلى الأرض ألغى مفاعيله، ولا معارضة الكافرين للاستخلاف في بعض الأزمنة عطلَّ الجعل الإلهيَّ له! فاستخلاف الإنسان حتمي لا يقبل المنازعة والتحدّي؛ ولو على المدى القصير؛ بما أنه جعل إلهيَّ، فلا تخلو الأرض من حجةٍ مستخلف عن الله في كلِّ زمن من الأزمنة مهما حاول الكافرون دفع ذلك وإبطاله! قال -تعالى-: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وأما تمكين المُستضعفين في الأرض فهو -أيضاً- سنة تاريخية إلهية لا تقبل التغيير ولا التبديل، لكنّها تقبل التحدي على المدى القصير؛ فهو من السنن المصاغة على نحو الاتجاه الموضوعي، فالله -تعالى- أعدَّ الأرض وهيئها لعباده الصالحين خاصة؛ ليتسلطوا على منافعها ويتمتعوا ببركاتها، فهم وإن زاحمهم الكافرون فيها وأزاحوهم عنها لوقت ما، لكنَّ الله -تعالى- سيجعل لهم مآلاً وموعداً؛ بحيث تكون الأرض خالصة لهم من دون الكافرين^(١)؛ وهذا ما يعدهم القرآن الكريم به، قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]؛ و[النور: ٥٥؛ القصص: ٦-٥].

ولذلك كان الاستخلاف سنة حتمية لا تقبل التحدي، وهو سنة على نحو القضية الفعلية الناجزة، وكان التمكين سنة قابلة للتحدي على المدى القصير، لا المتوسط والبعيد، وهو سنة على نحو الاتجاه الموضوعي.

ولذا، كان على مجتمع المستضعفين أن لا يسلك سلوكاً ولا يتخذ موقفاً معاكساً ومعارضاً لسنة الاستخلاف، وإلا تعرّض للهلاك، وأن يسعى إلى تحقيق التمكين في الأرض؛ بإيجاد الظروف الموضوعية لتحقيقه والتمهيد لحصوله.

١ - انظر: محمد حسين الطباطبائي: الميزان، ج ١٤، ص ٣٣٠-٣٣١؛ ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل، ج ١٢، ص ١٧٣-١٧٤.

وكذا فلتعلم أي جماعة بشرية؛ كالمستكبرين، سلكت مسلكاً معارضاً لسنة الاستخلاف وعرضت مشروع الاستخلاف لخطر التهديد الوجودي؛ فإنها سوف تضع نفسها أمام الاستئصال والهلاك الحتمي؛ إما بيد المستخلفين المُستضعفين، حماة مشروع الاستخلاف والمدافعين عنه، وإما بيد التكوين الغيبية، كما حصل مع الأقوام الغابرة المستكبرة، كقوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، و...

والأمر نفسه في معارضة المُستكبرين لسنة التمكين، وإن كان تحديدهم لها ممكناً على المستوى القصير، لكن استمرار تحديدهم لتمكين المُستخلفين المُستضعفين في الأرض سوف يعرضهم لخطر الاستئصال والهلاك الحتمي، ولو بعد حين، كما حصل مع الأقوام الغابرة التي عارضت دعوات الأنبياء عليهم السلام ومشروعهم الإلهي.

٢. سنة التغيير الاجتماعي:

بين القرآن الكريم هذه السنة التاريخية بصيغة القضية الشرطية في قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]؛ حيث ربط بين تغييرين، بين تغيير المحتوى الداخلي للإنسان، وتغيير الوضع الظاهري للمجتمع الإنساني، ومفاد هذه العلاقة أنه متى ما وجد ذلك التغيير في نفس الفرد وجد هذا التغيير في كيان المجتمع الإنساني. فإذا ما أرادت أمة ما أن ترتقي إلى السعادة والحياة الكريمة، وأن تكون عزيزة كريمة حرة مستقلة راقية متقدمة على جميع المستويات المادية والمعنوية والفكرية والعلمية...، فعلى أفرادها أن يحدثوا تغييراً في أنفسهم على مستوى الفكر والعقيدة والأخلاق والقيم، لينتج عنه توافر البيئة المناسبة لإيجاد المجتمع الإنساني السعيد الذي يحيا حياة كريمة سعيدة وراقية.

وفي المقابل، إذا ما أرادت أمة ما أن تحافظ على سعادتها وحياتها الكريمة وراقية، فعلى أفرادها تجنب التعرض لتغيير سلبي على مستوى أنفسهم، بما لا يؤدي إلى سلب الأمة هذه النعمة الإلهية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ

وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿[الأنفال: ٥٣].

إنَّ هذا التغيير الداخلي لأفراد المجتمع في جانبي الإيجاب والسلب ليس مشروطاً أن يكون على نحو الموجبة الكلية بل يكفي أن يحصل التغيير الداخلي لفئة من المجتمع؛ بحيث ينعكس تغييرها الذي أحدثته على واقع مجتمعتها بأسره، حتى يتحقَّق في هذا المجتمع التغيير الاجتماعي الإيجابي أو السلبي، فلو أنَّ مجتمعاً من المجتمعات يزرع تحت الاحتلال ويعاني الخنوع الهوان والذلَّ، فقامت فئة من مكوثاته بتغيير أنفسها رافعة عن نفسها الخنوع والذلَّ والهوان؛ بالشجاعة والمقاومة والتضحية والفداء، وكان فعلها المقاوم له أثره في اعتناق المجتمع بأسره من نير الاحتلال، فإنَّ هذا المجتمع ستحوِّل من مجتمع ذليل وخاضع ومستعبد إلى مجتمع عزيز ومقاوم وحرٍّ؛ حتى لو لم يكن أفرادها بأسرهم متحقِّقين بذلك! فشرط التغيير الاجتماعي هو التغيير الداخلي الذي يكون تغييره مؤثراً على المجتمع بأسره.

وهكذا في شتى نواحي التغيير الاجتماعي، فلو أنَّ مجتمعاً قابلاً في ظلمات الجهل والتخلُّف، وقامت فئة منه بتغيير محتواها الداخلي لجهة طلب العلم، وكانت تلك الفئة لها أثرها الفاعل في المجتمع، فإنَّ هذا المجتمع سيتحوِّل إلى مجتمع عالم ومتقدِّم وحضاريٍّ، حتى لو كان بعض أفراده ليسوا من أهل العلم والحضارة.

وبناءً على ما تقدَّم، فعلى كلِّ فرد من أفراد المجتمع المُستضعفين، إذا ما أراد التغيير لواقع مجتمعه من الأسوأ نحو الأفضل؛ من الجهل إلى العلم، ومن التخلُّف إلى الحضارة، ومن الاستعباد والخضوع إلى الحرية والاستقلال، ... أن يُحدث تغييرين: الأوَّل: تغيير في محتواه الداخلي، فيتَّصف بما يتطلَّبه التغيير الاجتماعي؛ من العلم، والحضارة، والاستقلال، والتحرُّر و... على مستوى ذاته. والثاني: تغيير في المحتوى الداخلي لمحيطه الذي يقدر على أن يؤثِّر فيه؛ كأهله، وأسرته، وأقربائه، وأصدقائه، وجيرانه... فلو حمل كلُّ فرد من أفراد المجتمع المُستضعفين هذين التكليفين، لتتج عن ذلك التغيير الاجتماعي المنشود، بدلاً من أن يبكي كل فرد ويتحسَّر على جهل مجتمعه، وتخلُّفه، وهوانه، ورزوحه تحت الاستعباد والاستبداد...!

٣. سنّة التدافع:

عبر القرآن الكريم عن هذه السنّة التاريخية الجارية في المجتمع الإنساني بصيغة قضية شرطية تربط بين طرفين؛ الأوّل: وجود التدافع في المجتمع الإنساني، والثاني: امتناع الفساد في الأرض. قال -تعالى-: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] وانظر: [الحج: ٤٠].

فالتدافع أمر فطريّ موجود في أصل خِلقة الإنسان، وهو معنى عامّ جارٍ في جميع شؤون المجتمع الإنساني. وحقيقة التدافع هي حمل الآخر بأيّ وجه أمكن على ما يريده الإنسان، ودفعه عمّا يزاحمه ويمانعه عليه. وهذا معنى عامّ موجود في الحرب والسلم معاً، وفي الشدّة والرخاء، والراحة والعناء جميعاً، وبين جميع الأفراد المجتمع الإنسانيّ وشعوبه وأُمنه.

نعم، إنّما يتنبّه الإنسان له عند ظهور المخالفة ومزاحمة بعض الأفراد بعضهم لبعض في حقوق الحياة، أو في الشهوات والميول ونحوها، فيقوم الإنسان حينها بدفع الشخص المزاحم والممانع له عن حقّه أو عن مشتهاه.

ومن موارد جريان سنّة التدافع في المجتمعات: دفع الظلم والباطل عنها، وإحياء الحقّ والعدل فيها^(١).

فلا استقامة للحياة الأرضية ولا استمرار لمسيرة الاستخلاف الإلهي للإنسان في الأرض إلا بدفع الظلم والجور والباطل بأيدي ثلّة من المؤمنين الذين شرفهم الله -تعالى- واختارهم لهذه المسؤولية العظيمة؛ مسؤولية دفع الفساد عن الأرض والإنسان والمقدّسات، فدفع بعضٍ هو دفع عن الكلّ بموجب هذه السنّة الإلهية.

لذا، على أي مجموعة مؤمنة مُستضعفة تضطلع بمقاومة الظلم والاستبداد في أيّ زمان ومكان أن تعلم أنّها تودّي دوراً مصيرياً في الحياة، وتدفع عن الإنسانية بأكملها، وتحفظ سلامة مسيرة الاستخلاف الإلهي، وتهيئ الظروف الموضوعية للتمكين في الأرض. وهذا أمر مهمّ

١ - انظر: محمد حسين الطباطبائي: الميزان، ج ٢، ص ٢٩٣-٢٩٥.

جدًا ينبغي الوعي به في بناء فهم وبصيرة سُنِّيَّةٍ لدى الإنسان، في سياق التمهيد لإقامة حكومة التوحيد والعدل الإلهيِّين في آخر الزمان، وتمكين المستضعفين في الأرض. والأمة التي لا تؤدِّي دورها وتكليفها في الدفع ومقاومة الظلم والاستبداد سوف تعرِّض نفسها لجريان سُنَّةٍ أخرى؛ وهي سُنَّةُ الاستبدال؛ حيث حذَّر الله -تعالى- الأمة المتقاعسة عن أداء واجباتها ومسؤولياتها في مقاومة الباطل، باستبدالها، فضلاً عن تعريضها لنفسها بفرارها من الزحف إلى العذاب الإلهي والخسران في الدنيا والآخرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩-٤٠]، كما حصل مع بني إسرائيل عندما تخلفوا عن دخول الأرض المقدَّسة ومواجهة الجبَّارين، فعاقبهم الله تعالى بالتيه! [المائدة: ٢١-٢٦].

كما أنَّ تقصير الأمة في الإنفاق والتجهيز القتالي في سبيل الله تعالى والدفاع عن الحقِّ، يعرضها للاستبدال: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ومن النماذج القرآنيَّة التي عرضها القرآن الكريم لدفاع المُستضعفين في مواجهة المستكبرين: بنو إسرائيل مع طالوت وداوود (عليه السلام)؛ فلما حملت فئة مؤمنة منهم مسؤولية الدفاع ومواجهة الاستكبار والطغيان، نصرها الله تعالى على عدوِّها [البقرة: ٢٤٩-٢٥١].

٤. سُنَّةُ النِّصْر:

بيَّن القرآن الكريم أنَّ النِّصْر سُنَّةٌ من السُّنَنِ الإلهيَّةِ الجارية ضمن المجتمع الإنساني،

١ - انظر: محمد بن الحسن الطوسي: التبيان، ج ٢، ص ٢٨٨-٣٠٢؛ الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان، ج ٢، ص ١٣٩-١٥١.

ولكن ضمن شروط معيّنة، يتحقّق النصر عند تحقّقها؛ بمعنى أنّ الله -تعالى- يهيئ للمؤمنين أسباب النصر المقتضية لظهورهم وغلبتهم على عدوهم، كإلقاء الرعب في قلوب الأعداء، وإدارة الدوائر للمؤمنين عليهم، وتشجيع المؤمنين، وتقوية قلوبهم، وربط جأشهم، وتثبيت أقدامهم^(١). ومن الشروط التي ذكرها القرآن الكريم لتحقق النصر الإلهي:

- الإيمان الصادق، قال -تعالى-: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].
- تولي الله -تعالى- وتولي أوليائه، قال -تعالى-: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].
- الإيمان بأنّ النصر من عند الله، قال -تعالى-: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٢٦]؛ و[البقرة: ٢٥١].
- نصره الله -تعالى- بإعلاء كلمته ودينه، قال -تعالى-: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]؛ [الحج: ٤٠].
- تقوى الله وشكره، قال -تعالى-: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]؛ و[الأنفال: ٢٦].
- الصبر على الابتلاء والامتحان الإلهي، قال -تعالى-: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]؛ و[البقرة: ٢١٤؛ ٢٥٠].
- الإعداد والتجهيز، قال -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ...﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ فعلى الأمة أن تبذل جهدها ووسعها في الإعداد والتجهيز لمكانم القوة، في جميع المجالات والميادين التي تشكّل مواطن قوّة واقتدار على العدو، وذلك وفق طاقتها

١ - انظر: محمد حسين الطباطبائي: الميزان، ج ١٨، ص ٢٢٩.

واستطاعتها، والله يتكفلها حينها بتتميم مواطن قصورها لتحقيق الغلبة على العدو بالمدد الغيبي.

ولذا، كان على الأمة المستضعفة أن لا توفر جهداً وطاقة كامنة فيها؛ مادّية وبشريّة، إلا وتعمل عليها إعداداً وتطويراً، في مواجهة العدو المستكبر. فعلى سبيل المثال: العمل على الاستفادة من الأفراد الذين رُفِعَ عنهم القتال البدني، في جبهات ثقافية وأمنيّة وتكنولوجيّة وإعلاميّة... تتطلبها المواجهة والمقاومة للعدو.

وفي سياق البحث في سنّة النصر، ينبغي الالتفات إلى أمور، وهي:

■ لا بدّ من تحقّق شروط النصر جميعها، حتى تجري سنّة النصر في أمة من الأمم، فقد تظنّ أمة من الأمم أنّها حقّقت تلك الشروط ظاهراً، ولكنها واقعاً مقصّرة على مستوى بعض الشروط، أو أنّ تحقّقها بشرط ما ليس بالمستوى المطلوب لجريان سنّة النصر، فتحتاج إلى أن تعمل على إصلاح نفسها، أو تحقيق شرط من الشروط بدرجة أعلى، كالصبر والتقوى... بدرجة أعلى ممّا هي عليه واقعاً.

■ يمكن أن تتحقّق شروط النصر جميعها، لكن لا تجري سنّة النصر في الأمة؛ لحاكميّة سنن أخرى في الجريان عليها، كسنّة الابتلاء والامتحان التي يريد الله -تعالى- بجريانها صناعة الأمة الصابرة المحتسبة التقيّة وتشريفها بهذا الابتلاء، الذي يظهر أوّل ما يظهر فيها بصورة عدم تحقّق النصر، لكن بعد أن تستجيب الأمة لسنّة الابتلاء الإلهي وتجتاز الامتحان بنجاح، تجري فيها سنّة النصر بصورة أعظم وأجلى من جريانها في الطرف السابق على الابتلاء والامتحان: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرُزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ويكون هذا التأخر في جريان النصر حينها لأجل إعداد الأمة على المستويين المعنوي والمادّي لمواجهة مستقبلية تتطلب إعداداً

خاصًا وجهوزية استثنائية، فيكون الابتلاء بعدم تحقق سنة النصر دافعًا للأمة إلى مراجعة نفسها على مستوى الإعداد الروحي، والإيماني، والووعي، والإدارة، والتنظيم، والتخطيط، والتجهيز ... بما ما لم تكن لتلتفت إليه، ولا تتبصر به، ولا تمتلك الإرادة والعزم نحو تحقيقه وإجرائه في واقعها، لولا وقوعها في سنة الابتلاء والامتحان الإلهي! [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

■ جريان سنة النصر لا ينحصر بصورة تحقق نصر مادّي للأمة؛ فقد تجري سنة النصر فيها، مع وقوع خسائر جسيمة في الأمة المنتصرة على مستوى فقدان الأنفس والإضرار بالمقدّرات المادّيّة لها. فبقاء الأمة متماسكة وصابرة وثابتة على عقيدتها ونهجها هو نصر في معركة الحقّ والباطل، وإفشال لمخططات الأعداء من المواجهة مع أهل الحقّ؛ لأنّ معيار النصر الحقيقي الإلهي هو نيل إحدى الحُسنيين؛ إمّا الغلبة والظهور على العدو، وإمّا الشهادة على نهج الحقّ وإفشالاً للأهداف العدو ومخططاته، فالمعادلة الإلهية للمؤمنين هي (نصر غلبة = نصر شهادة): ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]، وعلى الحالتين يكون قياس النصر باستمرار نهج الحقّ والثبات عليه، وإفشال أهداف أهل الباطل ومنعهم من تحقيقها.

■ جريان سنة النصر وغيرها من السنن على الساحة الإنسانيّة لا يُقاس بجريان الأمور الفرديّة في حياتنا الخاصّة، فمن الخطأ أن نحكم فهمنا لجريان أمورنا الخاصّة في أعمارنا المحدودة (٨٠ سنة بمعدل طبيعي لأعمارنا)، في الساحة الإنسانيّة؛ فقوانين المجتمع وسننه ترتبط بحياة الأمم لا الأفراد، وهي محكومة لكلّ مساحة التاريخ الإنساني وحاضره ومستقبله، وهي مساحة زمنية لا تُقاس بأعمارنا الفرديّة المحدودة. وعليه، فقد تتحقّق شروط النصر، وتكون النتيجة بحسب فهمنا الفردي

متأخرة، لكنها بالفهم السنني الاجتماعي طبيعية ومنطقية.

■ كما يمكن أن تكون نتيجة جريان سنة النصر (لارتباطها بالمجتمع وحركته) تتبع ظهور إرهابات النصر في الأمة والهزيمة في عدوها، وهذا يحتاج إلى مزيد وقت حتى يظهر للعيان، أو قد يكون متحققاً، ولكن لم يظهر لنا بشكل جلي لتكتم العدو عنه، فيحتاج إلى وقت ليظهر: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

ومن النماذج القرآنية لنصرة الله تعالى للمُستضعفين على المستكبرين:

■ كثير من المؤمنين المُستضعفين في أزمنة الأنبياء السابقين: ﴿وَكَايُنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

■ المؤمنون بالنبي محمد ﷺ في زمنه، كما في معركة بدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٤].

٥. سنة الابتلاء والامتحان:

كشف القرآن الكريم عن جريان هذه السنة في المجتمع الإنساني وفق قانون حتمي لا يقبل التغيير ولا التبديل، فلا يُستثنى منها أحد من الناس، قال -تعالى-: ﴿وَلَتَبْلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]. ويتوقف على جريان هذه السنة إيصال نوع

الإنسان إلى سعادته وكماله، فالإنسان مخلوق قابل للوصول إلى الكمال بما جهّزه الله -تعالى- في أصل خَلْقِهِ من قوى واستعدادات، لو أُتِيحت له فرصة تفتّحها وخروجها إلى حيز الفعلية لَوَصَلَ إلى كماله.

وسُنَّةُ الابتلاء والامتحان تتيح للإنسان هذه الفرصة؛ لأنّ تفتّح استعداداته الكمالية وتظهر إلى الفعلية، بعد أن كانت كامنة فيه بالقوّة، قال -تعالى-: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ [الملك: ٢] و[الكهف: ٧].

فعلى مجتمع المُستضعفين أن لا يعاند هذه السُنَّة ولا يواجهها بل يسير وفقها، ويستفيد منها في تحصيل كمالاته، وتحقّقه بالتمكين في الأرض. فكيف له أن يتحقّق بكمالات؛ كالاستقلال، والعزّة، والكرامة، والتضحية، والفداء، والتعاون، والتكافل، و... إذا لم يمتحن ويُختبر، بما من شأنه أن يخرج هذه الكمالات الكامنة فيه بالقوّة إلى الفعلية بالابتلاء بالدفاع والمقاومة للمعتدين والظالمين؟! وكيف له أن يتطوّر على المستوى العلمي والحضاري والحياتي الاقتصادي و... إذا لم يمتحن ويُختبر بالابتلاء بالحصار والتضييق و...؟!!

إنّ سُنَّةُ الابتلاء والامتحان هي يد الصناعة الإلهية للإنسان. لذا، عليه أن يمتلك وعياً سُنِّيًّا بها في مقارنة حركته الاجتماعية (وكذلك الفردية)، ليجد أنّها نعمة إلهية محضّة، وإنّ بدت في صورة نقمة، وأنّها مسببة لحصول الكمال والوجدان والخير، وإنّ بدت مسببة لوقوع النقص والفقد والألم! ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [العصر: ٥-٦].

وقد ذكر القرآن الكريم جملة من الآثار والفوائد المترتبة على جريان هذه السُنَّة، وهي:

- تمييز المطيع من العاصي، والصالح من الطالح، قال -تعالى-: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ أَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].
- تصفية إيمان المؤمنين من الشوائب وإزالة آثار الشرك وأهله، قال -تعالى-: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ أَمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

■ إيقاظ الإنسان من غفلته وإرجاعه إلى جادة الصواب، قال -تعالى-: ﴿وَبَلَّوْنَاَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ و[الأعراف: ١٣٠]؛ الحديد: ٢٢-٢٣].

■ رفع منزلة الإنسان ودرجته، قال -تعالى-: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]؛ و[السجدة: ٢٤].

٦. سُنَّةُ التَّدَاوُلِ:

كشف القرآن الكريم عن هذه السنَّة الإلهية الجارية في المجتمع الإنساني على اختلاف الزمان والمكان؛ وهي سنَّة حتمية لا تقبل التغيير ولا التبديل، ولا تستثني أحدًا من الناس؛ فالكل مشمول بها. قال -تعالى-: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

والمراد بهذه المداولة أنَّ السنَّة الإلهية جرت على مداولة الأحداث بين الناس، على اختلاف الأزمان، من غير أن تتوقف على قوم دون غيرهم؛ وذلك لوجود مصالح عامة تتبع هذه السنَّة، لا تحيط بها أفهام الناس إلا ببعضها دون جميعها.

ومن الأمور التي يمكن لهم أن يحيطوا بها علمًا: إظهار الله -تعالى- إيمان المؤمنين بعد أن كان خافيًا، واتخاذ أفراد من الأمم؛ ليكونوا شهداء على أعمالها عند الله، وتصفية إيمان المؤمنين وتخليصه من الشوائب والنواقص، وإزالة جذور الكفر وآثاره^(١): ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠-١٤١].

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) بقوله: «ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين. يتخالسان أنفسهما أيهما يسقي صاحبه كأس المنون. فمرة لنا من

١ - انظر: محمد حسين الطباطبائي: الميزان، ج ٤، ص ٢٨-٢٩.

عدونا، ومرةً لعدونا من. فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر؛ حتى استقرَّ الإسلام ملقيًا جرانه، ومتبوءًا أوطانه^(١).
ومن هنا، فإنَّ سُنَّةَ التداول تجري في أمة من الأمم، إمَّا بتداول سلبي؛ بسبب تقاعسها عن أداء دورها ومسؤولياتها في الثبات على الحقِّ والدفاع عنه، فتعرض نفسها للاستبدال؛ بتداول الأيام بغلبة عدوها عليها! وإمَّا بتداول إيجابي؛ لاختبارها وامتحانها وإعدادها وتقويتها لتوجيه الضربة القاضية لعدوها في مستقبل الأيام. تلك الضربة التي ما كانت لتصل إليها إلا بمدولة الأيام لعدوها عليها؛ دفعًا لها وتحريكًا نحو مراجعة نقاط ضعفها وخللها؛ للعمل على تلافيتها، وتقوية وتحصين نقاط قوتها، كما ورد في آيات سورة آل عمران التي تعرضت لمعركة أحد؛ حيث كانت الغلبة للمسلمين أولًا، ثم دارت الأمور لعدوهم عليهم؛ لخلل حصل فيهم، ما كانوا ليتداركوه إلا بالمداولة والابتلاء، فلما تداركوا عادت لهم الغلبة، وقويت شوكتهم، وخلص إيمانهم، وأصبحوا أقرب ما يكون من قطع شوكة الكفر وجذوره من ذي قبل.

ولذا، كان على مجتمع المُستضعفين أن يتجنبَّ التعرُّض للتداول السلبي، حتى لا يُستبدل بغيره، وأن يستفيد من التداول الإيجابي، تمهيدًا لتحقيقه بالتمكين في الأرض.

٧. سُنَّةُ دمار المجتمعات وانهارها بحكم الفاسقين:

كشف القرآن الكريم عن هذه السُنَّة، وعبرَ عنها بصيغة قضية شرطية تربط بين طرفين: الأول: حكم الفاسقين للمجتمعات، والثاني: دمار المجتمعات وانهارها. وهذه السُنَّة من السُنن الجارية في مجتمع المستكبرين. قال -تعالى-: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]؛ أي إذا دنا

١ - الشريف الرضي: نهج البلاغة، ج ١، الخطبة ٥٦، ص ١٠٥.

وقت هلاك المجتمعات المستكبرة؛ نتيجة كفرانها بالنعمة، وطمغيانها بالمعصية، وإعراضها عن الهداية الإلهية، واستكبارها، جرت عليها سنة الإملاء والاستدراج، قال -تعالى-: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣]؛ و[آل عمران: ١٧٨]، حتى تسترسل في الطغيان والاستكبار، فيؤمر فيها الناسُ الفساقَ عليهم، وهم الذين إذا تولّوا سعوا في الأرض؛ فساداً وإهلاكاً للحرث والنسل: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٥-٢٠٦]؛ فعندها يحقُّ القول على هذه المجتمعات المستكبرة وينزل عليها العذاب^(١).

ونزول هذا العذاب إمّا بالأسباب التكوينية، كالذي جرى على الأمم الغابرة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، و... وإمّا بأيدي عباد الله تعالى المستضعفين: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤-١٥]؛ كما في المؤمنين بالنبي محمد ﷺ في زمنه؛ بنصرهم على المشركين واليهود. ونزول العذاب الإلهي بأيدي المؤمنين المستضعفين، يكشف عن صلاح الأمة وقوتها وتشريفها الإلهي؛ بأن بلغت من الكمال والافتقار؛ ما جعلها يد الله تعالى التي يطش بها!

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه السنة وكذلك السنن المسيبة لوقوعها، كسنة الإمهال والاستدراج، قد تكون حاکمة في الجريان أيضاً على سنن أخرى، كسنة النصر، فتتحقق شروط النصر، ولكن لا تجري سنته في أمة مؤمنة في زمان ما؛ بفعل اختبارها وامتحانها من جهة (جريان سنة الابتلاء والامتحان)، وإمهال الأمة الظالمة المستكبرة واستدراجها إلى هلاكها وزوالها (جريان سنة انهيار المجتمعات بحكم الفاسقين).

١ - انظر: محمد حسين الطباطبائي: الميزان، ج ١٣، ص ٥٩-٦٠.

٨. سُنَّةُ آجَالِ الْأُمَمِ:

يَبِينُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَجُودَ آجَالٍ لِلْأُمَّمِ، فَضْلاً عَنْ وَجُودِ آجَالٍ لِأَفْرَادِهَا. وَهَذِهِ سُنَّةٌ إِلَهِيَّةٌ حَتْمِيَّةٌ لَا تَقْبَلُ التَّغْيِيرَ وَلَا التَّبْدِيلَ. قَالَ -تَعَالَى-: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩؛ و[الأعراف: ٣٤]؛ حَيْثُ أُضِيفَ الْأَجْلُ إِلَى الْأُمَّةِ؛ أَي إِلَى الْوُجُودِ الْمَجْمُوعِيِّ لِلنَّاسِ، لَا إِلَى هَذَا الْفَرْدِ بِالذَّاتِ، أَوْ هَذَا الْفَرْدِ بِالذَّاتِ. وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ وَرَاءَ الْأَجْلِ الْمَحْدُودِ الْمَحْتَمِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ بِوَصْفِهِ الْفَرْدِيِّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥؛ و[الرحمن: ٢٦-٢٧]، أَجَلٌ آخَرٌ وَمِيقَاتٌ آخَرٌ لِلْوُجُودِ الْاجْتِمَاعِيِّ لَهُؤُلَاءِ الْأَفْرَادِ الَّذِي يَعْبَرُ عَنْهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالْأُمَّةِ، فَلهَذَا الْمَجْتَمَعِ وَلِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَجَلٌ وَمَوْتٌ وَحَيَاةٌ وَحَرَكَةٌ، كَمَا أَنَّ لِلْفَرْدِ أَجْلاً وَمَوْتاً وَحَيَاةً وَحَرَكَةً، وَكَمَا أَنَّ الْفَرْدَ يَتَحَرَّكُ فَيَكُونُ حَيًّا ثُمَّ يَمُوتُ، كَذَلِكَ الْأُمَّةُ تَكُونُ حَيَّةً ثُمَّ تَمُوتُ، وَكَمَا أَنَّ مَوْتَ الْفَرْدِ يَخْضَعُ لِأَجْلِ وَلِقَانُونَ وَلِنَامُوسٍ، كَذَلِكَ الْأُمَّةُ لَهَا آجَالُهَا الْمَضْبُوطَةُ، وَهُنَاكَ نَوَامِيسٌ وَقَوَانِينٌ تَحَدِّدُ لِكُلِّ أُمَّةٍ هَذَا الْأَجْلَ. فَلِلتَّارِيخِ سُنَنٌ تَتَحَكَّمُ بِهِ وَرَاءَ السُّنَنِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي تَتَحَكَّمُ فِي الْأَفْرَادِ، بِهَوِيَّاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ، قَالَ -تَعَالَى-: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ * مَا نَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ٤-٥؛ و[المؤمنون: ٤٣؛ الأعراف: ١٨٥]. وَالْأَجْلُ الَّذِي يُتَرَقَّبُ أَنْ يَكُونَ قَرِيْباً أَوْ يَهْدَدُ هُوَ لَاءِ بَأَنَّ يَكُونُ قَرِيْباً هُوَ الْأَجْلُ الْجَمَاعِيِّ، لَا الْأَجْلُ الْفَرْدِيِّ؛ لِأَنَّ قَوْمًا بِمَجْمُوعِهِمْ لَا يَمُوتُونَ عَادَةً فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ؛ وَإِنَّمَا الْجَمَاعَةُ بِوُجُودِهَا الْمَعْنَوِيِّ الْكُلِّيِّ هُوَ الَّذِي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُ. فَالْأَجْلُ الْجَمَاعِيُّ -هنا- يَعْبَرُ عَنْ حَالَةٍ قَائِمَةٍ بِالْجَمَاعَةِ، لَا عَنْ حَالَةٍ قَائِمَةٍ بِهَذَا الْفَرْدِ أَوْ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّاسَ عَادَةً تَخْتَلِفُ آجَالُهُمْ حِينَمَا نَنْظُرُ إِلَيْهَا بِالْمَنْظَرِ الْفَرْدِيِّ، لَكِنْ حِينَمَا نَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِالْمَنْظَرِ الْاجْتِمَاعِيِّ؛ بِوَصْفِهِمْ مَجْمُوعَةً وَاحِدَةً مُتَفَاعِلَةً؛ فِي ظَلْمِهَا وَعَدْلِهَا، فِي سَرَائِهَا وَضَرَائِهَا، حِينَئِذٍ يَكُونُ لَهَا أَجَلٌ وَاحِدٌ. فَهَذَا الْأَجْلُ الْجَمَاعِيُّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ، إِنَّمَا هُوَ أَجْلُ الْأُمَّةِ. وَهَذَا الْأَجْلُ حَتْمِيٌّ لِلْأُمَّةِ الْمُسْتَكْبِرَةِ، وَكَذَلِكَ لِلْأُمَّةِ الْمَتَخَاذِلَةِ عَنِ الدَّفْعِ وَالْمَقَاوِمَةِ لِلْفَسَادِ وَالِاسْتِكْبَارِ^(١).

١ - انظر: محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنية، ص ٤٢-٤٣؛ ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٨، ص ١٠٤-١٠٥.

خاتمة:

لَمَّا كَانَ الصَّرَاعُ بَيْنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْمُسْتَكْبِرِينَ صِرَاعًا عَلَى امْتِدَادِ التَّارِيخِ وَالْوَاقِعِ الْإِنْسَانِيِّ، وَكَانَتْ حَرَكَةُ الْمَجْتَمَعِ مَحْكُومَةً بِسُنَنِ وَقَوَانِينٍ مَحْدَدَةٍ لَا تَبَدَّلُ وَلَا تَتَغَيَّرُ؛ فَقَدِ بَاتَ لَزَامًا فِي صِرَاعِ أَهْلِ الْحَقِّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مَعَ أَهْلِ الْبَاطِلِ الْمُسْتَكْبِرِينَ، أَنْ يَمْتَلِكَ أَهْلُ الْحَقِّ وَعِيًّا وَفَهْمًا سُنِّيًّا، لِتَشْكِيلِ فَهْمٍ دَقِيقٍ وَفَاعِلٍ لِلتَّارِيخِ وَالْوَاقِعِ وَاسْتِشْرَافِ الْمُسْتَقْبَلِ، وَالْإِنْتِقَالِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي مَوَاجَهَةِ عَدُوِّهِمُ الْمُسْتَكْبِرِ، وَإِدَارَةِ مَعْرَكَةِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالسَّيْرِ عَلَى هَدْيِ الْوَعْيِ السُّنِّيِّ نَحْوِ الْوَعْدِ الْإِلَهِيِّ الْحَتْمِيِّ لَهُمْ بِالْتَمَكِينِ فِي الْأَرْضِ وَوَرَاثَتِهَا.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، تونس، الدار التونسية، لا ط، ١٩٨٤ م.
- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، قم المقدّسة، مكتب الإعلام الإسلامي، لا ط، ١٤٠٤ هـ.ق.
- حسين الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، قم، طليعة النور؛ مطبعة سليمانزاده، ط ٢، ١٤٢٧ هـ.ق.
- الشريف الرضي: نهج البلاغة، شرح: محمد عبده، قم، دار الذخائر/ مطبعة النهضة، ط ١، ١٤١٢ هـ.ق/ ١٣٧٠ هـ.ش.
- ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، بيروت، دار الأميرة، ط ١، ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥ م.
- محمد باقر الصدر: المدرسة القرآنيّة، لا م، دار الكتاب الإسلامي، مطبعة ستار، ط ٢، ١٤٣٤ هـ.ق/ ٢٠١٣ م.
- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، قم، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين، لا ط، لا ت.
- الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحقّقين، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، ط ١، ١٤١٥ هـ.ق/ ١٩٩٥ م.
- محمد بن الحسن الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، طهران، مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٤٠٩ هـ.ق.
- حسن مصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، طهران، مؤسّسة الطباعة والنشر في وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط ١، ١٤١٧ هـ.ق.

الاستكبار في الرؤية القرآنية: البنية الدلالية وآليات الهيمنة على الوعي والمجتمع والمعيار

◆ سامر توفيق عجمي^(١)

■ خلاصة

يتناول هذا البحث مفهوم الاستكبار في الرؤية القرآنية بوصفه بنية معرفية-سلطوية تتجاوز كونه حالة نفسية أو خلقية فردية، ليتحوّل إلى نمط متكرّر في إنتاج الهيمنة وإعادة تشكيل الوعي والمجتمع والمعيار. وينطلق البحث من أنّ الخطاب القرآني يعرض الاستكبار باعتباره شبكة دلالية مترابطة تتداخل فيها مفاهيم: العلوّ، والطغيان، والبغي، والعتوّ، والظلم، والفساد، والمكر، والكيد... ضمن نسق واحد يؤسّس لتمرّكز الذات خارج المرجعية الحقّة المتعالية. ويعتمد البحث مقارنة تحليلية تستند إلى دراسة الحقول المفهومية للمفردات القرآنية وربطها بالبنية السياقية للقصص القرآني، بوصفها نموذجًا كاشفًا للأنماط المتكررة في الاجتماع الإنساني، لا مجرد سرد تاريخي. ومن خلال تحليل النماذج القرآنية، ولا سيّما النموذج الفرعوني، يكشف البحث عن الأبعاد المعرفية والسياسية والنفسية للاستكبار، من خلال دراسة آليات مثل: الجحود، والتكذيب، والاستبداد المعرفي، والاستخفاف بالوعي المجتمعي، وسياسات التفكيك، والعنف، وصناعة الخوف، وتوجيه الرغبة نحو النمط المادي للحياة، بما يؤدي إلى اختلال النظام المعرفي والقيمي والاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: الاستكبار، القرآن، (فرعون)، (عاد)، السلطة، الهيمنة، الوعي، المجتمع، المعيار.

١ - كاتب وباحث في الدراسات القرآنية.



Arrogance in the Qur'anic Vision

Semantic Structure, Mechanisms of Domination over Consciousness, Society, Standard

◆ **Samer Tawfiq Ajami**

Writer, researcher in Qur'anic studies.

■ Abstract

This research examines the concept of "arrogance" in the Qur'anic perspective as a cognitive and authoritarian structure that transcends the boundaries of individual psychological or moral states, becoming a recurring pattern in the production of hegemony and the reshaping of consciousness, society, and values. It begins with the premise that the Qur'anic discourse presents arrogance as an interconnected semantic network, in which concepts of superiority, tyranny, transgression, arrogance, injustice, corruption, deceit, and treachery intertwine within a single framework that establishes a self-centeredness detached from the true, transcendent authority.

The research adopts an analytical approach based on studying the conceptual fields of Qur'anic vocabulary and linking them to the contextual structure of Qur'anic narratives, which serve as a revealing model of human social patterns, not merely a historical account. By analyzing Qur'anic models, particularly the Pharaonic model, the research reveals the cognitive, political, and psychological dimensions of arrogance, through studying mechanisms such as denial, rejection, cognitive tyranny, belittling societal awareness, policies of dismantling, violence, manufacturing fear, and directing desire towards the materialistic lifestyle, which leads to a disruption of the cognitive, moral, and social system.

Keywords:

Arrogance, the Qur'an, Pharaoh, Ad, Power, Hegemony, Awareness, Society, Standard.

مقدمة

يبدأ حضور مفهوم الاستكبار في القصة القرآنية من لحظة تأسيسية مع نموذج (إبليس)؛ حيث يظهر الاستكبار بوصفه تحوُّلاً من الاعتراف بالمرجعية الإلهية إلى إنتاج منطق بديل يقوم على مركزية الذات والتفوق المتوهَّم على أساس الأصل المادي (النار/الطين)، بما يكشف أنَّ الاستكبار لا يتمثل في مجرد تمرّد على المرجعية العليا بل في بناء خطاب تبريري يعيد تشكيل الفكرة وفق منطق الامتياز الذاتي.

ومع انتقال الخطاب القرآني إلى عرض النماذج التاريخية للأمم، يتَّسع مفهوم الاستكبار ليغدو ممارسةً سلطويةً مركّبة، كما يظهر في سلوك النخب الحاكمة (عاد، وشمود، وفرعون...)، تعمل على إنتاج آليات هيمنة تتغذّى بجملة محاور متداخلة، من أبرزها: محور معرفي يقوم على رفض الحقيقة حين تتعارض مع البنية الاستكبارية، ومحور سلطوي يتمثل في احتكار القوة وإعادة إنتاج التفوق عبر أدوات مادية ورمزية، ومحور خُلقي يظهر في تآكل المعيار، بحيث يجعل الإنسان من ذاته مركزاً مرجعياً مستقلاً، ومحور اجتماعي من خلال قمع الأصوات المعارضة واستضعاف الفئات المؤمنة بالتحوُّل.

أولاً: الإطار المنهجي لفهم القصص القرآني: من السرد التاريخي إلى النموذج التحليلي

يؤسّس الخطاب القرآني قاعدةً معرفية مفادها أنَّ القصص القرآني لا يُقدّم بوصفه سرداً تاريخياً مستقلاً، بل بوصفه أداةً هدايةً ضمن مشروع يهدف إلى توجيه الوعي نحو إدراك مسارات الفعل

التاريخي. فالواقعة التاريخية في القرآن لا تُعرض باعتبارها حدثاً منغلِقاً في زمنه بل بنية دلالية تتجاوز خصوصية السياق، ما يمنحها قابلية التكرار والاشتغال في الزمن الإنساني.

ومن هنا، لا تنحصر وظيفة القصص في التوثيق بل تمتد إلى بناء إطار إدراكي يحوّل الحدث إلى عبرة، والتجربة إلى نمط قابل للفهم واستخراج القوانين السُنَّية، وهو ما يفسّر اقتران القصص بالتفكير والاعتبار في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله: ﴿فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وبذلك يعمل القصص القرآني على تحويل الوقائع الجزئية إلى أنماط كلية. فشخصيات ك (فرعون) و(قارون)، وأقوام ك (عاد) و(ثمود)، لا تُطرح بوصفها شخصيات وأقوام تاريخية فحسب بل نماذج رمزية تجسّد أنماطاً قابلة للتكرار في بنى السلطة والهيمنة، وإعادة تشكيل الوعي والمجتمع.

وعليه، فإنّ استدعاء هذه النماذج لا يهدف إلى حصرها في سياقها التاريخي بل إلى توظيفها بوصفها أدوات تحليلية لفهم البنى المعرفية، والاجتماعية، والسياسية، المتجددة كلما تكررت الخصائص ذاتها.

ثانياً: الشبكة الدلالية لمفردة الاستكبار في الحقل المعجمي القرآني

تقوم البنية اللغوية العربية على ثراء يجعل المفردة فضاءً من العلاقات الدلالية المتداخلة، لا وحدة مغلقة المعنى؛ إذ تتحرك داخل شبكة من الترادف، والتضمّن، والتلازم، والاختلاف، ما يتيح تشكّل حقل مفهومي يتجاوز حدود المعجم اللغوي المباشر. ومن ثمّ، فإنّ فهم المفردة القرآنية يقتضي استنطاق امتداداتها السياقية، وربطها بالمفاهيم المجاورة داخل البنية النصّية القرآنية.

وانطلاقاً من ذلك، لا يمكن اختزال مفهوم الاستكبار في تعريف لغوي بل ينبغي قراءته ضمن شبكة دلالية تتقاطع فيها مفاهيم: العلوّ، والطغيان، والبغي، والعتوّ، والظلم، والفساد، والمكر،

والكيد؛ بوصفها مفردات تنظم داخل بنية واحدة تؤسس لمنطق الاستكبار في القرآن. ويتقاطع الاستكبار مع مفهومي الكبر والتكبر من حيث الأصل الدلالي، لكن لكل منها مستوى مختلفاً من التعيين المفهومي^(١). فالكبر يحيل إلى حالة نفسية قوامها تعاضم الذات، بينما يشير التكبر إلى التجلي السلوكي لهذه الحالة عبر رفض الحق والتعامل مع الآخر بمنطق الفوقية. أما الاستكبار فيتجاوز البعدين النفسي والسلوكي إلى إرادة إنتاج التفوق وتثيته في المجال الاجتماعي العام، ما يجعله مشروع تموضع يعيد تشكيل معيار الحق والقيمة انطلاقاً من مركزية الذات لا من مرجعية متجاوزة لها.

ويكشف الخطاب القرآني، في حديثه عن (عاد) و(ثمود)، أن الاستكبار لا يظهر بوصفه شعوراً فردياً فحسب، بل يتحوّل إلى خطاب قوّة يعيد تعريف الشرعية على أساس التفوق المادي. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]؛ حيث تنتقل القوّة من كونها أداة ضمن النظام القيمي إلى معيار يُعاد بناء الشرعية والحق على أساسه.

وفي هذا السياق، يقترن العلوّ بالاستكبار اقتراً بنبويّاً، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلِكِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٥-٤٦]؛ حيث يغدو العلوّ التجلي السلطوي للاستكبار حين ينتقل من البنية النفسية إلى بنية الهيمنة.

ويدلّ العلوّ في أصله اللغوي على الارتفاع مقابل السفل^(٢)، لكن الدلالة القرآنية تنقله من الوصف المحايد إلى التمرکز غير المشروع للذات حين تنفصل عن الحقّ. ومن هنا، يظهر الاستعلاء بوصفه ممارسة لإنتاج موقع سيادي يُعاد من خلاله تشكيل العلاقة مع الآخر وفق منطق التفوق والخضوع.

١ - انظر: الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، ص ٦٩٧؛ محمد بن مكرم: لسان العرب، ج ٥، ص ١٢٦.

٢ - الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج ٢، ص ٢٤٥؛ أحمد بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج ٤، ص ١١٢-١١٣.

ويبلغ هذا المسار ذروته في النموذج الفرعوني؛ حيث يتحوّل العلوّ من ادّعاء التفوّق إلى ادّعاء المرجعية المطلقة «الربوبية»، كما في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. وهنا لا تعود السلطة مجرد إدارة للمجال السياسي والاجتماعي بل تصبح محاولة لإعادة صياغة الوعي والمرجعية معاً، عبر إدخال البُعد الإلهي ضمن منطق الهيمنة البشرية.

وهنا، يتحوّل العلوّ إلى ممارسة تعيد تشكيل البنية الاجتماعية ذاتها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]؛ حيث يرتبط العلوّ بسياسات التفكيك والاستضعاف وشرعنة العنف والاستعباد، ما يضمن إعادة إنتاج الهيمنة واستمرارية السيطرة.

ومن هذا المستوى، يتخذ الاستكبار بُعداً اجتماعياً-نفسياً عبر آلية التوهين؛ إذ لا يكفي برفض الحقّ بل يعيد تشكيل صورة الآخر بما يبرّر هذا الرفض. فالآخر لا يُواجه بوصفه حاملاً محتملاً للحقيقة بل يُعاد إنتاجه داخل الوعي السلطوي باعتباره أدنى قيمة، ما يسمح بتحويل الاختلاف من مجال معرفي إلى تفاوتٍ طبقي في المنزلة. ويتجلّى هذا المعنى في النموذج الفرعوني؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٢]؛ حيث لا يقوم الخطاب على الحجاج أو البرهنة بل على إعادة ترميز الآخر داخل المخيال الجمعي بوصفه «مهيناً» فاقدًا للقيمة، ومن ثمّ تحويله إلى موضوع للدونية بدل كونه طرفاً في نقاش الحقيقة.

ويتقدّم مفهوم الطغيان بوصفه انتقالاً في منطق التمرکز من مستوى الادعاء إلى مستوى اختراق الحدّ نفسه وتجاوزه^(١)؛ إذ لا يعود الأمر مجرد تفوّق متوهّم بل تجاوزٌ منهجي لمعيار

١ - أحمد بن محمد: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ج ٢، ص ٣٧٣؛ الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، ص ٥٢٠.

الضبط الإلهي. ويتجلى ذلك في قوله تعالى لموسى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]، حيث يغدو الطغيان تحوُّلاً في طبيعة السلطة من وظيفة محدودة إلى بنية تتجاوز حدودها في الحكم والإنسان.

ويظهر هذا المنحى أيضاً في توصيف ثمود: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس: ١١]؛ حيث لا يفهم التكذيب بوصفه موقفاً معرفياً مستقلاً بل أثراً داخلياً لبنية طغيان سابقة، تُنتج إنكار الحقيقة بوصفه آلية من آلياتها. وبذلك يغدو الطغيان تكتيفاً سلوكياً للاستكبار، حين يتحوّل تعاضم الذات إلى خرق فعلي للحدِّ وتجاوزاً له، بحيث يصبح رفض الحق نتيجةً لازمة لبنية تمركز مغلقة حول الذات.

وعلى امتداد هذا المسار، يتميِّز البغي^(١) عن الطغيان لا في أصل التجاوز بل في كَيْفِيَّتِهِ واتجاهه؛ إذ يتخذ شكل انحرافٍ مقصود وواعٍ داخل مسار الانحراف يعيد تشكيل الميزان نفسه بدل الاكتفاء بالخروج عليه. فهو إفراطٌ موجّه، إمّا في الكمّ عبر تجاوز المقدار، وإمّا في الكيف عبر تشويه طبيعة الفعل، ما يحوّل العدل إلى اعتداء، والحكم إلى أداة مفرّغة من غايته الخلقية. يتجسّد هذا المعنى في نموذج قارون: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مَوْسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاحَهُ لَتَنْوَّهُ بِالْعُسْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]؛ حيث لا يكمن البغي في امتلاك الثروة أو في المال ذاته بل في إعادة توظيفه بوصفه معياراً للتفاضل وأداة للهيمنة، ما يعيد صياغة العلاقة داخل الجماعة على أساس الاستعلاء الطبقي.

واستمراراً لهذا المسار الذي يتدرّج فيه التمركز الذاتي من خرق الحدِّ إلى إعادة تشكيله، يتكتفّ المفهوم في «العتوّ»^(٢) بوصفه تجاوزاً للحدِّ مقترناً ببنية داخلية من الاستكبار والاستعلاء؛

١ - أحمد ابن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ٢٧٢؛ إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، ج ٦، ص ٢٢٨١.

٢ - الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج ٢، ص ٢٢٦؛ الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، ص ٥٤٦؛ محمد بن مكرم: لسان العرب، ج ١٥، ص ٢٨.

بحيث لا يكون مجرد خروج عن الطاعة بل خروجاً مؤسساً على إدراك ذاتي بالتفوق. ومن ثم لا يتحقق العتو إلا حين تقترن المخالفة برفض لمبدأ الامتثال ذاته، لا لقصور في المعرفة أو ضعف في الإرادة بل لاعتقاد ضمني بعدم أهلية المرجعية للإلزام، فتنقل الذات من موقع المكلف إلى موقع المعارض على أصل التكليف.

وفي هذا المستوى، يقدم الخطاب القرآني العتو بوصفه طوراً متقدماً يتجاوز فيه الاستكبار حدود الرفض الظاهر إلى تصلب داخلي يُعيد تعريف العلاقة مع الحق على أساس الإنكار رغم قيام الحجة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]. ويتجلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الذاريات: ٤٤].

﴿وَكَايِنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾ [الطلاق: ٨].

حيث لا يظهر العتو بوصفه فعلاً منفصلاً بل حالة بنيوية من الإباء المتجدر، تترجم تمرکز الذات إلى رفض مغلق لكل مرجعية تتجاوزها.

ويرد مفهوم الظلم بوصفه اختلالاً في موضع الشيء ومعياره^(١)؛ أي خروجاً عن مقتضى العدل في العلاقة بالله والنفس والآخر، وهي مستويات مترابطة في البنية القرآنية للفعل. ومن ثم، يُقدّم الظلم باعتباره انحرافاً يمسّ نظام التوازن الذي تقوم عليه الحياة الإنسانية.

ويرتبط الظلم بالبغي بوصفهما تعبيرين عن تجاوز يخلّ بالميزان، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢]؛ حيث يمثل البغي صورة الظلم المتحركة في المجال الاجتماعي. ولهذا، يتجاوز الظلم حدود الفعل الفردي ليغدو بنية قابلة للتجدر داخل الاجتماع الإنساني، حتى تُنسب إلى القرى ذاتها،

١ - إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، ج ٥، ص ١٩٧٧؛ الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، ص ٥٣٧.

كما في قوله تعالى: ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةُ الظَّالِمِ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٧٥]، وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الحج: ٤٥]، ما يكشف تحوُّله من سلوك فردي أو حاضنة لأفراد ظالمين إلى بنية مجتمعية- سلطوية منتجة للظلم وإعادة إنتاجه.

وعند اقتران الظلم بالسلطة، يتخذ طابعاً إقصائياً يعيد تشكيل المجال الاجتماعي على أساس الاحتكار، كما في قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذَنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]؛ حيث يصبح الظلم آلية لحصر المجال الرمزي وإقصاء الحق. ويبلغ هذا النمط ذروته في النموذج الفرعوني: ﴿إِنَّتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ١٠-١١]؛ حيث يتحوَّل الظلم إلى بنية مجتمعية متكاملة.

ومن هنا، يتقاطع الظلم مع الاستكبار بوصفه أثره الاجتماعي والسياسي؛ فحين يؤسِّس الاستكبار مركزية متعالية للذات، يتولَّى الظلم إعادة توزيع القوَّة خارج ميزان الحق والعدل، لتغدو الهيمنة نتيجة مباشرة لانفصال السلطة عن المرجعية القيمية العليا.

ويتقدَّم مفهوم الإجرام في القرآن بوصفه تجاوزاً عملياً لحدود الحق، وأصله في اللغة من القطع، ومنه سُمي الذنب جرماً وجريمة^(١)، لكنّه لا يظهر باعتباره فعلاً منفصلاً بل امتداداً داخل بنية الاستكبار نفسها. فحين ينغلق الوعي على مركزية ذاته ويستعلي على المرجعية الإلهية، يتحوَّل هذا الاستعلاء إلى قابلية دائمة لإنتاج الذنب باعتباره سلوكاً مألوفاً لا انحرافاً طارئاً، وهو ما يكشفه التلازم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفافات: ٣٤]؛ حيث يغدو الاستكبار خلفية تُنتج الإجرام بوصفه نتيجة طبيعية.

وتتويجاً لهذا المسار، يردّ مفهوم الفساد بوصفه اختلالاً يطال بنية الحياة ذاتها؛ إذ يدلّ

١ - أحمد بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ٤٤٥؛ إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، ج ٥، ص ١٨٨٥؛ الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، ص ١٩٢.

في أصله اللغوي على الخروج عن الاعتدال والصلاح^(١). لكن الدلالة القرآنية تنقله من مجرد الانحراف الخُلقي إلى نمط يعيد تشكيل الواقع خارج ميزان الصلاح والإصلاح، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]؛ حيث يتجاوز الفساد الفعل الفردي ليغدو آلية تقويض للبنية الاجتماعية والحيوية؛ فالحرث يشير إلى الإنتاج، والنسل إلى استمرارية الوجود، ما يكشف أن انفصال القوة عن القيم يحول القدرة إلى أداة لإعادة تشكيل الواقع بمنطق الهيمنة.

ويتأكد هذا المعنى في قول ملكة سبأ: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنَةً﴾ [النمل: ٣٤]؛ حيث يُقدّم الفساد بوصفه أثراً متكرراً وملازماً لتحوّل السلطة إلى أداة لإعادة ترتيب بنية المجتمع قسراً، بما يخلّ بتوازنه الداخلي.

ومن هنا، يُقدّم القرآن الفساد نتيجة نبوية ملازمة للطغيان أيضاً، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ * وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْعَالَمِ * فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾ [الفجر: ٦-١٢]. لتنشأ علاقة دائرية بين الطغيان والفساد؛ فالأول ينتج الثاني، بينما يعيد الثاني ترسيخ بنية الطغيان وتوسيعها. هنا، لا يعود الفساد أثراً جانبياً للهيمنة بل يتحوّل إلى سياسة لإدارة الاجتماع الإنساني وإعادة تشكيله وفق منطق الاستكبار.

ويبلغ هذا المسار ذروته في النموذج الفرعوني؛ حيث يكشف القرآن بنية تصاعديّة تبدأ برفض التزكية وتنتهي بادعاء المرجعية المطلقة "الربوبية": ﴿أذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنَا تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَحْتَنِي * فَأَرَاهُ الْكُفْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ١٧-٢٤]. رفض التزكية هنا ليس موقفاً خُلقياً مجرداً بل رفضاً لإخضاع الذات لمعيار متعالٍ متجاوز لها،

١ - الحسين بن محمد: المفردات في غريب القرآن، ص ٦٣٦؛ محمد بن مكرم: لسان العرب، ج ٣، ص ٣٣٦.

بما ينتهي إلى تمركزها بوصفها مرجعية عليا ومصدرًا للمعنى والطاعة. ويربط القرآن هذا الطغيان بحالة الاستغناء، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَىٰ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦-٧]، حيث لا ينشأ الطغيان من امتلاك القوة وحده بل من وهم الاكتفاء عن المرجعية والمعيار. ويكتمل البناء المفهومي للاستكبار بوصفه بنية إضافية لا يتحدد وجودها بذاتها بل بطبيعة العلاقة مع طرفٍ مقابل يتمثل في الآخر الأدنى "المهين" "الضعيف" الذي يُمارَس عليه فعل التسلُّط والهيمنة والاستعلاء من موقع القوة. وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ الخطاب القرآني يميِّز بين نمطين من "الضعف" في مقابل الاستكبار، هما: الضعفاء والمستضعفون.

يمثل الضعفاء الفئة التي اختارت الانخراط الطوعي أو شبه الطوعي في منظومة السلطة القائمة، بحيث يصبح ضعفها نتيجة لقرار بالاندماج في البنية الاستكبارية بدل مواجهتها. فهؤلاء لا يقفون في موقع الضحية الصرفة بل في موقع الشريك غير النقدي في إعادة إنتاج السلطة، سواء عبر التبعية الفكرية أم السياسية أم الاقتصادية أم غيرها. ويكشف القرآن هذا المعنى في مشهد التخاصم الأخرى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧].

في المقابل، يقدم القرآن نموذج "المستضعفين" بوصفهم فئة تقع تحت ضغط مباشر من البنية الاستكبارية، بحيث يُفرض عليهم موقع اجتماعي وسياسي واقتصادي قسري، يجعلهم في حالة مقاومة أو معاناة أو إقصاء. فهؤلاء لا يمثلون مجرد طرف ضعيف بل يمثلون موقعاً مفروضاً داخل منظومة القوة، يُعاد تشكيل وجودهم عبر أدوات القهر والتهميش والتنكيل. كما يبرز هذا البعد في قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَلَاحًا مُّرْسَلًا مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥].

يتبين من تحليل الشبكة الدلالية للمفاهيم القرآنية أن الاستكبار ليس صفة نفسية ولا سلوكاً فردياً بل هو بنية تبدأ من تمركز الذات خارج المرجعية الحقّة، ثمّ تتكثّف في صورة علوٍ واستعلاءٍ يعيد تشكيل معيار القيمة، وتنتقل إلى الطغيان والعتوّ بوصفهما تجاوزاً تدريجياً للحدّ، ثمّ تتجلّى في البغي والظلم باعتبارهما آليّتين لإعادة إنتاج ميزان القوّة داخل الاجتماع، والإجرام بوصفه امتداداً سلوكيّاً لهذا التمركز، وتصل إلى الفساد بوصفه الصورة الكليّة لاختلال النظام الوجودي، وصولاً إلى إنتاج فئة مقابلة هي الضعف/الاستضعاف بوصفه شرطاً بنيويّاً لاستمرار هذه العلاقة.

ثالثاً: الجحود الاستكباري: تعطيل الاعتراف بالحقيقة وإعادة تشكيل الطاعة

الجحود في أصل دلالاته اللغوية ينطوي على الإنكار عن معرفة. يقول (ابن فارس): «الجحود، وهو ضدّ الإقرار، ولا يكون إلّا مع علم الجاحد به أنّه صحيح»^(١). ويقول (ابن منظور): «الجحودُ الإنكارُ معَ العلم»^(٢).

وفي الخطاب القرآني يفتح الجحود على مستوى دلالي ينطوي على مفارقة بين ما يدرك في الوعي وما يُصرّح به في الموقف، فهو انفصال إرادي بين المعرفة والاعتراف. ويتعرّز هذا الفهم في التمييز بين التكذيب والجحود، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

هذه الآية تقرّر أنّ المشكلة ليست في صدق الرسالة من حيث الإدراك والمعرفة بل في الموقف منها من حيث إرادة الاعتراف بها. وهذا التفكيك يكشف أنّ الجحود هو فعل إرادي موجّه ضد ما هو معلوم، لا نتيجة لالتباس في المعرفة أو نقص فيها أو جهل بل انحراف في

١ - أحمد بن زكريا بن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ١، ص ٤٢٦.

٢ - محمد بن مكرم: لسان العرب، ج ٣، ص ١٠٦.

العلاقة مع الحقيقة؛ إذ تتحوّل من معطى مُلزم إلى موضوع قابل للإقصاء حين تتعارض مع مركزية الذات واستعلاتها.

وهذا ما يبرزه قوله تعالى عن (فرعون) وقومه: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ* فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ* وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٢-١٤].

تكشف هذه الآية عن بنية مركبة تتداخل فيها خمسة مفاهيم ضمن فضاء الاستكبار: الفسق، والجحود، والظلم، والعلو، ثمّ الفساد بوصفه مآلاً.

واللافت في الآية وصف الآيات بالـ (مُْبَصِرَةً)؛ أي أنّها تحمل قوّة كشف في ذاتها، فالجحود هنا لم ينشأ عن غياب الدليل بل عن حضوره في أعلى درجات الكشف ﴿وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾، فهو ليس إنكاراً ذهنياً للحقيقة بل رفض الاعتراف بها والخضوع لما تقتضيه، وإعادة ترميزها وأسطرتها بتوصيفها بأنّها «سحر مبین»؛ أي تحويلها من دليل عقلائي إلى شبهة أو خرافة داخل وعي الجماعة.

كما تظهر الآيات أنّ الجحود هو نتيجة مباشرة لاقتران عنصريّن: الظلم والعلو. فالظلم هنا بمعنى وضع الحقيقة في غير موضعها عبر تعطيل أثرها، بينما العلوّ يمثل البنية النفسية التي تسمح للذات بأن ترى نفسها فوق مقتضيات هذه الحقيقة.

وعند الانتقال إلى نموذج (عاد)، يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً... وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

لا يأتي الجحود بوصفه سبباً للاستكبار بل نتيجة له؛ إذ يبدأ المسار بالاستكبار -تمركز الذات على أساس القوة-، ثمّ الجحود باعتباره رفضاً للخضوع للحقيقة.

ويكتمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ كُرِّهْنَا عَادٍ... وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ

فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴿الأحقاف: ٢٦﴾.

حيث تتعطل أدوات الإدراك نفسها (السمع، والأبصار، والأفئدة)، لا لقصور فيزيولوجي فيها بل لأن الجحود بوصفه بنية استكبارية يقوم بتعطيل وظيفة هذه الأدوات في الوعي. وقوله تعالى: ﴿وَجْحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩] يوضح أن هناك ترابطاً بين: الجحود الاستكباري، ثم العصيان، ثم الاتباع البديل. إن الجحود لا يتوقف عند إنكار الحقيقة بل يتجاوز ذلك إلى تشكيل بنية الامتثال نفسها؛ بإعادة توجيه الطاعة نحو سلطة أخرى تؤسس معيارها الخاص خارج مرجعية الحق. هذه السلطة البديلة تنتسب إلى «الجبَّار» «العنيد». فعبارة «الجبَّار» تدل على من يُشكّل علاقته بالآخرين على أساس القهر والإكراه ونفي استقلالهم وردّهم إلى إرادته الخاصة المتعالية عن الحق. ولذلك يرتبط وصف الجبار في الاستعمال القرآني بالتكبر، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]. أما «العنيد»، فيشير إلى حالة من الإصرار الواعي على معاندة الحق بعد ظهوره. فهو يتضمّن بعداً إرادياً يقوم على الامتناع المقصود عن الانقياد، لا لغياب الحجّة، بل رفضاً لمقتضاها، ما يجعل العناد امتداداً إرادياً للجحود الاستكباري.

رابعاً: التكذيب الاستكباري: من إنكار الحقيقة إلى الهيمنة على المعنى وإنتاج الخطاب المضادّ

يتجاوز التكذيب مع الاستكبار لا على سبيل الترتيب اللغوي بل بوصفه نتيجة داخلية له، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ [الأعراف: ٤٠]. الكذب في سياق الاستكبار آليّة لإعادة تشكّل العلاقة مع الحقيقة وفق مقتضيات التمركز الذاتي بوصفه أثراً لازماً لبنية استكبارية تسبق المعرفة وتؤطرها. ويتأكد هذا المعنى حين

يُعرض التّكذيب بوصفه سمة نمطية متكرّرة في تاريخ الجماعات المستكبرة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ﴾ [ص: ١٢-١٤].

وفي النموذج الفرعوني، يتكثّف هذا المسار؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾ [طه: ٥٦]. إنّ التعبير بـ﴿آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾ يدلّ على استيفاء الحجّة من جميع وجوهها، ما ينفي أي احتمال لقصور في البيان أو غموض في الدلالة. ومع ذلك، جاء الموقف في صيغة مزدوجة: تكذيب وإباء. فالتكذيب يمثل إنكاراً على مستوى الخطاب، بينما الإباء يمثل رفضاً على مستوى الإرادة.

فالتكذيب الاستكباري ليس مجرد انحراف خُلقي بل آلية سياسية لإدارة الحقيقة؛ إذ لا يكتفي المُستكبر برفض ما هو قائم بل يعمل على بناء سردية بديلة وخطاب مضاد للحقيقة، ليبطل فاعليتها داخل الوعي الاجتماعي، يضمن استمرار موقعه في السلطة.

خامساً: الاستبداد المعرفي: من احتكار الرؤية إلى السيطرة على شروط

إدراك الحقيقة ذاتها

يتجلّى الاستبداد المعرفي في سياق الاستكبار بوصفه انتقالاً من مجرد رفض الحقيقة إلى التحكم في شروط إدراكها ذاتها؛ حيث لا يعود الصراع مع الحقّ قائماً على إنكاره فحسب، بل على احتكار أفق الرؤية الذي يدرك من خلاله. ويعرض الخطاب القرآني هذه البنية في السياق الفرعوني: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٧-٢٩].

وفي مقابل خطاب البيّنات الذي يطرحه مؤمن من آل فرعون، لا يناقش (فرعون) الدليل

أصلاً بل يعيد تأسيس أفق الإدراك نفسه؛ فقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ لا يُعْهَم بوصفه إبداء رأي، بل مصادرةً مسبقةً لإمكانية الرؤية خارج الذات المتسلطة؛ أي احتكاراً لشرط الرؤية والإدراك ذاته، وتحويل السلطة إلى معيار واحد لما يمكن أن يرى أو يفكر فيه.

ثم يتعمق هذا الاحتكار في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾؛ حيث لا يكتفي الخطاب باحتكار الرؤية بل يمتد إلى احتكار معيار الهداية ذاته، فتغدو السلطة هي التي تحدّد ما هو "هداية ورشاد"، وما هو "ضلال". وهكذا ينتقل الاستبداد من مستوى الرؤية إلى مستوى المعيار. وهنا يتحوّل الاستكبار إلى بنية إستيمولوجية مغلقة تؤسّس لما يمكن تسميته بـ «الاستبداد المعرفي»؛ حيث تُلغى المسافة بين السلطة والحقيقة، فلا تُنكر الحقيقة فقط، بل يُعاد تعريفها داخل خطاب السلطة عبر التحكم في شروط ظهورها. ومن ثمّ، لا يفرض هذا النمط رأياً بالقوّة فحسب، بل ينتج وعياً لا يرى إلا ما يُسمح له برؤيته، بما يؤسّس لـ «الاستضعاف الإدراكي» القائم على تعطيل القدرة على التفكير المستقلّ وتحويل الإنسان من فاعل معرفي إلى متلقٍّ مدار إدراكه سابقاً.

وبذلك لا يعود الخلاف في مستوى الموقف أو الرأي، بل يتجدّد في بنية تعريف الواقع نفسه؛ فحين يحتكر فرعون أفق الرؤية ويصادر معيار الهداية، يغدو هو المرجع الوحيد لتحديد معنى الصلاح والفساد. ومن هنا لا يبدو طلب قتل موسى (عليه السلام) فعلاً خارج منطق النظام بل إجراءً وقائياً داخله؛ لأنّ أي اختلاف عن هذا الأفق يُعاد تأويله بوصفه تهديداً لبنية الوجود الاجتماعي: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

وبهذا يتقلب ميزان القيم انقلاباً كلياً، فالمفسد الحقيقي يُعاد تعريفه بوصفه مُصلحاً للنظام، والمُصلح يُعاد خطراً على النسق. إنّها لحظة اكتمال الاستكبار بوصفه هندسة للوعي، لا تكتفي بحجب الحقيقة بل تعيد إنتاجها من داخل خطاب السلطة نفسه عبر التحكم في شروط إدراكها ومعايير الحكم عليها.

سادساً: الاستخفاف بالوعي المجتمعي العام بوصفه آلية لإنتاج الطاعة والخضوع

يكشف الخطاب القرآني في قوله تعالى عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤] عن نمط آخر من آليات إدارة العقول، وهو "الاستخفاف"؛ حيث يظهر هنا لا باعتباره مجرد استهانة اجتماعية^(١) بل عملية تفرغ الوعي من ثقله المعرفي ومن قدرته على الحكم النقدي^(٢). ما يجعل المجتمع الذي يُستخف به قابلاً للتوجيه دون مقاومة إدراكية.

وتكشف الآية عن ترابط سببي بين الاستخفاف والطاعة؛ إذ لا تظهر الطاعة نتيجة إكراه خارجي مباشر بل نتيجة انحدار داخلي في مستوى الوعي. فحين يفقد الإنسان قدرته على التمييز، تتحوّل الطاعة إلى انقياد معرفي قبل أن تكون انقياداً سلوكياً؛ إذ كلما انخفض مستوى الوعي النقدي داخل المجتمع، ارتفعت قابليته للانقياد؛ لأنّ القدرة على مقاومة القوّة قد جرى تفكيكها من داخل بنية الوعي. وبذلك يصبح التجهيل ليس غياباً للمعرفة بل إعادة تنظيم لها بطريقة تمنع تحوّلها إلى وعي مقاوم.

سابعاً: المكر الاستكباري: إدارة خفية لمنطق الصراع مع الحقّ

يرتبط المكر في أصله اللغوي بالتدبير الخفي والاحتيال والخديعة^(٣)، ويظهر في الخطاب القرآني ضمن بنية الاستكبار: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ﴾ [فاطر: ٤٣]، بوصفه آلية لإدارة الصراع مع الحقّ في مستواه غير المرئي. فحين تعجز السلطة المُستكبرة عن تثبيت

١ - إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، ج ٦، ص ٢٢١٨؛ محمد بن مكرم: لسان العرب، ج ١٣، ص ٤٣٨.

٢ - حسن المصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٣، ص ٩٤.

٣ - أحمد بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ٣٤٥.

هيمنتها بالمواجهة الصريحة، تنتقل إلى مستوى أكثر تعقيداً، يقوم على الالتفاف على الحقيقة وإعادة توجيه المجال الاجتماعي من داخل البنية الخفية للوعي والحركة.

وفي قول نوح عليه السلام: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾ [نوح: ٢٢]، يظهر المكر بوصفه نظام تخطيط وتنظيم **﴿كَبِيرًا﴾**. ويتعزّز هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرِيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾؛ حيث يتخذ المكر طابعاً مؤسسياً مرتبطاً بالبنية القيادية داخل المجتمع؛ فـ **﴿أَكَابِرَ﴾** لا يمثلون أفراداً فقط بل مواقع سلطة تدير المكر بوصفه أداة لإعادة إنتاج الهيمنة وضبط مسارات القبول والرفض داخل الجماعة.

لكن الخطاب القرآني يكشف أيضاً عن سُنن تحكم مآل هذه البنية، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣]؛ إذ يحمل المكر في داخله بذرة ارتداده؛ لأنّ محاولة إعادة تشكيل الواقع خارج ميزان الحق تؤدي في النهاية إلى تفكيك البنية التي يقوم عليها. وبذلك، لا يقتصر الصراع مع الاستكبار على مواجهة القوة الظاهرة بل يمتد إلى كشف البنية الخفية التي تديرها.

ثامناً: الكيد الاستكباري: من التدبير الخفي إلى الاجتهاد المكثف في المواجهة

يتخذ الكيد داخل بنية الاستكبار موقعاً أكثر تركيباً من المكر؛ إذ يدلّ في أصله اللغوي، كما يقول (ابن فارس)، على "معالجة لشيء بشدة"^(١)، بينما وسّعه (ابن منظور) ليشمل: "الخبث والمكر... والاحتيال والاجتهاد"^(٢). ومن ثمّ، فالكيد لا يقتصر على الخداع بل يتضمن فعلاً منظماً قائماً على التخطيط والجهد لتحقيق غاية محددة.

ويظهر هذا التحول في السياق الفرعوني: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ

١ - أحمد بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، ج ٥، ص ١٤٩.

٢ - محمد بن مكرم: لسان العرب، ج ٣، ص ٣٨٣.

* إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿غافر: ٢٣-٢٥﴾؛ حيث ينتقل الصراع من التكذيب الخطابي ﴿سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ إلى المعالجة القمعية للواقع عبر العنف وإعادة تشكيل البنية الاجتماعية لمنع الحقيقة من التحول إلى قوَّة فاعلة. ويتعمق هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا... وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا... وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

ويبلغ الكيد ذروته حين يتحوَّل إلى فعل جماعي منظم، كما في مشهد السحرة:

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٦٠].

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٤].

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى... فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى...﴾ [النازعات: ١٧-٢٣].

حيث يظهر الكيد بوصفه نظامًا متكاملًا لإدارة المواجهة مع الحقيقة، يجمع بين التخطيط والحشد والتوجيه وإنتاج التأثير الجماعي.

لكن الخطاب القرآني يكشف في الوقت ذاته عن ضعف هذه البنية؛ إذ يختزلها إلى:

﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ يقوم على التخيل لا الحقيقة، ولذلك رغم قوَّته الظاهرة يحمل الكيد في داخله بذرة فشله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]، ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٧].

تاسعًا: سياسة تفكيك المجتمع وإدارة الانقسام في مشروع الهيمنة

تتجاوز سياسة «فرق تسد» في المنظار القرآني كونها تقنية حكم ظرفية، لتغدو بنية من بنى الاستكبار تقوم على إنتاج الانقسام داخل المجال الاجتماعي بوصفه شرطًا لاستمرار السيطرة. فالمستكبر لا يتعامل مع المجتمع بوصفه كتلة قابلة للإخضاع المباشر بل يعمل

على منع تشكّل هذه الكتلة أصلاً، عبر إعادة إنتاجها في صورة وحدات متجاوزة متنازعة. ويجسّد الخطاب القرآني هذا المنطق في وصف (فرعون): ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤]؛ حيث لا يفهم «جعلهم شيعاً» باعتباره إجراءً سياسياً خارجياً فحسب بل بنية حكم تُنتج التمايز الداخلي بوصفه آلية اشتغال للسلطة، بحيث تتحوّل الهويّات الجزئية إلى مرجع أوّلي للانتماء بدل الانتماء الكلّي الجامع.

ضمن هذا الإطار، ينقلب المجتمع من وحدة اجتماعية ذات مركز جامع إلى فضاء أفقي من التمايزات المتنازعة؛ حيث لا يعود الصراع موجّهاً نحو مركز الهيمنة بل يتوزّع داخل المجال الاجتماعي نفسه. وبذلك تُعاد صياغة الطاقة الاجتماعية من قوّة مواجهة إلى قوّة استنزاف داخلي. لكن هذه السياسة لا تقف عند حدّ التفكيك بل تتجاوزها إلى إدارة الانقسام. فالمستكبر لا يسعى إلى إنهاء التوتّرات الداخلية بل إلى تثبيتها ضمن مستوى مضبوط من التفاعل المستمر، ما يجعل الفتنة من حالة استثنائية إلى أداة تنظيم سياسي في مشروع الهيمنة. هنا تحديداً، يفقد المجتمع قدرته على إدراك مصدر التفكيك؛ إذ يشغل بصراعاته الداخلية عن البنية التي تنتجها، فتتحوّل المقاومة إلى حركة داخل المجال المفكك نفسه، بدل أن تتّجه نحو أصل التفكيك.

عاشراً: السيطرة الأمنية والعسكرية بوصفها بنية تشغيل لآليات الاستكبار وإدارة الخوف

يشكّل البعد الأمني والعسكري أحد أكثر المستويات وضوحاً في بنية الاستكبار كما يعرضها الخطاب القرآني. فحين تبلغ السلطة درجة من الانفصال عن القيم والمعايير التي تمنحها شرعية وجودها، تصبح في حاجة إلى منظومة مادية قاهرة تُعيد تثبيت حضورها داخل المجال الاجتماعي، لا عبر الإقناع أو القبول بل عبر العنف والخوف. ومن هنا، لا تُفهم الأجهزة الأمنية والعسكرية بوصفها مؤسّسات حيادية أو دفاعية بل امتداداً عضويّاً لبنية

الاستكبار يعيد تشكيل العلاقة بين السلطة والمجتمع على أساس القمع. ويقدم القرآن النموذج الفرعوني باعتباره تكثيفاً لهذا النمط؛ حيث يتكرر اقتران فرعون بجنوده في مواضع متعددة: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠]، ﴿وَأَسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٣٩]، ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ [القصص: ٤٠]، وهو اقتران لا تمكن قراءته إلا باعتباره دليلاً على أنّ السلطة في هذا النموذج لا تقوم بذاتها بل عبر جهاز قسري ملازم لها، بحيث يصبح الحاكم والقوة العسكرية كتلة واحدة في إنتاج الهيمنة. ضمن هذا الإطار، لا تعمل السيطرة الأمنية بصفقتها استجابة للتهديد بل آلية استباقية لإدارة المجتمع، عبر تحويله إلى فضاء مراقب تُضبط فيه الحركة قبل الفعل. ويظهر ذلك في رقابة تتجاوز القمع المباشر إلى ضبط ديموغرافي قائم على معرفة تفصيلية بالمجتمع، فاستهداف فئة محدّدة -الذكور من بني إسرائيل- لا يمكن أن يجري دون وجود بنية معلوماتية ترصد الولادات وتتابع تحولات المجتمع. هذا النمط من الاشتغال يكشف أن المعرفة الاستخباراتية في بنية الاستكبار موجّهة نحو السيطرة وتثبيت موقع السلطة. ويتجلّى هذا البُعد -أيضاً- في توصيف الحالة النفسية لموسى عليه السلام بعد خروجه من مصر: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، وهو توصيف لا يعكس حالة فردية معزولة بل يكشف عن بيئة اجتماعية مشبعة بالخوف. وفي المستوى التنفيذي، يصبح الجيش ذراعاً قمعية-وقائية لهذه المنظومة؛ حيث يتحوّل من مؤسسة يفترض أن تحمي المجتمع إلى أداة لحماية السلطة. ويظهر ذلك بوضوح في مشهد ملاحقة بني إسرائيل بعد خروجهم: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾. فالمجتمع في ظلّ هذه المنظومة لا يُقَمع فقط إذا تحرك بل يُمنع من التفكير في الحركة أصلاً؛ لأنّ شروط التفكير نفسها تُعاد صياغتها داخل بيئة مشبعة بالخوف. وبذلك، تتحوّل السيطرة الأمنية والعسكرية إلى نظام لإدارة الخوف الاجتماعي، لا مجرد أداة حكم عبر إعادة تشكيل الوعي ومنع أي بديل سياسي أو فكري.

حادي عشر: العنف بوصفه منطقاً لإنتاج الهيمنة في البنية الاستكبارية
لا يقدم الخطاب القرآني العنف بوصفه مجموعة أفعال متفرقة، كالقتل أو السجن أو التعذيب بل بوصفه بنية متكاملة داخل منظومة الاستكبار، تُستخدم لإعادة تشكيل الإنسان والواقع الاجتماعي. فالعنف هنا ليس نتيجة عرضية للسلطة بل أحد شروطها الداخلية.

ومن هنا، لا يفهم تنوع صور العنف في النموذج الفرعوني بوصفه تنوعاً في الوقائع بل تدرجاً وظيفياً داخل نظام واحد، يستهدف الزمن والجسد والمعنى والإرادة والمجتمع معاً، بحيث يتحوّل العنف من فعل قمع إلى منطق إنتاج للوجود السياسي ذاته.

في قوله تعالى: ﴿يُدْحِجُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] يتجاوز العنف مستوى الإبادة المباشرة إلى إعادة تشكيل الزمن الاجتماعي؛ فذبح الأبناء لا يعني قتل الحاضر فقط، بل تعطيل المستقبل ومنع الجماعة من إنتاج امتدادها التاريخي، أمّا استحياء النساء، فلا يفهم بوصفه نقيضاً للعنف، بل امتداداً له داخل تقسيم وظيفي لاستعباد المرأة؛ إذ يجري الإبقاء على حياتها في مستواها البيولوجي، مع فصلها عن الحرّية والكرامة.

وفي قوله: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [طه: ٧١] يتحوّل الجسد إلى خطاب سلطوي؛ فالتشويه لا يستهدف الإيلام وحده بل تحويل الجسد إلى علامة مرئية لإنتاج الخوف والطاعة داخل المجال العام.

وفي قوله: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] يظهر السجن بوصفه تعطيلاً للفاعلية الاجتماعية، لا مجرد حرمان من الحرّية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ [طه: ٧٣] يتجلّى مستوى أكثر تعقيداً من العنف؛ حيث لا يمارس على الجسد أو المعنى فقط، بل على الإرادة ذاتها. فالإنسان هنا يُجبر على الفعل، ثمّ يُنسب إليه الفعل بوصفه اختياراً. وهي صيغة قصوى من الهيمنة؛ حيث يُسلب الإنسان قدرته على الاختيار دون أن يُسلب منه تحميل نتيجة الاختيار.

ويبلغ هذا المسار ذروته في نموذج (عاد): ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]؛

حيث يتحوّل العنف إلى نمط وجود كامل، تُبنى عليه السلطة وتُعاد من خلاله صياغة الاجتماع الإنساني.

ثاني عشر: الاستكبار والإنسان المنشغل بالتملك: هندسة الرغبة وتعزيز نمط الحياة المادية

يتجاوز الاستكبار في المنظار القرآني مستوى السيطرة المعرفية والسياسية إلى بنية أعمق تتمثل في إعادة تشكيل الرغبات النفسية لإنسان، فهو لا يكتفي بإدارة الوعي وتوجيه السلوك بل يعيد تعريف معنى الحياة ذاته، من كونه انجذاباً فطرياً نحو الغاية الوجودية والقيم الإلهية إلى كونه سعيًا نحو الامتلاك والاستهلاك. وفي هذا السياق، يغدو تعظيم البعد المادي من نمط الحياة أحد أكثر أدوات الاستكبار فاعلية؛ لأنه يعمل داخل البنية النفسية للإنسان لا من خارجه. تقوم الحياة الإنسانية في أصلها على توازن دقيق بين البعد المادي والبعد المعنوي؛ فالجسد يطلب حاجاته المادية، بينما الروح تبحث عن المعنى، هذا التوازن هو أساس المعيار القيمي الذي يحدّد موقع الغاية من الوسيلة، وعندما تنقلب المادة من كونها وسيلة إلى كونها غاية يختلّ البناء الإنساني ويفقد توازنه.

هنا يقدم الخطاب القرآني معياراً تأسيسياً لهذا التوازن في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]؛ إذ لا تُبنى الحياة الطيبة على الوفرة المادية والثروة والتملك بل على انتظام الفعل داخل أفق الإيمان والصلاح. في المقابل، يؤدي تغليب البعد المادي إلى إنتاج نمط وجودي قائم على السعي غير المشبع؛ إذ تتحوّل الرغبة إلى حركة دائمة لا تستقر؛ لأنّ كل إشباع يولّد نقصاً جديداً، وكل امتلاك يعيد إنتاج الحاجة إليه. وهكذا يدخل الإنسان في دائرة قلق وجودي لا بسبب الفقر المادي بل لفقدان المعيار القيمي. ويعبر القرآن عن هذا التحوّل في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦]؛ حيث يجري استبدال أفق المعنى والغاية

الدائمة بأفق اللذة المؤقتة.

ويكشف النموذج الفرعوني هذا الانزياح حين يتحوّل الامتلاك إلى معيار للحق: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]؛ إذ يغدو الملك دليلاً على الشرعية.

أما النموذج الأبرز فهو (قارون)؛ حيث تتجسّد المادية في أعلى درجاتها؛ حيث تستبدل القيمة بالانبهار البصري بالزينة. يقول تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾. ويكشف التفاعل الاجتماعي: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ عن انقلاب في معيار الإدراك؛ حيث يغدو الامتلاك معيار التفوق، والزينة معيار الحظّ، والثروة معيار النجاح. وهنا يتحقّق أحد أعمق أهداف الاستكبار: إعادة تشكيل الإنسان بوصفه كائنًا يقيس العالم بالامتلاك لا بالمعنى.

في المقابل، يعيد الخطاب القرآني تأسيس معيار القيمة في قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٧٩-٨٠]، كاشفًا عن انفصال بين وعين، وعيٍ سطحي محكوم بالظاهر المادي، ووعيٍ تأسيسي يستند إلى المعنى.

ومن هنا، لا تبدو المادية في سياق الاستكبار مجرد خيار اقتصادي بل سياسة بنوية تعيد تشكيل الإنسان نفسه. فالإنسان المنشغل بالامتلاك، يفقد تدريجيًا قدرته على مقاومة البنى التي توجه رغبته؛ لأنّ الرغبة ذاتها تصبح جزءًا من منظومة السيطرة. وهنا لا يعود الاستكبار بحاجة إلى القهر المباشر بل يكفيه توجيه الرغبة؛ لأن من يملك الرغبة يملك الإنسان.

خاتمة

تُفضي نتائج هذا البحث إلى جملة من الملاحظات التي تتجاوز حدود الإطار التحليلي المباشر، لتكشف أنّ مقارنة الاستكبار في الرؤية القرآنية تُظهر أنّ هذه البنية أكثر تشعبًا من

أن تُحاصر داخل نموذج تفسيري واحد، ما يفرض إعادة التفكير في طبيعة المفهوم القرآني بوصفه بنية متحركة لا تعريفاً ثابتاً.

كما يبرز، من داخل التجربة البحثية ذاتها، أنّ تداخل المستويات المعرفية والسياسية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية في النص القرآني يجعل أي تحليل تفكيكي عرضةً لفقدان جزء من وحدة المعنى الكلي. وهذا يفتح إشكالاً منهجياً عن حدود الأدوات التحليلية المعاصرة في التعامل مع النصوص ذات البنية الكلية المركبة.

ويبدو من خلال هذا الاشتغال أنّ الحاجة ملحة إلى تطوير مقاربات تجمع بين التحليل الدلالي العميق والنمذجة البنوية للعلاقات القرآنية، بدل الاختصار على تفكيك المفردات بمعزل عن بنيتها الشبكية. كما تبرز ضرورة توسيع البحث المقارن بين أنماط الاستكبار في القرآن وتجلياتها في أنظمة المعرفة والسلطة الحديثة، بهدف الكشف عن استمرارية البنية لا مجرد اختلاف سياقاتها التاريخية.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- أحمد بن خليل الفراهيدي: كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، ط ٢، ١٤٠٩ هـ.
- أحمد بن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، قم، ١٤٠٤ هـ.
- أحمد بن محمد الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨ هـ.
- إسماعيل بن حماد الجوهري: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٤٠٧-١٩٨٧ م.
- حسن المصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، مؤسسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، ط ١، ١٤١٧ هـ.
- الحسين بن محمد: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، طليعة النور، ط ٢، ١٤٢٧ هـ.
- محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط ٢، ١٤١٧ هـ-١٩٩٧ م.

منهجية التعبير عن النقاط التربوية في القرآن الكريم سورة الحجرات أنموذجاً

◆ المترجم: د. محمد فراس الطباوي^(١) ◆ محمد علي محمدي^(٢) ◆ عرفان يوسف مقدم^(٣)

■ خلاصة

إنَّ الهدفَ الأسمى من نزول القرآن الكريم للعالم هو إرشاد الناس إلى طريق الحياة الصحيح، وبعبارة أخرى تربية الناس على الطريق القويم. يحاول البحث الحالي بيان أهم أشكال التعبير عن النقاط التربوية المُستخدمة في القرآن الكريم بالمنهج الوصفي التحليلي، وتقديم أمثلة عليها من سورة المباركة «الحجرات» التي تُعرف بالسورة الخُلقيّة التربويّة في القرآن الكريم، ليمكن الجمهور من التعرف على هذه الأساليب وتعبيرها القرآني بنحو أفضل. للقرآن الكريم عدّة أساليب للتعبير عن المفاهيم التربوية، أهمّها سبعة أساليب، وهي: ١. التذكير؛ ٢. الوعظ والمشورة؛ ٣. التشجيع والعقاب؛ ٤. تحفيز العواطف؛ ٥. الأمر والنهي؛ ٦. عرض القدوة الحسنة؛ و٧. رواية القصص. وقد عرضت هذه الأساليب الأنفة في البحث الحالي، مع التركيز على سورة الحجرات المباركة.

الكلمات المفتاحية: المفاهيم التربويّة، المنهجية، سورة الحجرات، التربية.

- ١ - طالب دكتوراه في علوم القرآن والحديث، جامعة العلامة الطباطبائي، طهران. إيران.
- ٢ - ماجستير في علوم القرآن والحديث، جامعة العلامة الطباطبائي، طهران. إيران.
- ٣ - دكتوراه في اللغة الفارسيّة وآدابها، مدرّس في جامعة دمشق، ترجمان محلف.



Methodology of Expressing Educational Points in the Holy Qur'an: "Al-Hujurat" as Model

◆ Erfan Yousefi Moghaddam

PhD candidate in Quranic and Hadith Studies, Allameh Tabataba'i University, Tehran, Iran.

◆ Mohammad Ali Mohammadi

Master's degree in Quranic and Hadith Studies, Allameh Tabataba'i University, Tehran, Iran.

◆ Translated by: Dr. Mohammad Firas al-Halbawi

PhD in Persian Language and Literature, Lecturer at Damascus University, certified translator.translator.

■ Abstract

The ultimate goal of the revelation of the Holy Qur'an is to guide people to the straight path of life and nurture them upon it. This research aims to elucidate the most prominent educational methods in the Holy Qur'an, using a descriptive-analytical approach, with a focus on Surah Al-Hujurat, which serves as a model for moral education. This will enable the reader to comprehend these methods and their Qur'anic manifestations. The research identifies seven main educational methods: reminding, admonition and counsel, encouragement and punishment, emotional stimulation, commanding and prohibiting, presenting a good example, and storytelling, illustrating these methods through their application to Surah Al-Hujurat.

Keywords:

Educational Concepts, Methodology, Surah Al-Hujurat, Education.

مقدمة

كان الهدف الأهم والرئيس من بعثة الأنبياء الإلهيين عليهم السلام عبر التاريخ هو إرسال الكتب المقدسة السماوية معهم لهداية الإنسان إلى الطريق الصحيح، وتربية الإنسان بناءً على المعطيات الوحيانية. وفي هذا السياق، قدّم القرآن الكريم، وهو آخر كتاب مقدّس، أشمل برنامج تربويّ للبشر حتّى يوم القيامة، لكي يهتدي الإنسان بتطبيق هذا البرنامج التربويّ إلى الهدف من خلقه. التربية هي ظهور عمل أو نشاط من جانب المربيّ للتأثير على المتربيّ. وقد ظهرت على مرّ التاريخ مدارس بشرية مختلفة في مجال التربية، وحاولت توجيه أسلوب حياة الإنسان نحو أهدافها. لكن جميع البرامج التي قدّمتها المدارس البشرية للإنسان كانت تعاني من نواقص، بعضها ظهر مع مرور الوقت، وبعضها سيظهر لاحقاً. في مجال التربية، يعدّ اتباع طريقة صحيحة ومثمرة أمراً مهمّاً وضرورياً؛ لأنّ الخطأ في اختيار الطريقة وتطبيقها يمكن أن يؤدّي إلى ضلال الأفراد وحتّى المجتمع وتدميرهم. لذلك، فإنّ معرفة أفضل الطرق التربوية وأكثرها فعالية والعمل على تطبيقها يعدّ أمراً ضرورياً. في كلّ زمان، كان الفرد يقترح أسلوب حياة على الناس بناءً على اعتقاداته الذهنية، وهكذا فقد نشأت المدارس الخلقية المختلفة، ولكن على عكس الممارسات البشرية الحالية، يمكن أن يكون المربيّ في هذه الحالة هو الله الذي يقدّم للبشر أسلوب الحياة الأمثل بواسطة الأنبياء الإلهيين عليهم السلام. ومن أفضل من الله الذي هو خالق الإنسان، وهو نفسه على دراية بجميع احتياجات البشر من الطفولة إلى الشيخوخة في الدنيا، واحتياجات البشر في العالم الآخر، وبالتالي يمكنه تقديم أفضل برنامج

للحياة؟! بناءً على ذلك، لقد صوّر الله أفضل دليل للحياة البشرية في أفضل قالب وهو القرآن الكريم، فما أجمل أن نلجأ إلى القرآن في هذا الأمر المهمّ ونبحث في هذا الموضوع في ضوء آياته النورانية؛ القرآن الذي يقدم نفسه بوصفه أسمى طريق لهداية البشر.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾ [الإسراء: ٩]. نبحث في هذه الدراسة عن الطرق المختلفة التي استخدمها القرآن لبيان نقاطه التربوية ونسعى لاكتشافها. ميزة هذا العمل هي أنه بعد تحديد هذه الطرق، يمكن للأفراد المختلفين استخدامها في أمور التربية المهمّة؛ التربية التي يقوم بها المربيّ (المعلّم، والوالدان، إلخ) للتأثير في المربيّ (الطالب، والابن، إلخ). يمكن القول: بما أنّ القرآن الكريم هو معجزة النبي الخاتم ﷺ وكلام الله الحكيم والقادر المطلق، فقد استخدم أفضل الطرق والمبادئ التربوية لهداية الأفراد وتربيتهم، وينبغي علينا أن نكون على دراية بها. في النهاية، تسعى الدراسة الحالية للإجابة عن هذا السؤال الرئيس: ما هي الطرق الأهم لبيان النقاط التربوية في سورة الحجرات؟ ما يميّز هذه الدراسة هو اكتشاف طرق بيان هذه النقاط في سورة الحجرات التي تُعرّف بسورة الأخلاق والتربية، لكي نتمكن من إظهار هذه المباحث النظرية عملياً في الآيات نفسها، أو بعبارة أفضل، ملاحظة هذه الطرق في آيات القرآن.

أولاً: الدراسات السابقة:

عبر تاريخ الإسلام، تناول الباحثون والمفسّرون في كتب وبحوث مختلفة مسألة التعبير عن النقاط التربوية المُستنبطة من القرآن، ومن هذه الأمثلة، فضلاً عن روايات المعصومين، يمكن الإشارة إلى تفاسير، مثل «أحسن الحديث» للسيد (علي أكبر قرشي)، و«أطيب البيان» للسيد (عبد الحسين طيب)، و«تفسير القرآن الكريم» (المنار في تفسير القرآن) لـ (محمد عبده) و(رشيد رضا)، و«رسالة القرآن» لـ (ناصر مكارم شيرازي)، و«من هدي القرآن» للسيد (محمد تقّي المدرّسي)، و«تفسير النور» للشيخ (محسن قراءتي). ومن الكتب التي تناولت

إلى حدّ ما طرق بيان النقاط التربويّة في القرآن يمكن الإشارة إلى العمل المكوّن من ثلاثة مجلّدات «طرق التربية في القرآن» الذي ألفه مجموعة من الباحثين. ومن الدراسات الأخرى التي تناولت هذا الموضوع المهمّ على هيئة مقالات يمكن الإشارة إلى ما يأتي: «مفهوم التربية في القرآن الكريم» لـ (أحمد زاده) (٢٠١٠م)؛ و«أساليب التعليم والتربية في القرآن الكريم وأهدافها» لـ (قائمي) (٢٠٠٤م)؛ و«عوامل التربية في القرآن الكريم برأي الأستاذ قراءتي في تفسير النور» لـ (بور موسوي) و(ناصر كرىموند) (٢٠٢٠م)؛ و«مقدّمة لأهداف التربية في القرآن ومبادئها وأساليبها» لـ (ملكي) (٢٠١١م). يمكن ملاحظة تميّز البحث الحالي في تناوله للموضوع من الجانب المنهجيّ وتطبيقه في سورة الحُجُرَات المباركة بوصفها سورة محوريّة للأخلاق.

ثانياً: مفهوم التربية

تعني التربية^(١) التنشئة والتطوير وتعليم الآداب والأخلاق لشخص ما، وبنحو عامّ تعني «التعليم والتربية»^(٢). يرى بعض اللغويين العرب أنّ بعض مشتقّات هذه الكلمة تأتي من الجذر «رَبَبَ»، بينما يرى بعض آخر أنّها في دراسات القرآن مشتقة من الجذر «رَبَوَ». ولكن بالنظر إلى الشكل الحالي لكلمة «تربية»، يمكن القول إنّها من الجذر «رَبَوَ» الذي جاء في صيغة باب التفعيل. وقد ذكر (الراغب) في المفردات: «الرب في الأصل التربية»^(٣). ومن ظاهر هذا الكلام يتّضح أنّ كلمة تربية مشتقة من الجذر «رَبَوَ»، ومن وجهة نظره، فإنّ «رَبَوَ» هو الجذر الأصليّ لهذه الكلمة. ومن بين الذين أشاروا إلى هذا الموضوع (ابن منظور): «تربية وارتبه

١ - يعرف مؤلّف المقال هنا مصطلح التربية في اللغة الفارسيّة وقد عربت ذلك بعموم المصطلح دون الإشارة إلى تخصيص ذلك باللغة الفارسيّة.

٢ - محمّد معين: فرهنگ فارسی [معجم الفارسيّة]، ج ١، ص ١٠٣٦.

٣ - الراغب الأصفهانيّ: غريب مفردات القرآن، ص ٣٣٦.

وربّاه تربية على تحويل التضعيف وتربّاه على تحويل التضعيف أيضاً^(١). وقد ذكر (الزبيدي) في تاج العروس هذا الموضوع بنحو آخر: «ربّ ولده والصبيّ يربّه ربّاً: ربّاه أيّ أحسن القيام عليه وتولّاه حتّى أدرك أيّ فارق الطفوليّة»^(٢). وقد ذكر (مصطفوي) في «التحقيق في كلمات القرآن» أنّه عندما تستخدم مادة «رَبَوَ» في تربية الإنسان، فإنّ المقصود هو النموّ والتطوّر والتربية البدنيّة والجسديّة والماديّة، على عكس التربية من الجَدَر «ربب» التي تعني التحرُّك نحو الكمال الرُّوحي. تربية الإنسان معقّدة، ولها أبعاد وآثار ولوازم كثيرة. ويبدو أنّ المعاني المتعدّدة - مثل الإصلاح، والتدبير الجيّد، والعناية، والتعديل، وإيجاد شيء وتطويره تدريجيّاً، والحفظ والرعاية، والملكيّة، وصاحب الولاية، والرعاية، والتغذية، والنموّ والتطوّر - التي نقلت للجذرين «ربب» و«ربو» هي من آثار التربية والسعي نحو الكمال ولوازمه^(٣). إذن، بنحو عام، التربية إذا كانت مشتقّة من الجذر «رَبَبَ» تأتي بمعاني الحضانة، والإصلاح، والتدبير الجيّد، والعناية، والإتمام والتكميل، وإيجاد شيء^(٤). وفي الحالة التي تكون فيها مشتقّة من الجذر «رَبَوَ» فقد فسّرت على النحو الآتي: الزيادة، والتغذية، والنمو والتطوّر، والارتفاع. يشير الجذر الثاني أكثر إلى الجانب الجسديّ للتربيّة، ويشير الجذر الأوّل أكثر إلى الجوانب التربويّة الأخرى^(٥). ولكن ما يُدرس في هذا البحث هو أساليب التربية. وقد عرّف فنّ التربية على النحو الآتي: «فنّ التربية هو فعل، وأحياناً فعل وردّ فعل، محبّب، حكيم، ذو مسار بطيء ومستمرّ ومتطوّر، وذو مدّة لا تقلّ عن فترة من المهد إلى اللحد؛ إذ يقوم فيه الشخص المثقّف (المربيّ) بمهمّة التثقيف وإضفاء السعادة، وبنحو عام، المنفعة الروحيّة والماديّة لشخص

١ - محمّد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، ج ١، ص ٤٠١.

٢ - محمّد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، ج ٢، ص ٦-٧.

٣ - حسن مصطفوي: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ٤، ص ١٦.

٤ - عليّ همّت بناري: تعامل فقه و تربيت [العلاقة بين الفقه والتربية]، ص ٥٩.

٥ - علي رضا أعرافي: كليّات فقه التربية، ج ١، ص ١٩.

آخر (المتربّي) في السعي لإثارة الفطرة التي خلقها الله بنحو متناسق ومتوافق وتنميتها^(١). في هذا المقال، جرى السعي، بالتركيز على سورة الحُجُرَاتِ الكريمة، إلى إيجاد الأساليب التربويّة التي استخدمها الله بصفته أعظم مربّ، لكي نتمكّن من تطبيقها في الحياة العمليّة. أساليب التربية في القرآن، كما ذكر، هي طريقة نقل النقاط التربويّة. وبنحو عامّ، يستخدم القرآن أساليب متنوّعة جدّاً لنقل الموضوعات والنقاط الإرشاديّة التربويّة، وهذه أحد مزايا الأسلوب التربويّ للقرآن. هذا الأسلوب نفسه يجعل الجمهور المستهدف من المخاطبين القرآنيين واسعاً جدّاً ويشمل جميع الأفراد من العلماء إلى الجهلاء. النقطة المهمّة هنا هي أنّ الدراسات التي أجريت عن أساليب التربية في القرآن قد حدث فيها خلط في منهجيّة بيان النقاط التربويّة والنقاط القرآنيّة نفسها؛ بمعنى أنّه في بعض هذه الدراسات، أدرجت أمور مثل تذكّر القيامة والموت، أو المراقبة والمحاسبة، ضمن أساليب التربية في القرآن؛ بينما يمكن عدّ هذين الأمرين وما شابههما من محتوى التربية القرآنيّة، وليس أسلوباً لبيان النقاط التربويّة في القرآن. في المقابل، فإنّ أموراً مثل الموعظة والنصيحة هي جزء من الأساليب التي استخدمها القرآن لبيان المحتوى التربوي وليس مفهوماً إرشادياً تربوياً بنفسها. هذه نقطة غفل عنها بعض الباحثين في هذا المجال، ويرأي الكاتب، فإنّ هذه المشكلة ناجمة عن الأسس الخاطئة لهؤلاء المؤلّفين^(٢). بناءً على النقطة المذكورة، نشير إلى بعض أساليب القرآن لبيان المفاهيم التربويّة: الأمر والنهي، والمحبة، والاحترام والتكريم، وإعداد البيّنة، وتطهير البيّنة، والتعامل الحسّن، والرفق والمداراة، والتذكير، والحكمة، والمجادلة الحسنة، والموعظة، وأخذ العبرة، والقدوة، والإنذار، والتبشير، والتشجيع، والوعد، والابتلاء، وإعطاء البصيرة، والتلقين، والعادة، والتكرار، والتغافل، والعفو والتجاوز، والتوبة، والدعاء، ومنح المسؤولية،

١ - بهروز رفيعي: آراء دانشمندان مسلمان در تعليم و تربيت و مباني آن [آراء العلماء المسلمين في التربية والتعليم وأسسها]، ص ٩٨.

٢ - عسكري إسلامپور: الأساليب التربويّة في القرآن، ص ٣٨-٤٤.

والتشاور مع المتربي، وطرح الأسئلة، والقصص، والأمثال والتشبيهات، والحرمان، ومواجهة المتربي بنتيجة العمل، والإعراض، والتوبيخ، والتهديد، والتأديب والعقاب. ويمكن تقديم هذه الحالات عامّة ضمن تصنيفات مختلفة. مثل:

١. تقسيم الأساليب إلى إبداعية وتصحيحية؛ يعتمد هذا التصنيف على وظيفة الأساليب. تهدف بعض الأساليب، مثل أسلوب منح البصيرة والنمذجة، لتفعيل السلوك والتصرفات لدى المتعلّم، بينما تهدف الأساليب التصحيحية، مثل الحرمان أو مواجهة المتعلّم بنتائج أفعاله، إلى إزالة سلوك غير مرغوب فيه أو التقليل منه.
٢. تقسيم الأساليب إلى معرفية وعاطفية وسلوكية؛ الأساليب التي تساعد على تعزيز فهم المتلقّي، مثل أساليب الحكمة وطرح الأسئلة التي تعدّ أساليب معرفية. أما الأساليب التي تؤدي إلى تحفيز المتعلّم، فتسمّى أساليب عاطفية، مثل أسلوب التشجيع^(١). من بين قرابة عشرين أسلوباً ذُكرت، جُمع في هذا البحث سبعة منها فقط ونسعى لتقديمها. هذه الأساليب السبعة هي: التذكير والتنبيه، والموعظة والنصيحة، والتشجيع والعقاب، وتحريك العواطف، والأمر والنهي، وتقديم النموذج، ورواية القصص. يمكن تلخيص سبب اختيار هذه الأساليب السبعة من بين الأساليب المذكورة في نقطتين:

- أ. هذه الأساليب السبعة تعدّ من الأساليب الرئيسة من حيث كثرة استخدامها في القرآن؛ بمعنى أنّ هذه الأساليب السبعة استُخدمت في جميع أنحاء القرآن، ويستخدم القرآن هذه الأساليب أكثر لبيان المفاهيم والموضوعات التربوية.
- ب. يمكننا أن نجد أمثلة لكلّ من الأساليب السبعة في سورة الحجرات المباركة التي تشتهر بسورة التربية، لكي نتمكّن من تقديم تعريف أكثر اكتمالاً لهذه الحالات.

١ - محمّد رضا قائمي مقدّم: روشهای تربیتی در قرآن [الأساليب التربوية في القرآن]، ص ١٨.

ثالثاً: أساليب بيان النقاط التربوية في سورة الحُجرات

بعد بيان مفهوم التربية وأساليب التعبير عن ذلك، نسعى في هذا الجزء من البحث إلى استخلاص أهم الأساليب التي اعتمدها الآيات الكريمة من سورة الحُجرات لتوضيح النقاط التربوية. كما نشير إلى الآيات المعنوية بدقة. لا شك فقد حظيت سورة الحُجرات بصفتها واحدة من السور الخُلُقِيَّةِ التربوية والاجتماعية في القرآن باهتمام خاص من المُفسِّرين عبر التاريخ؛ ولهذا السبب اختيرت هذه السورة لتقديم أمثلة عن الأساليب القرآنية. النقطة المهمة في ما يتعلّق بمنهجية هذا الجزء من المقال هي أن تقسيم سورة الحُجرات المباركة يعتمد على الأساليب السبعة المذكورة، وستدرج جميع آيات هذه السورة ضمن هذه الأقسام السبعة. ونتيجة لذلك، لا يعتمد هذا البحث على ترتيب الآيات بل يرنو لتجميع الآيات ذات الصلة بناءً على كل أسلوب ومناقشته.

١- التذكير والتنبيه

التذكير والتنبيه هو أحد الأشكال الأهم التي يستخدمها القرآن الكريم لبيان النقاط التربوية. حتّى أن الله يشير في بعض الآيات إلى أن الهدف من إنزال القرآن هو تذكير الإنسان وتنبيهه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]. القرآن هو تذكير وتنبيه للعالمين أجمعين، ولكن سيستفيد من هذا التذكير فقط أولئك الذين يسعون إلى إيجاد طريق الهداية: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٧-٢٨]. في سورة الحُجرات أيضاً، يُستخدم هذا الأسلوب لبيان النقاط التربوية ومفاهيمها. الآيات من سورة الحُجرات التي استُخدم فيها هذا الأسلوب هي:

أ. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحُجرات: ١٣] وفي هذه الآية، يُذكر الله البشر بأحد أسمى المفاهيم والقيم الإنسانية، وهو مفهوم

«مساواة الأفراد». الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يدلّ على أنّ ما ذكر في هذه الآية، على عكس بقية محتويات السورة التي تخصّ المؤمنين، هو لجميع البشر^(١). وقد أُهْمِلَ هذا الموضوع بين البشر لا سيّما في الوقت الراهن كثيراً. توضّح هذه الآية هذا الموضوع بشفاقيّة وتذكّر الإنسان بأنّ الله قد خلق جميع الأفراد، سواء أكانوا نساءً أم رجالاً، وقد وضعهم في أماكن مختلفة من الأرض وبأشكال متنوّعة، وأنّ معيار تفوّق البشر ليس في الاختلافات الجسديّة والماديّة بل بروح الأفراد التي تميّزهم. معيار التفوّق أو الدونيّة في الروح ليس إلا تقوى الله؛ لأنّ تقوى الله تعدّ قيمة وعامل قرب من الله أو بُعد عنه. النقطة الجديرة بالذكر هي أنّ هذه الآية نزلت في ظروف كان فيها الافتخار بالنسب القبليّ من أسمى افتخارات الأفراد بين العرب، على عكس الأقوام الأخرى في ذلك الوقت، لدرجة أنّ كلّ قبيلة كانت تعدّ نفسها القبيلة الأفضل، وكلّ عرق يعدّ نفسه العرق الأسمى، على عكس بعض الأقوام الأخرى التي ربّما كانت ترى أنّ المنصب أو الثروة عامل تفوّق الأفراد^(٢).

ب. الآيات: ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٦ و ١٨] التي في هذه الفئة التي يذكر الله فيها بلهجة عتاب تلك المجموعة من المسلمين التي كانت تُسمّى نفسها مؤمنين ويمنّون على النبي بإيمانهم، بأنّ الإيمان الذي لديهم هو منّة من الله، وعليهم أن يشكروا هذه النعمة العظيمة، بينما هم يجعلون إيمانهم وسيلة للمنّ على النبي ﷺ. كما تذكر هذه الآيات أيضاً أنّ الله نفسه عليم بكل

١ - محمّد تقي المدرسي: من هدى القرآن، ج ١٣، ص ٤٣٣.

٢ - ناصر مكارم شيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٢، ص ١٩٨.

الأمر ولا حاجة لتذكيره بشيء. ويمكن استخلاص مفهوم تربوي آخر من هذه الفئة من الآيات هي أن المنّ اللفظي من الأعمال السيئة التي ينبغي تجنبها. وقد عدّ الله في الآية هذا السلوك مكروهاً جداً عند الإنفاق، إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]. في مقابل هذا النوع من المنّ، ثمة نوع آخر، وهو المنّ العملي الذي يصدر من الله؛ حيث يغمر عباده بلطفه ورحمته، كما يقول الله نفسه في: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١٧]. من النقاط التربوية المستخلصة من هذه الآيات أن المنّ على المسلم ليس جائزاً، سواء أكان الإسلام مبنياً على أهداف مادية ذات مصالح تعود بالنفع على الفرد، أم كان الإسلام خالصاً لله؛ فالله هو الذي ينبغي أن يمنّ عليهم^(١). والنتيجة هي أن إحدى الطرق الأهم في بيان النقاط التربوية في القرآن هي بيان المفاهيم في قالب التذكير. أحياناً تُعرض المفاهيم والموضوعات في قالب التذكير فقط، وأحياناً أخرى تكون مصحوبة ببعض العتاب لتكون تبييناً للمخاطبين؛ فالإنسان يحتاج دائماً إلى مثل هذا التذكير، ولا ينبغي أن يرتدي ثوب العناد أمام هذه المفاهيم الإلهية ويكون مثل بني إسرائيل، عندما قيل لهم: خذوا ما آتيناكم من آيات التوراة بإرادة جادة واسمعوا واقبلوا، قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

٢ - الموعظة والنصيحة

الطريقة الثانية التي استخدمها الله لبيان النقاط التربوية في القرآن وفي سورة الحجرات المباركة هي عرض المطالب في قالب الموعظة والنصيحة. «الموعظة» التي تستخدم بالمعنى

١ - محمد تقي المدرسي: من هدى القرآن، ج ١٣، ص ٤٤٣.

الاسمي والمصدري، مشتقة من جذر «وعظ» الذي يعني المنع مع التخويف^(١). تشمل الموعظة أبعاداً مختلفة، ويمكن فهم معناها الدقيق بناءً على تلك الأبعاد:

أ. الموعظة هي أمر بالخير ونهي عن الشر.

ب. في معنى الموعظة، ثمة تخويف أو ترهيب من عواقب الأمور. وفي القرآن يقول في هذا الصدد: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]. في هذه الآية، اقترنت كلمة «الوعظ» بمعنى التخويف والترهيب.

ج. الهدف من الموعظة هو أخذ العبرة، كما يتضح من عدد من الآيات المتعلقة بالأمم الماضية والأسلاف: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

د. الموعظة تليّن قلوب المخاطبين وتجعل قبول الكلام أسهل عليهم. يشير الله بوضوح في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]^(٢). بنحو عام، يمكن القول إن «الموعظة» هي طريقة تربوية قرآنية؛ لأنّ الواعظ في هذه الطريقة يسعى إلى هداية المخاطب إلى فعل الأعمال الحسنة وتحذيره من فعل الأعمال السيئة، وهذا هو ما يفعله المرابي. وقد استخدمت هذه الطريقة في سورة الحجرات أيضاً. الآيات من سورة الحجرات التي استخدمت فيها هذه الطريقة هي:

■ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٥] التي تعظ المؤمنين الذين خاطبتهم الآيات السابقة بالصبر؛ حيث أشارت الآيات السابقة إلى المؤمنين الذين كانوا يذهبون إلى النبي ﷺ

١ - الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، ص ٨٧٦.

٢ - محمد رضا قائمي مقدّم: روش های تربیتی در قرآن [الأساليب التربوية في القرآن]، ص. ص ٢١٩-٢٢٠.

من حين لآخر، وينادونه بطريقة غير لائقة ليخرج من بيته ويلبّي حاجاتهم، وقد ذمّ القرآن هذا الفعل بشدة. في هذه الآية، يقول عن هؤلاء المؤمنين إنّ الصبر وانتظار خروج النبي ﷺ أفضل بكثير من فعل تلك الأعمال السيئة، ويؤدّي إلى المغفرة للأفراد. وقد نبّهت هذه النقطة التربويّة المهمّة في قالب الموعظة والنصيحة هذه الفئة من الناس. النقطة التربويّة في الآية هي أنّه في مواجهة الأشخاص غير المهذّبين وغير العاقلين، ينبغي أن نتعامل معهم برحمة وعطف ولا نبثّ اليأس في قلوبهم. فالله، بينما يذمّ الذين كانوا ينادون النبي الأكرم ﷺ بصوت عالٍ وبصراخ، يطرح مغفرته ورحمته حتّى لا يياسوا تمامًا ويكون لديهم فرصة لتغيير سلوكهم^(١).

■ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. من النقاط الأخرى التي طرحتها هذه الآية على شكل نصيحة وتوجيه، والتي كتبت عنها مباحث واسعة جدًّا، هي مسألة خبر الفاسق. في هذه الآية، ينصح الله المؤمنين بالتحقيق في خبر الفاسق حتّى لا يقعوا في عواقب غير مرغوبة ولا يصابوا بالندم. وفقًا للروايات، فإنّ سبب نزول هذه الآية يتعلّق بـ (الوليد بن عقبة) الذي أبلغ النبي ﷺ بأخبار غير صحيحة عن زكاة قبيلة بني المصطلق. بعد ذلك، صدّق المؤمنون خبر (الوليد)، وهيأوا أنفسهم لقتال هذه القبيلة، ولكن بنزول هذه الآية منعت هذه الحرب غير المبرّرة^(٢).

١ - محسن قراءتي: تفسير نور [نفسى النور]، ص ١٦٦.

٢ - الفضل بن حسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، ص ٢١٩.

٣- التشجيع والتخويف:

التشجيع والتخويف، أو بعبارة أخرى التبشير والإنذار، وهي إحدى أكثر الطرق استخداماً في القرآن لبيان المفاهيم التربويّة. التبشير من مادة «بَشَرَ» بمعنى جلد جسم الإنسان، وكلّما كان المقصود هو الجانب الظاهري للإنسان يُسمّى بشراً؛ لأنّ جلده ظاهر، فهو ليس كائناً كثير الشعر. الخبر السار والمفرح يُسمّى بُشْرَى وبشارة؛ لأنّ فرحة من ينقل هذا الخبر وكذلك المخاطب تظهر على وجوههما^(١). الإنذار، بمعنى التخويف من عواقب العمل بالقول، ويُقال للمُنذِر إنّه من يحذّر الناس بأخباره. وقد استخدم لفظ المُنذِر في القرآن الكريم في حقّ الأنبياء عليهم السلام، ومرة واحدة فقط في سورة النجم الآية ٥٦ باعتباره صفة للقرآن الكريم^(٢). ولفهم أهميّة هذا الأسلوب، يكفي أن نعلم أنّ الله في القرآن يُسمّى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأنبياء عامة منذرِينَ ومبشِرِينَ، ويعدّ الهدف من إرسالهم هو تبشير الناس وإنذارهم: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨]. وقد نزلت عدد من آيات القرآن بهدف تشجيع المخاطبين وترهيبهم، ومنها آيات الجنّة والنار، وبشكل عام المعاد التي تشكّل قرابة سدس آيات القرآن. لذلك، يمكن القول لقد كان التبشير والإنذار الأداة الدعويّة الأهمّ للأنبياء الإلهيين عليهم السلام وسلاحهم الفعّال لتقدّمها. دور هذين في نشر الدين هو دور الفائد والسائق. أحدهما يتقدّم ويدعو المهتدين خلفه إلى اتّباعه ويقودهم إلى الأمام، والآخر يدفع الخلق المتخلفين من الخلف نحو الهدف^(٣). وقد استخدمت هذه الطريقة أيضاً في آيات من سورة الحُجُرَات، وهي:

أ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

١ - حسن مصطفى: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ص ٢٧٤

٢ - حسن مصطفى: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، ج ١٢، ص ٩٥؛ السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٩، ص ٥١.

٣ - السيّد عليّ غضنفری: ره رستگاری [طريق الفلاح]، ج ٣، ص ١٨٧.

كَجَهْرٍ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿ الحُجُرَات: ٢﴾، وقد استخدم فيها أسلوب التنبيه والتحذير؛ إذ يعدّ الله هنا نتيجة هذا الفعل من المسلمين الذي هو رفع أصواتهم في حضرة النبي الأكرم (صلوات الله عليه وآله) إحباطاً لثواب أعمالهم الصالحة. مثل هذا التحذير يمنع المسلمين من ارتكاب مثل هذا العمل القبيح وغير المرغوب فيه^(١). كما ذكرنا، قد تستخدم آية واحدة عدّة أساليب مختلفة في الوقت نفسه لبيان النقاط التربويّة، وهذه الآيّة هي كذلك. يأمر الله في هذه الآيّة الأشخاص الذين خاطبوا النبي ﷺ بقلة أدب بالابتعاد عن مثل هذا الفعل (النهي)، وإلى جانب هذا النهي، يحذّرهم للتأكيد أكثر.

ب. ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحُجُرَات: ١٠] التي يدخل فيها الله على المؤمنين، كما في عدد من الآيات الأخرى، من باب التشجيع والتبشير لبيان مفهوم سامٍ لهم ليتقبلوه بقلوبهم وأرواحهم. في هذه الآيّة، يدعو الله المؤمنين في البداية إلى الأخوة بأسلوب الأمر والنهي، وفي النهاية، باستخدام أسلوب التشجيع، ويبيّن لهم نتيجة هذا العمل. إنّ ما ورد في هذه الآيّة بوصفه جزاءً للمؤمنين هو شمولهم برحمة الله، وهذا بحدّ ذاته يوفرّ دافعاً عالياً لتنفيذ هذا الأمر. نقطة تربوية أخرى جديرة بالذكر هي أنّ الآخرين عندما يريدون إظهار الكثير من المودّة لمن يشاطرونهم المسار، فإنّهم يخاطبونهم بـ "الصديق أو الرفيق"، لكن الإسلام يرفع مستوى روابط الودّ بين المسلمين إلى درجة أنّه يطرحها من ناحية أنّها أوثق رابطة بين شخصين، وهي رابطة مبنية على المساواة والعدل، وهي محبة الأخوين لبعضهما الآخر^(٢).

١ - السيّد محمّد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٨، ص ٣٨٤.

٢ - ناصر مكارم شيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٢، ص ١٧٢.

٤- تحريك العواطف

الطريقة الرابعة الأكثر استخداماً في القرآن لبيان النقاط التربويّة هي تحريك عواطف المخاطبين. وقد استخدم القرآن هذه الطريقة جيّداً في عدّة آيات، سواء في الخطاب الإلهي نفسه أم في القصص التي وردت في القرآن لأهداف تربويّة. على سبيل المثال، يحرك القرآن عواطف الأبوة لتخويف الناس من التقسيم غير العادل للميراث، ويصوّر أمام أعينهم معاناة أطفالهم اليتامى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]، وكذلك يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠]. في هذه الآية، يصوّر الله أكل أموال اليتامى كأكل النار لإثارة مشاعر المخاطبين ضدّ هذا الفعل. في الآية ١٢ من سورة الحجرات المباركة، استخدمت هذه الطريقة؛ إذ تقول الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّا زُكِرَ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]؛ حيث استخدم الله تعالى في هذه الآية، ضمن حكم تحريم الغيبة، طريقة تحريك عواطف المخاطبين لجعلهم يتقبلون الحكم، وذلك بقوله: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾. هذه العبارة هي بمثابة تعليل لحكم تحريم الغيبة؛ إذ تصوّر جوهر فعل الغيبة، ومن خلال تشبيه ذمّ المؤمن الغائب بأكل لحم الأخ المؤمن، فإنّها في الحقيقة تثير عواطف المخاطبين ضدّ هذا الفعل الشنيع^(١).

٥- الأمر والنهي

ينبغي عند النظر إلى مكانة الأمر والنهي في الثقافة القرآنيّة، أن نتذكّر أولاً العلاقة بين

١ - محسن قراءتي: تفسير نور [تفسير النور]، ج ٩، ص ١٩٤؛ ناصر مكارم الشيرازي، تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٤، ص ٥٠٤.

الإنسان والله، والتي صُوِّرت في قالب علاقة «العبد» و«الرب». كما ينبغي الانتباه إلى أنَّ أحد أوجه هذه العلاقة في ما بين العبودية والربوبية هو موضوع الأمر والنهي. وهكذا، نجد أن الصلة بين مفاهيم مثل الطاعة والمعصية تتأسس على الأمر والنهي، وعلى الربوبية والعبادة، وهكذا يحتل الأمر والنهي مكانة مهمة، فضلاً عن أهميته في الشريعة، في علم التوحيد وحتى في الرؤية الكونية القرآنية. إنَّ أحد الأساليب الأكثر استخداماً في بيان المفاهيم التربوية هو أسلوب «الأمر والنهي». في الأساليب السابقة، كنّا نرى الأمر والنهي الإلهي بنحو غير مباشر عن الموضوعات؛ بمعنى أنَّ الهدف من بيان قصص القرآن، أو مواظب القرآن ونصائحه، أو التذكيرات التي وردت في القرآن حول بعض الموضوعات، كان الدعوة إلى القيام بعمل ما أو الابتعاد عن عمل ما، وهو ما يمكن تسميته «الأمر والنهي غير المباشر». أمّا في هذه الطريقة، فإنَّ الله يأمر مباشرة وبصراحة بالقيام بعمل أو ينهى عن القيام به، مثل هذه الآية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّكْعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣]. بالطبع، النقطة المهمة هنا هي أنَّ استخدام صيغة الأمر أو النهي في القرآن لا يعني دائماً الأمر بعمل ما أو النهي عنه، كما نرى في الآية ٢٨ من سورة نوح التي تعطي معنى الدعاء وليس معنى الأمر: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾. في سورة الحجرات المباركة أيضاً ثمة آيات استخدمت هذه الطريقة لبيان المفاهيم والموضوعات، وهي:

أ. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]. هذه الآية في الحقيقة في مقام بيان مبدأ كلي بين أتباع دين الإسلام، وقد عبّر عن هذا المبدأ بنحو صحيح في جملة واحدة: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. هذه العبارة في هذه الآية تنهى جميع المؤمنين عن القيام بأي عمل أو التقدّم في أي أمر على الله ورسوله. ونتيجة لذلك، وضع الله في هذه الآية، بصفته خالق الكون، هذا الأمر باعتباره واجباً على جميع الناس، والجميع مكلفون بتنفيذه. ينبغي أن يكون مصدر قوانيننا وسلوكنا هو القرآن وسنة النبي

الأكرم ﷺ. عدم التقدم على الرسول الإلهي لا يشمل فقط المسائل الفقهية، بل يشمل أيضاً جميع المسائل السياسية والثقافية والاجتماعية^(١).

ب. ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]. في هذه الآية، يعدّ القتال والنزاع بين المؤمنين من الخطوط الحمراء في المسائل الاجتماعية للإسلام، وقد نهى الله عنه بشدّة في هذه الآية وفي آيات أخرى. إنّ وجود الخلافات بين المؤمنين مدمر ومضّر لدرجة أنّ الله يأمر في هذه الآية بقتال الطرف الباغي حتّى يحلّ السلام الكامل بين الطرفين المتخاصمين، وقد أمر بإحلال السلام بين الطرفين المتحاربين مرتين في هذه الآية وحدها. في هذه الآية، استخدم أسلوب «الأمر والنهي» بنحو واضح وشفاف وفي عدّة مواضع من الآية، بحيث يدرك كلّ مؤمن أهمية هذا الأمر وضرورته جيداً. بناءً على هذه الآية، نفهم أنّ واجب جميع المسلمين هو منع الحرب والخلاف بين الجماعات المسلمة؛ لأنّ الحرب بين المسلمين تؤدّي إلى إضعاف قوتهم، بينما ينبغي أن تستخدم قوّة المسلمين في قتال الأعداء^(٢).

ج. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِمَّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ

١ - ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٢، ص ١٣٦.

٢ - محمد تقي المدرسي: من هدى القرآن، ج ١٣، ص ٣٨٥.

وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿﴾ [الحُجُرَات: ١١ و ١٢]. في هاتين الآيتين، يذكر الله بعض الرذائل الخُلُقِيَّةِ مثل السخرية، والعيوب، والتجسُّس، والغيبة، وينهى عن ارتكابها. بناءً على ظاهر هاتين الآيتين، فإنَّ لهجة الآية هي أمرية، وتنهى بشدَّة عن الرذائل الخُلُقِيَّةِ المذكورة، ويمكن عدَّ هذه الآية مثلاً على أسلوب الأمر والنهي. عبارة ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ تنهى عن الانتقاد وإطلاق الألقاب السيئة. كلمة ﴿أنفسكم﴾ تشير إلى أنَّ المسلمين كجسد واحد، وبالتالي، فإنَّ انتقاد الآخرين هو انتقاد للذات^(١). النقطة التربويَّة تشير إليها الآيات آنفة الذكر، وهي الأمن الاجتماعي الكامل والشامل. الأوامر الستة المذكورة في هاتين الآيتين، وهي النهي عن السخرية، وذكر عيوب الآخرين، وإطلاق الألقاب السيئة، وسوء الظن، والتجسُّس، والغيبة، جميعها تهدف إلى توفير الأمن لأربعة أصول رئيسة للإنسان، وهي: النفس، والمال، والعرض، والشرف، وينبغي أن تكون جميعها محميَّة ضمن حصون هذا القانون^(٢).

٦- تقديم النموذج

الأسلوب السادس الذي استخدمه القرآن الكريم لبيان المفاهيم الخُلُقِيَّةِ والتربويَّة هو أسلوب «تقديم النموذج». لقد قدّم القرآن، بصفته كتاب هداية للبشرية، أفراداً بوصفهم نماذج مناسبة أو غير مناسبة للحياة، لكي يقارن الناس حياتهم بهم ويجعلوا أنفسهم شبيهين بالصالحين في حضرة الله. على سبيل المثال، يصف الله النبي الأكرم ﷺ بوصفه أنموذجاً يستحقّ الاقتداء والاتباع ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، ينبغي على المسلمين التشبّه بهم في

١ - علي أكبر قرشي بنايي: تفسير أحسن الحديث ج ١٠، ص ٢٨٠.

٢ - ناصر مكارم شيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٢، ص ١٨٥.

أسلوب حياتهم قدر الإمكان. في المقابل، قدّم الله أشخاصاً بوصفهم قدوة للشرِّ وللأفعال غير اللائقة؛ فعلى سبيل المثال، قُدِّمت زوجات أنبياء مثل نوح ولوط عليهما السلام بوصفتهما قدوتان سيئتان للنساء: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُّوطٍ﴾ [التحریم: ١٠].
وبالنظر إلى أنّ حياة الإنسان من البداية إلى النهاية ممزوجة بالمعاناة والمشقة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الانشقاق: ٦]، فإنّ تقديم أنموذج ناجح قد تغلّب على صعوبات الحياة وسلك طريق السعادة يمكن أن يكون مصدر إلهام وراحة للإنسان، ويقوّي فيه روح الاجتهاد والسعي. النقطة المهمّة هي أنّه في بعض الحالات، لم يقدّم شخص معيّن بصفته قدوة، بل ذُكرت خصائص لأنموذج معيّن، وسنرى مثلاً على ذلك في آيات سورة الحجر المباركة:

أ. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]؛ حيث قدّم رسول الله صلوات الله وسلاماته عليه في هذه الآية أيضاً، كما في الآية ٢١ من سورة الأحزاب، بصفته أنموذجاً للسلوك الفرديّ فضلاً عن السلوك الاجتماعي لجميع المسلمين بل ولجميع البشر. والنقطة الجديرة بالاهتمام في الآية هي الإشارة إلى عدم تبعيّة النماذج القرآنيّة، ومن بينها النبيّ الأكرم صلوات الله وسلاماته عليه للناس. فلو أنّ النبيّ صلوات الله وسلاماته عليه استمع إلى ما يمليه عامّة الناس، فهذا سيضرّ بالناس أنفسهم. الحالة الصحيحة هي أن نتشبه نحن بالرُّسل الإلهيين لننال السعادة الأبديّة. من بين النقاط التربويّة التي تسعى هذه الآية إلى بيانها هي ذكر الوجود المبارك لنبي الأكرم صلوات الله وسلاماته عليه المبارك الذي يعيش بين الناس ويُشكّل مصدر فخر عظيم لهم^(١)؛ لذلك ينبغي التصرّف وفقاً لتعاليمه واتّباعه،

١ - حسين شاه عبد العظيمي: تفسير اثني عشرى [التفسير الاثني العشري]، ج ١٢، ص ١٨٣.

وعدم طلب منه أبداً أن يتبع رغبات الآخرين، بل إن شرط الإيمان برسالة الرسول ﷺ هو أن تطلب منه التوجيه في جميع الأمور وتتبع أقواله وتعاليمه، وترجع إليه في الحوادث والوقائع وتطلب منه التكليف^(١).

ب. ب. ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥]. في هذه الآية، على عكس الآية السابقة التي قدمت شخصاً معيناً (النبي الأكرم) بصفته أنموذجاً للأفراد، تتناول خصائص الفرد المطلوب من منظور القرآن فقط، ويوصف صورة هذا الشخص. الإيمان بالله ورسوله والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله من أهم خصائص هذا الشخص. لذلك، أول علامة على الإيمان هي عدم التردد والشك في طريق الإسلام، والعلامة الثانية هي الجهاد بالمال، والعلامة الثالثة والأسمى هي الجهاد بالنفس^(٢).

٧. رواية القصص

الأسلوب السابع لبيان المحتوى التربوي في القرآن، هو أسلوب «القصص» أو بيان المفاهيم في قالب قصص مختلفة مستمدة من الأمم الماضية أو المعاصرة. يؤكد القرآن بشدة على استخدام قالب القصة لتقديم مفاهيمه. تتناول قرابة ثلث آيات القرآن قصص السابقين وأحداث عصر نزول القرآن. حتى أن عالم الآخرة في القرآن يصور في قالب قصة^(٣) يمكن عدّ السبب الكامن وراء الاستخدام المكثف للقصص في القرآن هو القدرة العالية للقصة على

١ - محمد حسيني همداني: انوار درخشان در تفسير قرآن [الأنوار المتألثة في تفسير القرآن]، ج ١٥، ص ٣٨٨.

٢ - ناصر مكارم شيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٢، ص ٢١٢.

٣ - صدر الدين بلاغي: قصص قرآن [قصص القرآن]، ص ٢٠١.

التأثير في فكر الإنسان وروحه^(١)، ولهذا قيل بما أنّ طبيعة الإنسان تنفر من النصح المباشر، فقد قدّم القرآن تعاليمه من خلال القصص وبطريقة غير مباشرة^(٢). وقد ذكر القرآن أهدافه من سرد القصص بأنّها طمأنة النبيّ، والموعظة، وتذكير المؤمنين: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. وقد أوصت عدد من آيات القرآن بالتأمل في قصص السابقين^(٣). وبناءً على آيات القرآن، فإنّ القصص القرآنيّة ليست مختلفة أو أسطوريّة بل هي حقائق يستخلص منها الحكماء العبر وتودّي إلى هداية المؤمنين: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]. ومن بين خصائص القصص القرآنيّة من جهة المحتوى والبنية يمكن ذكر الواقعيّة، والهدفية، وبتّ رسالة، وذكر المعجزات والأمر الخارقة للعادة، ووجود أنواع مختلفة من الشخصيات في القصص^(٤). وقد استفادت سورة الحجرات -أيضاً- من مزايا عرض المحتوى في قالب القصّة بنحو جيّد، وهو ما سنراه لاحقاً: الآيات ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * قُلْ أَتَعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٤ - ١٧]. تشير هذه الآيات إلى قصّة حدثت في زمن النبيّ ﷺ؛ حيث ذكر

١ - صدر الدين بلاغي: قصص قرآن [قصص القرآن]، ص ١٣ و ١٤؛ تهماسب طالبي: التاريخ في قصص القرآن، ص ٢٨-٣٣

٢ - صدر الدين بلاغي: قصص قرآن [قصص القرآن]، ص ١٣.

٣ - تهماسب طالبي: التاريخ في قصص القرآن، مجله آموزش تاریخ، ص ٢٩.

٤ - محمد رضا سنكري: أهداف السرد القصصي وأساليبه، ص ٩-٣.

عدد من المفسرين سبب نزول هذه الآيات، وملخصه أن جماعة من قبيلة (بني أسد) دخلت المدينة في إحدى سنوات القحط والجفاف على أمل الحصول على مساعدة من النبي ﷺ ونظقت بالشهادتين، وقالت للنبي ﷺ إن القبائل العربية ركب الخيل وحاربتك، أما نحن فقد جئنا إليك بنسائنا وأولادنا ولم نحارب وبهذه الطريقة أرادت أن تمنّ على النبي ﷺ (١). وبالتالي، يمكن القول إن هذه الآيات تصوّر مفاهيم مثل عدم المنّ على النبي ﷺ، والفرق بين الإسلام والإيمان، ومكانة الإيمان في قالب قصّة من زمن النبي ﷺ، وبيان هذه المفاهيم على شكل قصّة له تأثير كبير في جذب انتباه المخاطبين. وتجدر الإشارة إلى أنه في هذه الفئة من الآيات، استخدم أسلوب «الأمر والنهي» و«الموعظة والنصيحة» في الوقت نفسه، وقد جرت الإفادة من هاتين الطريقتين بنحو جيّد في قالب القصّة.

خاتمة

بناءً على ما ورد في هذا البحث، يمكن استخلاص النقاط الآتية:

١. تعني التربية تنمية المتربي بواسطة المربي وتنشئته وهي عملية تدريجية تنشط بمساعدة الأساليب التربوية.
٢. الأسلوب التربويّ هو طريقة ظهور فعل أو نشاط يصدر من المربيّ للتأثير في المتربيّ. في مجال التعليم والتربية، طُرحت عدد من الأساليب لكيفية التربية وذكرت في كتب التعليم والتربية، والهدف الرئيس لجميع هذه الأساليب هو التأثير في الآخر (المتربيّ أو المتربين).

١ - محمد حسين الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٨، ص ٣٣٥؛ ناصر مكارم الشيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، ج ٢٢، ص ٢٠٩.

٣. لقد بين القرآن الكريم قضايا سياسية، واجتماعية، وثقافية، وخُلُقِيَّة متنوعة بأشكال مختلفة ولجمهور القرآن في جميع الأوقات بالطريقة المثلى. ما يهم في هذا الصدد هو أن أسلوب عرض هذه القضايا في القرآن، واكتشافها يساعد المرين والمعلمين والآباء كثيراً في تربية المتربي والطالب والطفل.
٤. لقد ركزت الأبحاث التي أجريت حتى الآن في مجال موضوع التربية في القرآن بنحو أكبر على اكتشاف القضايا التربوية في القرآن، لكن البحث الحالي سعى إلى اكتشاف أساليب عرض القضايا التربوية في القرآن وتبينها.
٥. من بين أكثر من عشرين أسلوباً قرآنيًا في مجال التربية، ثمة سبعة أساليب هي الأكثر استخدامًا في القرآن، وهي: أ- التذكير؛ ب- الموعظة والنصيحة؛ ج- التشجيع والعقاب؛ د- تحريك العواطف؛ ه- الأمر والنهي؛ و- تقديم النموذج؛ ز- سرد القصص. ح- في سورة الحجرات، التي تُعرف بأنها سورة خُلُقِيَّة وتربوية في القرآن، استخدمت الأساليب السبعة الآتية.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم
- محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤١٦هـ.
- محمد عالم أحمد زاده: مفهوم شناسی تربیت در قرآن کریم [مفهوم التربية في القرآن الكريم]، راه تربیت [طريق التربية]، ٥(١٣)، ٢٠١٠.
- عسکری إسلامپور: ”روش های تربیتی در قرآن“ [الأساليب التربوية في القرآن]، مجله پاسدار اسلام [مجلة الحرس]، العدد ٢٩٨، ٢٠٠٦.
- علي رضا أعرافي: كليات فقه التربية، قم، مركز الأبحاث الخاص بالحوزة والجامعة، ٢٠٠٨.
- صدر الدين بلاغي: قصص قرآن [قصص القرآن]، طهران، الأمير الكبير، ٢٠٠١.
- علي همت بنازي: تعامل فقه وتربيت [العلاقة بين الفقه والتربية]. قم، انتشارات مؤسسه الإمام الخميني التعليمية البحثية، ٢٠٠٤.
- السيد أحمد بور موسى، أمان الله ناصر كريم وند الله: عوامل تربيت در قرآن كريم از دیدگاه استاد قراءتی در تفسير نور [العوامل التربوية في القرآن الكريم من منظار الأستاذ قراءتي في تفسير النور]، بحث في العلوم الإنسانية، ٥(٢٠)، ٢٠٢٠.
- محمد حسيني همداني: انوار درخشان در تفسير قرآن [الأنوار المتألئة في تفسير القرآن]. طهران، لطفی، ١٤٠٤هـ.
- الراغب الإصفهاني: المفردات في غريب القرآن، بيروت، دار العلم، ١٤١٢هـ.
- بهروز رفيعي: آراي دانشمندان مسلمان در تعليم وتربيت ومباني آن [آراء العلماء المسلمين في التربية والتعليم وأسسها]، قم، مركز أبحاث الحوزة والجامعة، ٢٠٠٢م.
- محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، بيروت، منشورات دار الفكر،

١٤١٤هـ.

- محمد رضا سنكري: هدفها وشيوه‌های داستان پردازی در قرآن [أهداف السرد القصصي وأساليبه]. مجله آموزش قرآن [مجله تعليم القرآن]، ٣(٨)، ٢٠٠٥.
- حسين شاه عبد العظيمي: تفسير اثني عشرى (ج ١٢) [التفسير الاثنى العشري]. تهران، ميقات، ١٩٨٤.
- تهماسب طالبي: تاريخ در قصص قرآن [التاريخ في قصص القرآن]، مجله آموزش تاريخ [مجله معرفة التاريخ]، العدد ٤٤، ٢٠١١.
- السيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، قم، مكتب النشر الإسلامي، ١٤٣٠هـ.
- الفضل بن حسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤٣٠هـ.
- السيد علي غضنفرى: ره رستگارى [طريق الفلاح]، طهران، لاهيجي، ٢٠٠٣.
- محمد رضا قائمي مقدم: روشهای تربیتی در قرآن [الأساليب التربوية في القرآن]، قم، مركز أبحاث الحوزة والجامعة، ٢٠١٨.
- علي قائمي: روشها وهدفهای تعليم و تربيت در قرآن كريم [أساليب التربية والتعليم وأهدافها في القرآن الكريم]، گلستان قرآن [روض القرآن]، العدد ١٨٣، ٢٠٠٤.
- محسن قراءتي: تفسير نور [تفسي النور]، طهران، المركز الثقافي لدروس القرآن، ٢٠١٩.
- السيد علي أكبر قرشي بنابي: تفسير أحسن الحديث، طهران، بنياد بعثت، ١٩٩٦ م.
- محمد تقی المدرسی: من هدى القرآن، تهران، دار محبي الحسين، ١٤١٩هـ.
- حسن مصطفوی: التحقيق في كلمات القرآن الكريم، طهران، مؤسسه الطباعة والنشر، وزارة الثقافة الإسلامية، ١٤١٦هـ.
- محمد معين: فرهنگ فارسى [معجم الفارسيّة]، طهران، الأمير الكبير، ١٩٨١.

- ناصر مكارم شيرازي: تفسير نمونه [التفسير الأمثل]، طهران، دار الكتب الإسلامية، ٢٠١٨.
- حسن ملكي: درآمدی بر اهداف، اصول و روشهای تربیت در قرآن [مدخل إلى أهداف التربية في القرآن والمبادئ والأساليب]، مجلة بصيرت وتربيت إسلامي [البصيرة والتربية الإسلامية]، ٨(١٩)، ٢٠١١.

السياسات الاستكبارية في القرآن الكريم

◆ قراءة: لينا السقر^(١)

■ خلاصة

تتناول هذه الدراسة مفهومي الاستكبار والاستضعاف في ضوء القرآن الكريم والواقع المعاصر؛ فتُبين أنّ الاستكبار صفةٌ مذمومةٌ تتجلى في الغطرسة ورفض الحقّ، وترتبط غالباً بالطغيان والكفر، كما في قصص (فرعون) وقومي (عاد) و(ثمود). وفي المقابل، يُبرز القرآن المُستضعفين الذين يثبتون على الحق ويواجهون الظلم صابرين محتسبين. كما يُميّز النصّ القرآني بين العلوّ المشروع والاستعلاء المذموم، محذراً من أنّ التمرد على أوامر الله والفساد في الأرض يؤدّيان إلى الإهلاك الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، مؤكداً أنّ الظلم والمكر اللذين يسلبان حقوق المظلومين يستوجبان العقاب الإلهي. وتتنوع هذه المفاهيم لتشمل تجليات الاستكبار العالمي الحديث الذي يعتمد على تشويه الحقائق، واحتكار المعرفة، وتجهيل الشعوب، وفرض الهيمنة الاقتصادية والثقافية، مستغلاً الانغماس في الماديات. كما تستخدم القوى الاستكبارية وسائل العنف، والاعتقال، والسيطرة العسكرية لضمان نفوذها السياسي والاستراتيجي. وبذلك، تقدّم الدراسة نموذجاً قرآنيّاً لفهم ديناميات الاستكبار وكيفية مواجهتها بالوعي، والتمسك بالقيم الخُلُقية، وحماية المُستضعفين، ما يجعلها جسراً تحليلياً يربط بين الرؤية القرآنية وآليات الاستبداد في واقعنا المعاصر.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، الاستكبار، العنف، الإرهاب، السيطرة الاقتصادية، السيطرة العسكرية، الفساد، سياسة فرق تَسُد.

١ - مترجمة، من سوريا.



Arrogant Policies in the Holy Qur'an

◆ Reviewed by: Lina al-Saqer

Syrian translator.

■ Abstract

This study examines the concepts of arrogance and oppression in light of the Holy Qur'an and contemporary reality. It demonstrates that arrogance is a reprehensible trait manifested in haughtiness and rejection of truth, often linked to tyranny and disbelief, as seen in the stories of Pharaoh, the people of 'Ad, and the people of Thamud.

In contrast, the Qur'an highlights the oppressed who remain steadfast in their adherence to truth and patiently confront injustice. The Qur'anic text also distinguishes between legitimate elevation and reprehensible arrogance, warning that rebellion against Allah's commands and corruption on Earth lead to social, political, and economic destruction. It emphasizes that injustice and deceit that deprive the oppressed of their rights warrant divine punishment. These concepts extend to encompass the manifestations of modern global arrogance, which relies on distorting facts, monopolizing knowledge, keeping people ignorant, and imposing economic and cultural hegemony, exploiting the immersion in materialism. Hegemonic powers also employ violence, arrest, and military control to secure their political and strategic influence. Thus, this study presents a Qur'anic model for understanding the dynamics of hegemony and how to confront it through awareness, adherence to moral values, and the protection of the vulnerable. This makes it an analytical bridge connecting the Qur'anic perspective with the mechanisms of tyranny in our contemporary reality.

Keywords:

The Holy Quran, Arrogance, Violence, Terrorism, Economic Control, Military Control, Corruption, "Divide and Rule" Policy.

بطاقة الكتاب

اسم الكتاب: السِّيَاسَاتُ الاسْتِكْبَارِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

مؤلِّفَةُ الْكُتَابِ: زينة الجمال.

دار النشر: مركز برائنا للدراسات والبحوث.

اللغة الأصلية: العربية.

عدد الصفحات: ١٥٥.

سنة النشر: ٢٠٢٤ م.

مقدمة

يُعدُّ القرآن الكريم كتاب هداية شامل للبشرية؛ فهو يتجاوز كونه مجرد سجل للأحداث التاريخية أو القصصية، ليكون مرجعاً توجيهياً للأخلاق والنظم الاجتماعية والسياسية في كل زمان ومكان. ولا يكتفي القرآن بسرد وقائع الأمم السابقة بل يستعرضها باعتبارها دروساً وعبراً تعكس طبيعة الإنسان في مواقف القوَّة والضعف، والحقِّ والباطل، والعدل والظلم. كما أنَّ ذكر قصص الأمم المُستكبرِة، كقصص (فرعون) و(قارون) و(هامان)، لا يهدف إلى التوثيق التاريخي فحسب، بل يسعى لتحقيق غاية القرآن الكبرى في هداية الإنسان نحو بناء مجتمع قائم على العدل والقسط، ومناهضة الظلم والطغيان؛ إذ تحمل هذه القصص نماذج لأنماط

الاستكبار، وتبيين سبل مقاومتها التي انتهجها الأنبياء عليهم السلام والأمم الصالحة، ما يجعلها مادة غنية لاستنباط الدروس الخلقية والاجتماعية والسياسية. تتسم الآيات القرآنية بطابع شمولي يتيح استنباط قيم ومبادئ وقوانين صالحة لكل العصور، كالعدالة والمساواة، وصون كرامة الإنسان، ومناهضة الظلم والاستغلال. هذا الطابع العام يجعل من القرآن أداة فاعلة في تحليل السلوك الإنساني وفهم سياسات الهيمنة التي تمارسها القوى الكبرى ضد المستضعفين في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. كما يؤكد القرآن والسنة أن هذه الآيات ليست محصورة في سياق نزولها بل هي مبادئ خالدة ومنارة إرشادية للأجيال كافة، تدعوهم إلى التفاعل مع قيم الحق والعدل في مواجهة الطغيان والفساد. يُتيح تحليل القصص القرآني استيعاب آليات الاستكبار والبغي، وتفكيك أدوات السلطة الجائرة، واستخلاص قواعد عامة لمواجهة الاستبداد والهيمنة. كما يُبرز هذا التحليل قدرة النص القرآني على ربط الدين بالواقع الاجتماعي والسياسي، وتوجيه الإنسان نحو سلوك واعٍ يمكنه من بناء مجتمع قائم على العدل والحق، ومناهض للفساد والقهر استناداً إلى مبادئ إيمانية راسخة. ومن هنا، لا يظهر القرآن الكريم بوصفه كتاباً روحانياً فحسب بل مرجعاً معرفياً وخلقياً، ودليلاً عملياً لفهم الديناميات الإنسانية والاجتماعية، وتأسيس أنظمة تحفظ كرامة الإنسان وتُحقق العدالة المستدامة.

عرض الكتاب

يقدم هذا الكتاب تحليلاً معمقاً لسياسات الاستكبار في القرآن الكريم وتأثيرها على المجتمعات الإنسانية، مستخلصاً الدروس من قصص الأمم المستكبرة لإسقاطها على واقعنا المعاصر. ولا يكتفي الكتاب بعرض القرآن كسجلٍ تاريخي للأحداث، بل يبرزه كمرجعٍ إرشادي شامل لفهم آليات الظلم، ويضع قواعد عامة لتقويم السلوك الفردي والجماعي، سعياً للارتقاء بالمجتمع نحو العدالة ومكافحة الفساد. كما يستعرض الكتاب في فصوله

الخمسة طبيعة هذه السياسات الاستكبارية، مسلطاً الضوء على العبر المستفادة منها وسبل تطبيقها في حاضرنا.

يتناول الفصل الأول، المعنون بـ "الحقول الدلالية للاستكبار والمفردات المرتبطة بها"، المفاهيم الأساس للاستكبار في القرآن الكريم، مستعرضاً المصطلحات القرآنية ذات الصلة بالعلو، والطغيان، والفساد، والظلم. كما يضمّ عدّة مباحث تشمل: الاستكبار، والاستضعاف، والعلو والعتو، والطغيان والبغي، والفساد والإهلاك، والظلم والإجرام والمكر، مبيّناً ارتباط هذه المفاهيم بسلوك الأمم المُستكبرة. ويحلّل الفصل الثاني، الذي يحمل عنوان "الاستكبار العالمي والسيطرة على عالم الأفكار والحقائق"، الوسائل الفكرية والثقافية التي يوظفها المستكبرون لفرض هيمنتهم، كتشويه الوقائع، وإنكار الحقائق، والاستبداد الفكري، واحتكار المعرفة، وتجهيل المجتمع وتسطيح الوعي، موضّحاً كيفية فهم هذه السياسات في ضوء نصوص القرآن الكريم.

أما الفصل الثالث بعنوان "الاستكبار وعالم القيم ونمط الحياة"، فيركّز على تأثير الاستكبار في منظومة القيم والمبادئ وأسلوب حياة المجتمعات، مستعرضاً السياسات التي تهدف إلى نشر الفساد، وتغليب الجوانب المادية على حساب القيم الخلقية والاجتماعية. ويتناول الفصل الرابع "سياسات المؤامرات والعنف والإرهاب" توظيف القوة والخداع باعتبارها وسائل لتحقيق الهيمنة، من خلال استراتيجيات مثل "فرق تسد"، والمكر، والمؤامرات، والعنف، والإرهاب، والاعتقال والنفي، مبيّناً آثارها السلبية على المجتمعات المُستضعفة. بينما يحلّل الفصل الخامس العلاقة التبادلية بين السيطرة الاقتصادية والعسكرية، موضّحاً كيفية دمج النفوذ المالي بالقوة العسكرية لضمان الهيمنة، مع التركيز على الترابط الوثيق بين الأبعاد الاقتصادية والأمنية للقوى الاستكبارية.

بشكل عام، يقدم الكتاب رؤية شاملة للسياسات الاستكبارية كما صوّرها القرآن الكريم، مؤكّداً على الدروس المُستفادة لفهم الظلم والفساد، وتوجيه المجتمعات نحو العدل، ما

يجعل القرآن مرجعاً حياً وفاعلاً في دراسة السلوك الإنساني وتحليل موازين القوى في الواقع المعاصر.

الفصل الأول: الحقوق الدلالية للاستكبار والمفردات المرتبطة بها

المبحث الأول: الاستكبار والاستضعاف

تتميز اللغة العربية بثراء مفرداتها وتعدد ألفاظها التي تُعبر عن المعنى الواحد من زوايا متنوعة، ما يتيح فهماً عميقاً وشاملاً للدلالات. وقد وظّف علماء التفسير هذا الثراء لاستجلاء معاني القرآن الكريم من خلال دراسة المترادفات، والأضداد، والشواهد اللغوية. ويُعدّ الاستكبار صفة مذمومة تظهر في صور الغطرسة ورفض الحق، وغالبًا ما يرتبط بالكفر والتكذيب، كما تجسّد في قصص (فرعون) وقومي (عاد) و(ثمود). وفي المقابل، يبرز المستضعفون الذين يعيشون تحت وطأة المستكبرين؛ إمّا خضوعاً وإمّا مقاومة، ويُتأبون عند الله إذا صمدوا وتمسكوا بإيمانهم. ويؤكد القرآن أنّ الاستكبار صفة نسبية تتحدّد بالمقارنة مع الآخرين، وأنّ العلاقة بين المُستكبرين والمُستضعفين تعكس ديناميكية اجتماعية وسياسية واضحة بين القوى المتصارعة.

المبحث الثاني: العلوّ والعتوّ

يُشير العلوّ إلى الرفعة والسمو، بينما يُقصد بالاستعلاء طلب العلو بطريقة مذمومة تقترن عادةً بالظلم والاستكبار. ويتجلّى الفرق بينهما في قصة (إبليس)؛ إذ رأى نفسه أفضل من آدم (ع) (علوّ)، ورفض الانصياع لأمر الله بالسجود (استكبار)، وهي خطيئة كبرى تفضي إلى الكفر والجحود. وفي السياق السياسي، يتجسّد الاستعلاء في الاستبداد، كما في حالة (فرعون) الذي ادّعى الربوبية، وسيطر على أرزاق العباد وأحوالهم، مُطبّقاً سياسة «فرّق تسد» لإضعاف الشعوب، فضلاً عن ممارسة البطش والعنف ضدّ المُستضعفين. أمّا العتوّ، فهو شعور الإنسان

بالترفع عن الطاعة، ويقترن بالتمرد على أوامر الله ونواهيه، سواء على المستوى الفردي أم الجماعي، كما في حال مَنْ جحدوا باليوم الآخر ورفضوا دعوة الرسول. وبذلك، يتضح أنّ الاستعلاء والاستكبار والعُتُوَّ ليست إلا مظاهر لرفض الطاعة والتمرد على الحق، وهي أسباب رئيسة للعقاب الإلهي في الدنيا والآخرة.

المبحث الثالث: الطغيان والبغي

يعدُّ الطغيان تجاوزاً للحدود المقررة، سواء تمثّل ذلك في العصيان ضدّ الله أو في ممارسة الظلم والاستكبار على الناس، وهو ما يتجلّى بوضوح في القصص القرآني، كقصة (فرعون) و(ثمود). أما مصطلح «الطاغوت»، فهو مشتق من الطغيان، ويُشير إلى كل ما يُعبد من دون الله، أو من يتخذ ربّاً في الشؤون التشريعية والسياسية، ويشمل ذلك الحكّام الطغاة وأصحاب السلطة الذين يتجاوزون حدودهم ويتعدون عن الحق. ومن مظاهر الطغيان أيضاً «البغي»، وهو التعدي في الظلم كماً أو كيفاً، وهو ما ظهر جلياً في قصة (قارون) الذي بغى على قومه وسعى للاستعلاء بكنوزه وممتلكاته الدنيوية. ويؤكد القرآن الكريم أنّ الامتثال لله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت، هما السبيل لتحقيق الثبات والسعادة، في حين أنّ التعلّق بالاستكبار والسيطرة البشرية غير المشروعة يؤدّيان إلى سوء العاقبة والخسران في الدنيا والآخرة.

المبحث الرابع: الفساد والإهلاك

يتناول هذا المبحث مفهوم الفساد المتخفي تحت رداء الإصلاح، مُعرِّفاً إيّاه بأنّه انحراف عن الاستقامة وترك للصالح، قلّ هذا الانحراف أم كَثُر، مستنداً إلى الآيات القرآنية التي تربط بين الفساد في الأرض وإذلال الناس. ويبين أنّ الفساد يتجلّى في صور سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية عدّة، غالباً ما تُبرّر بشعارات إصلاحية واهية؛ كالاحتلال، واحتكار السلطة، ونهب الموارد، كما جرى في فلسطين والعراق وأفغانستان، أو عبر تغييب القيم الدينية

والاجتماعية تحت ذريعة تحديث المناهج. كما يوضح المبحث علاقة الفساد بالاستبداد بالسلطة، وما يترتب على ذلك من إهلاك للحرث والنسل واستعباد للبشر، لافتاً إلى اقتران الفساد بالنفاق؛ حيث يتظاهر المفسدون بالإحسان بينما يمارسون فسادهم سراً وعلانية. ويخلص إلى أن الفساد، مهما تجمل بشعارات الإصلاح، يظل خروجاً عن التوازن الكوني والاجتماعي الذي أراده الله، وهو فعلٌ يستوجب العقاب في الدنيا والآخرة؛ لما يخلفه من هلاكٍ بشري وخرابٍ عام.

المبحث الخامس: الظلم والإجرام والمكر

يتناول القرآن الكريم مفهوم الظلم بوصفه تجاوزاً للحق ووضعاً للأمر في غير نصابها، سواء كان ذلك في حق الله، أم في حق العباد، أم في حق النفس، مع تسليط الضوء بشكل خاص على ظلم الناس بعضهم بعضاً. ويبيّن النص مشروعية انتصار المظلوم لنفسه لاسترداد حقه، مع الحث على فضيلة العفو والصفح. ويربط القرآن بين الظلم والاستكبار الذي يتجلى في سلب الحقوق وتهجير أصحابها، وما يتبع ذلك من عقوبات إلهية، كما ورد في قصص القرى الظالمة. كما يقترن الظلم بالجرم والمكر؛ فالجرم يشمل الذنوب والكفر ورفض الحق، بينما يمثل المكر الحيل والخداع التي يلجأ إليها المستكبرون لعرقلة الدعوة الإلهية التي تبطلها حكمة الله ومكره. ويبرز المبحث من خلال هذا الترابط بين الظلم والجرم والمكر عدالة الله المطلقة في محاسبة الظالمين، ما يجسّد النهج القرآني في مواجهة الاستكبار وصور حقوق المظلومين.

الفصل الثاني: الاستكبار العالمي والسيطرة على عالم الأفكار والحقائق

المبحث الأول: سياسة تشويه الوقائع وتزوير الحقائق

لطالما لجأت قوى الاستكبار عبر التاريخ إلى تحريف الحقائق وتزييف الوقائع باعتبارها

أداة لترسيخ نفوذها وطمس الحق، وهو ما أكدّه القرآن الكريم ببيان أنّ الكذب والتحريف غالبًا ما يصدران عن وعي وقصد مُسبق. وفي العصر الحديث، تطوّرت هذه الممارسات لتتخذ من وسائل الإعلام ومنصّات التواصل الاجتماعي أدوات فعّالة لنشر الأكاذيب وتشويه الأحداث بهدف التأثير في الرأي العام. وتتجلّى هذه الممارسات بوضوح في تغطية النزاعات المعاصرة، كما حدث إبان أحداث غزّة في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣؛ إذ سعت بعض الجهات الإعلامية والسلطات الإسرائيلية إلى تصوير المقاومة الفلسطينية بصورة مغلوطة عبر ادعاءات ملققة عن استهداف المدنيين. وقد أثبتت التحقيقات اللاحقة زيف هذه المزاعم، ما يؤكّد أنّ نهج التزوير لا يزال استراتيجية متبّعة للهيمنة وتبرير العدوان السياسي والعسكري، ليبقى هذا السلوك امتداداً لتاريخ طويل من السياسات التي توظّف الدجل الإعلامي، وتعيد صياغة الواقع لخدمة مصالح السلطة.

المبحث الثاني: سياسة إنكار الحق الواضح

يعدّ إنكار الحق والجحود من أبرز سمات الاستكبار في التصوّر القرآني؛ حيث يرفض المُستكبرون الحق الذي يوقنون بصحّته صوناً لمصالحهم وسلطتهم، ويصرون على تزيف الواقع وتشويه الحقائق لضمان ديمومة نفوذهم. وقد تجلّى ذلك بوضوح في موقف (فرعون) تجاه موسى (عليه السلام)؛ إذ استكبر، وكذّب، وأدبر كائناً رغم إدراكه لصحّة الآيات والمعجزات، مُفضّلاً الغطرسة على الانصياع للحق، مدفوعاً بنزعة جامحة للسيطرة وتحقيق مآربه الشخصية. وينعكس هذا النهج في واقعنا المعاصر في مواقف بعض القوى الغربية ودولة الاحتلال الإسرائيلي تجاه القضية الفلسطينية؛ فـ «إسرائيل» التي أُقيمت على أرض محتلّة ارتكبت أوسع الجرائم بحقّ المدنيين، مستهدفة الأطفال والنساء والبنية التحتية، بينما تسعى أطراف دولية إلى إنكار هذه الجرائم أو التقليل من شأنها، متجاهلة الحقائق الموثقة والشواهد الجلية، ما يعيد إنتاج منطق التحريف والتزيف القديم في ثوب عصري. وتكشف هذه السياسات

أنَّ الاستكبار لا يقتصر على القوَّة العسكرية أو الاقتصادية بل يمتدُّ ليشمل الأبعاد الإعلامية والفكرية والسياسية؛ حيث تُوظَّف وسائل الإعلام والدبلوماسية لتبرير الانتهاكات وطمس الحقائق، على غرار محاولات فرعون في تزوير الواقع أمام شعبه. وهكذا، يتواصل نهج الاستكبار في تحريف الوقائع وتكذيب الحقِّ للحفاظ على الهيمنة، في تكرار عصري لمنطق (فرعون)، ليؤكد أنَّ رفض الحقِّ هو أداة المستكبرين الدائمة لإدامة سلطتهم وهيمتهم، مهما اختلفت العصور وتطوّرت الوسائل.

المبحث الثالث: الاستبداد الفكري واحتكار المعرفة

يُتضح أنَّ الاستكبار الفكري والسيطرة على المعرفة من أبرز سمات القوى المُستكبرة، قديماً كما تجسَّد في شخصية (فرعون)، وحديثاً في ممارسات القوى الغربية؛ إذ يسعى هؤلاء لاحتكار الحقيقة، ومنع الآخرين من الإسهام في صناعة الفكر، بدعوى أنَّ رؤاهم هي الحقيقة المطلقة. ويتجلَّى ذلك في احتكار البحث العلمي، كما في وكالات الفضاء كـ «ناسا»، أو في الدراسات الاستشراقية التي تسعى لرسم صورة نمطية للمجتمعات الإسلامية في الأوساط الأكاديمية الغربية والعربية على حدِّ سواء. ولا تقتصر هذه السياسات على الفكر فحسب بل تمتدُّ لتشمل «هجرة العقول»، باستقطاب الكفاءات العربية للغرب، ما يستنزف الموارد البشرية المؤهَّلة، ويزيد من التبعية العلمية والسياسية للدول النامية، ويوسِّع الفجوة المعرفية التي تعزَّز الهيمنة الفكرية والثقافية على الشعوب.

المبحث الرابع: تجهيل المجتمع وتسطيح الوعي

تُعَدُّ سياسة تجهيل الشعوب من أبرز أدوات الهيمنة الفكرية والسيطرة على المجتمعات؛ فهي تهدف إلى تشتيت وعي الأفراد وعزلهم عن معارفهم الدينية والاجتماعية، وهو ما نلاحظه في الممارسات التاريخية لـ (فرعون)، والسياسات الغربية المعاصرة تجاه الشعوب العربية

والإسلامية. وتحقق هذه الغاية عبر تشويه القيم، ونشر الفساد، وإلهاء الشباب عن القضايا الجوهرية، لضمان تبعيتهم وترسيخ السيطرة الفكرية والسياسية والاقتصادية للقوى المستبدة.

الفصل الثالث: الاستكبار وعالم القيم ونمط الحياة المبحث الأول: سياسة نشر الفساد

تقوم السياسات الاستكبارية على نشر الفساد والاستبداد باعتبارهما أدوات للسيطرة على الشعوب وإخضاعها، وهو ما جسده القرآن في قصة فرعون الذي سخر سلطته لتضليل قومه ومواجهة دعوة موسى عليه السلام. وينشأ الطغيان غالباً من شعور الفرد بالاستغناء الناجم عن تراكم السلطة والثروة، ما يدفعه إلى تجاوز القيم الخلقية والقوانين. توظف القوى الغربية هذا الواقع في المجتمعات العربية والإسلامية من خلال بث الرذائل الثقافية والاجتماعية، وإشغال الشباب بملهيات الحياة، ودعم منظمات تروج لقيم دخيلة؛ سعياً لتفكيك الأواصر الدينية والخلقية، وإيجاد جيل تابع يفتقر إلى القدرة على مقاومة الاستبداد أو إحداث تغيير سياسي واجتماعي.

المبحث الثاني: تعزيز الجانب المادي من نمط الحياة

تتكوّن حياة الإنسان من جانبين متكاملين: مادي ومعنوي، وتتطلب الحياة المستقرة والسعيدة توازناً دقيقاً بينهما. إنّ الإفراط في السعي وراء المتاع الدنيوي يؤدي حتماً إلى إهمال الجانب الروحي وفقدان الطمأنينة؛ وهو ما يجسده القرآن الكريم في قصتي (فرعون) و(قارون) اللذين ضُربا مثلاً في الانغماس المادي وعواقبه الوخيمة. وفي سياق معاصر، يستغل الاستكبار العالمي هذا الانغماس لتعزيز هيمنته، مستخدماً المال والترف والعلامات التجارية باعتبارها أدوات للسيطرة على مفاصل التعليم والثقافة. وتفضي هذه الهيمنة الاقتصادية والسياسية إلى إفقار الشعوب وجعلها رهينة للقوى الخارجية، ما يقوّض استقلالها ويضمن بقاء نفوذ تلك القوى.

الفصل الرابع: سياسات المؤامرات والعنف والإرهاب

المبحث الأول: سياسة فرق تسد

تعتمد سياسة «فرق تسد» على تفتيت الشعوب والكيانات الكبرى لإضعافها وتسهيل السيطرة عليها؛ فالوحدة مصدر للقوة، بينما يؤدي التفكك إلى الهوان. وتلجأ القوى الاستكبارية إلى بثّ الفتن الطائفية والقومية والعرقية، وتأجيج النزعات الانفصالية، وهو ما أكدته شواهد التاريخ، بدءاً من عهد (فرعون) وصولاً إلى اتفاقية «سايكس بيكو» التي رسمت حدوداً مصطنعة مزقت النسيج الاجتماعي وأشعلت نزاعات مستمرة. وقد تجلّى هذا النهج في دعم انفصال جنوب السودان، وتغذية الحروب البينية، كالحرب العراقية الإيرانية؛ حيث سعت القوى الغربية إلى إذكاء الصراعات لاستنزاف موارد المنطقة وإضعاف كياناتها، ضماناً لاستمرار هيمنتها السياسية والاقتصادية.

المبحث الثاني: سياسات المكر والمؤامرات

يُمثل المكر سمةً أصيلةً للمُستكبرين والطغاة، وهو ما أكدّه القرآن الكريم في سياق مكر (فرعون) بالنبي موسى (عليه السلام)، وكفّار قريش بالنبي مُحَمَّدٍ ﷺ. وفي العصر الحديث، تتّبع قوى الاستكبار، متمثلةً في الغرب وأدواته، النهج ذاته لإضعاف الشعوب العربية والإسلامية، مُستخدمةً المؤامرات الاقتصادية، والعسكرية، والثقافية، والدينية، لإخضاع هذه الشعوب والسيطرة على مقدراتها. ومن هنا، تبرز ضرورة أن تعي النخب الإسلامية دورها في توعية الأمة، وحماية هويتها الثقافية والدينية، وحثّها على البذل بالعلم والعمل والمال؛ لردّ كيد الأعداء وصورن السيادة والاستقلال.

المبحث الثالث: العنف والإرهاب والقتل

كشفت السياسات الاستكبارية عبر التاريخ عن اعتماد العنف والقتل باعتبارهما أداتين

للسيطرة وقمع الشعوب؛ فـ (فرعون)، على سبيل المثال، مارس التنكيل بحق بني إسرائيل، مستهدفاً الأطفال والنساء لإجهاض دعوة موسى عليه السلام وتثبيت أركان حكمه. ويمتدّ هذا النهج إلى العصر الحديث، كما تجلّى في غزو الولايات المتحدة لأفغانستان والعراق تحت ذرائع واهية، وارتكابها مجازر بحق المدنيين، وكذلك في العدوان الإسرائيلي المتكرّر على غزة الذي خلف آلاف الضحايا ودمر البنية التحتية. ومن هنا، يتّضح أنّ استراتيجيات الاستكبار تقوم في جوهرها على ترهيب الشعوب وإخضاعها، وتجاوز القوانين والأعراف الدولية، ما يفرض على المجتمعات ضرورة الوعي بهذه المخاطر، والتمسك بحقوق الإنسان، والدفاع عن قيم العدالة.

المبحث الرابع: السجن والاعتقال والنفي

طالما استخدم المُستكبرون السجن باعتباره أداة لقمع الشعوب وإسكات أصوات الحقّ، مُمتدين في ذلك من تهديد (فرعون) لـ موسى عليه السلام وصولاً إلى ممارسات قوى الاستكبار المعاصرة. لقد اتُّخذت هذه الوسائل بديلاً عن القتل؛ سعياً لإضعاف إرادة المؤمنين وطمس أثر الشهداء وأفكارهم. وتتجلّى فظائع التعذيب الحديثة في سجن «أبو غريب» بالعراق، ومعتقل «غوانتانامو» في كوبا، والسجون الإسرائيلية في فلسطين ولبنان؛ حيث تعرّض المعتقلون لانتهاكات جسدية ونفسية ممنهجة، كالحرمان من النوم، والصعق بالكهرباء، والتنكيل الجنسي. وتكشف هذه السياسات عن نهج المُستكبرين في إخضاع المعارضين وفرض الهيمنة عبر القهر والترهيب، متجاوزين بذلك كل المعايير الحُلقية والإنسانية.

الفصل الخامس: الاستكبار العالمي والعسكر والاقتصاد

المبحث الأول: السيطرة الاقتصادية والمالية

يُعدّ المال والاقتصاد من الأدوات الجوهرية التي يستخدمها المُستكبرون لإغراء الشعوب

ومحاصرة المعارضين، وهو نهجٌ تاريخي تجلّى في تهديدات (فرعون) وقصة (قارون). أمّا في العصر الحديث، فتتجسّد الهيمنة الاقتصادية في سيطرة الولايات المتّحدة على الدولار والأسواق العالمية والموارد الأساس؛ حيث تُوظّف العقوبات الاقتصادية والمساعدات المشروطة للضغط على الدول، بالتواطؤ مع مؤسّسات دولية كالأمم المتّحدة وصندوق النقد الدولي. وتؤكد هذه السياسات استمرارية توظيف القوّة الاقتصادية باعتبارها أداة للهيمنة السياسية.

المبحث الثاني: السيطرة الأمنية والعسكرية

تُعدّ القوّة العسكرية والأمنية ركيزةً أساس يستند إليها الطغاة والمُستكبرون لتثبيت أركان حكمهم وإحكام قبضتهم على شعوبهم؛ إذ يُشكّل الجيش والأجهزة الاستخباراتية العمود الفقري الذي يحمي مصالح الحاكم، ويجهض أي محاولة للثورة أو الاحتجاج الشعبي. وقد بين القرآن الكريم كيف وظّف فرعون شبكته الواسعة من الجواسيس لمراقبة الشعب، وتتبّع ولادة موسى (عليه السلام) للقضاء عليه، كما سخر جيشه المنظم لإخضاع بني إسرائيل ومنع تحرّركم. وفي الواقع المعاصر، تعتمد القوى العظمى، وعلى رأسها الولايات المتحدة، على منظومة استخباراتية متكاملة تضمّ وكالات مثل CIA وDIA وFBI وNCA؛ لرصد الأحداث داخلياً وخارجياً وجمع المعلومات وتحليلها، فضلاً عن انتشار قوّاتها العسكرية في أكثر من 177 دولة لتعزيز نفوذها السياسي والاستراتيجي تحت ذريعة مكافحة الإرهاب وتدريب الجيوش المحليّة. ويثبت التاريخ والواقع أنّ الاعتماد المطلق على القوّة العسكرية والأمنية لا يضمن بقاء الأنظمة، فهي في نهاية المطاف خاضعة لسنن الله في كونه، كما كانت عاقبة (فرعون) وجيشه حين غرقوا في البحر.

المبحث الثالث: الترابط بين السيطرة الاقتصادية والعسكريّة

تُبيّن الدراسة العلاقة الوثيقة بين القوّة العسكرية والسيطرة الاقتصادية للقوى العظمى؛ إذ

يخدم كل جانب الآخر لتعزيز نفوذه. فعلى سبيل المثال، وظفت فرنسا قواعدها العسكرية في أفريقيا لضمان استمرار هيمنتها الاقتصادية بعد استقلال دول القارة ظاهرياً، وذلك عبر اتفاقيات تقيّد تلك الدول وتحصر جزءاً كبيراً من احتياطياتها النقدية في البنوك الفرنسية، فضلاً عن استغلال مواردها الطبيعية، كاليورانيوم والمعادن. وبالمثل، تعتمد الولايات المتحدة على وجودها العسكري في الخليج العربي لحماية مصالحها الاقتصادية، لا سيّما في قطاع النفط، والتحكّم في تدفّق الثروات. علاوة على ذلك، تساهم الحروب والأزمات المفتعلة في تنشيط أسواق السلاح والتكنولوجيا العسكرية الأمريكية، ما يضمن ديمومة الهيمنة العسكرية والاقتصادية. وبذلك، يتّضح أنّ القوّة العسكرية ليست مجرد أداة دفاعية بل هي وسيلة استراتيجية لفرض النفوذ الاقتصادي والسياسي على الصعيد الدولي.

بناءً على ما تقدّم، يتّضح أنّ القرآن الكريم يقدم إطاراً شاملاً لفهم آليات الاستكبار والطغيان، سواء على الصعيد الفردي أم الجماعي، ويضع القواعد والقيم الكفيلة بحماية المُستضعفين، وكبح جماح الظلم والفساد. وقد أظهرت الدراسة أنّ الاستكبار ليس مجرد سمة شخصية بل هو ظاهرة اجتماعية وسياسية ممتدّة عبر التاريخ حتى عصرنا الحالي، تتجلى في الهيمنة الاقتصادية، والفكرية، والعسكرية للقوى العالمية. كما بيّنت أنّ تكامل هذه القوى يضمن استمرار السيطرة، بينما تظلّ الرؤية القرآنية للقيم الإلهية أداة فاعلة لمقاومة هذه السياسات، وتعزيز العدالة والاستقرار الاجتماعي. ومن هذا المنطلق، يظلّ النصّ القرآني مرجعاً جوهرياً يزوّد الإنسان بالأدوات التحليلية لمواجهة الظلم، مؤكّداً أنّ الثبات على الحق والتمسك بالقيم الخُلقيّة والمعرفية هو السبيل الأمثل لبناء مجتمع عادل ينهض بالإنسان، ويحقّق مصالحه في الدنيا والآخرة.



Arrogant Policies in the Holy Qur'an

◆ Reviewed by: Lina al-Saqer

Syrian translator.

■ Abstract

This study examines the concepts of arrogance and oppression in light of the Holy Qur'an and contemporary reality. It demonstrates that arrogance is a reprehensible trait manifested in haughtiness and rejection of truth, often linked to tyranny and disbelief, as seen in the stories of Pharaoh, the people of 'Ad, and the people of Thamud.

In contrast, the Qur'an highlights the oppressed who remain steadfast in their adherence to truth and patiently confront injustice. The Qur'anic text also distinguishes between legitimate elevation and reprehensible arrogance, warning that rebellion against Allah's commands and corruption on Earth lead to social, political, and economic destruction. It emphasizes that injustice and deceit that deprive the oppressed of their rights warrant divine punishment. These concepts extend to encompass the manifestations of modern global arrogance, which relies on distorting facts, monopolizing knowledge, keeping people ignorant, and imposing economic and cultural hegemony, exploiting the immersion in materialism. Hegemonic powers also employ violence, arrest, and military control to secure their political and strategic influence. Thus, this study presents a Qur'anic model for understanding the dynamics of hegemony and how to confront it through awareness, adherence to moral values, and the protection of the vulnerable. This makes it an analytical bridge connecting the Qur'anic perspective with the mechanisms of tyranny in our contemporary reality.

Keywords:

The Holy Quran, Arrogance, Violence, Terrorism, Economic Control, Military Control, Corruption, "Divide and Rule" Policy.



Methodology of Expressing Educational Points in the Holy Qur'an: "Al-Hujurat" as Model

◆ Erfan Yousefi Moghaddam

PhD candidate in Quranic and Hadith Studies, Allameh Tabataba'i University, Tehran, Iran.

◆ Mohammad Ali Mohammadi

Master's degree in Quranic and Hadith Studies, Allameh Tabataba'i University, Tehran, Iran.

◆ Translated by: Dr. Mohammad Firas al-Halbawi

PhD in Persian Language and Literature, Lecturer at Damascus University, certified translator.translator.

■ Abstract

The ultimate goal of the revelation of the Holy Qur'an is to guide people to the straight path of life and nurture them upon it. This research aims to elucidate the most prominent educational methods in the Holy Qur'an, using a descriptive-analytical approach, with a focus on Surah Al-Hujurat, which serves as a model for moral education. This will enable the reader to comprehend these methods and their Qur'anic manifestations. The research identifies seven main educational methods: reminding, admonition and counsel, encouragement and punishment, emotional stimulation, commanding and prohibiting, presenting a good example, and storytelling, illustrating these methods through their application to Surah Al-Hujurat.

Keywords:

Educational Concepts, Methodology, Surah Al-Hujurat, Education.



Arrogance in the Qur'anic Vision

Semantic Structure, Mechanisms of Domination over Consciousness, Society, Standard

◆ **Samer Tawfiq Ajami**

Writer, researcher in Qur'anic studies.

■ Abstract

This research examines the concept of "arrogance" in the Qur'anic perspective as a cognitive and authoritarian structure that transcends the boundaries of individual psychological or moral states, becoming a recurring pattern in the production of hegemony and the reshaping of consciousness, society, and values. It begins with the premise that the Qur'anic discourse presents arrogance as an interconnected semantic network, in which concepts of superiority, tyranny, transgression, arrogance, injustice, corruption, deceit, and treachery intertwine within a single framework that establishes a self-centeredness detached from the true, transcendent authority.

The research adopts an analytical approach based on studying the conceptual fields of Qur'anic vocabulary and linking them to the contextual structure of Qur'anic narratives, which serve as a revealing model of human social patterns, not merely a historical account. By analyzing Qur'anic models, particularly the Pharaonic model, the research reveals the cognitive, political, and psychological dimensions of arrogance, through studying mechanisms such as denial, rejection, cognitive tyranny, belittling societal awareness, policies of dismantling, violence, manufacturing fear, and directing desire towards the materialistic lifestyle, which leads to a disruption of the cognitive, moral, and social system.

Keywords:

Arrogance, the Qur'an, Pharaoh, Ad, Power, Hegemony, Awareness, Society, Standard.



Inevitability of the Arrogant Destruction, Salvation of the Weak

Qur'anic Sunnah Study

◆ Sheikh Dr. Loubnan Hussein Al-Zein

Lebanese full-time teacher, Head of the Qur'an and Hadith Committee at Al-Mustafa International University in Beirut, researcher and writer in Islamic and Qur'anic studies

■ Abstract

This article examines the historical conflict between the oppressed and the oppressors from a Qur'anic perspective that aligns with the dynamics of human society. It demonstrates the oppressors' persistent efforts to weaken the righteous and perpetuate corruption, and the inevitable divine laws that result from this. It also reveals the prevailing laws within the oppressed society and the divine promise of their empowerment and inheritance of the earth, emphasizing immutable divine laws govern this conflict. This necessitates awareness of these laws and guidance in managing the conflict and paving the way for empowerment.

Finally, the article addresses fundamental questions concerning the concepts of oppression, subjugation, and divine laws [Sunnah] in the Holy Qur'an. It explores the nature, determinants, and trajectories of social laws, analyzes the most prominent prevailing laws in the societies of the oppressed and the oppressors, and examines how these can be utilized to construct a divinely ordained vision that supports confrontation and empowerment.

Keywords:

Qur'anic Laws, Social Laws, Historical Laws, Arrogance, Oppression, Destruction of the Arrogant, Salvation of the Oppressed.



Methods of Arrogant in Control, Misleading, Weakening Peoples Qur'anic Models

◆ Sheikh Mohammad Asaad Nasser

Lebanese student of religious sciences, teacher at the religious seminary [Hawza] in Qom, the Holy City.

■ Abstract

This research examines the phenomenon of arrogance as a recurring social structure in the Qur'anic perspective, not merely isolated historical events. It reveals the methodologies employed by the arrogant to control, mislead, and subjugate nations. Through an analysis of Qur'anic examples, the author demonstrates that the tools of arrogance utilize material and media power in a gradual process that begins with the dismantling of society, progresses through the monopolization of religious authority, the destruction of consciousness, the distortion of concepts, the exploitation of elites, and ultimately the fabrication of imaginary threats to control the masses. The research also affirms the vitality of the Qur'an as a source for analyzing contemporary social and political phenomena, emphasizing that confronting arrogance is fundamentally a battle of consciousness and meaning before it is a material confrontation.

Keywords:

Arrogance, Weakness, Hegemony, Media Manipulation, Dismantling of Society, Awareness, Divine Laws [Sunan], Civilizational Conflict.



Arrogance in the Holy Qur'an⁽¹⁾

Study of Natures, Types

◆ Dr. Sima Joveinypour

PhD in Quranic and Hadith Sciences, Ferdowsi University, Mashhad, Iran.

◆ Dr. Soheila Pirouzfard

Assist Professor in the Department of Quranic and Hadith Sciences, Ferdowsi University, Mashhad, Iran.

◆ Translated by: Dr. Muhammad Firas Al-Halabawi

PhD in Persian Language and Literature, Lecturer at Damascus University, Sworn Translator.

■ Abstract

Understanding the phenomenon of the arrogance is a research necessity in every time and place, and is essential for religious insight and social awareness. This article seeks to provide a comprehensive definition of the nature of arrogance, analyzing its dimensions and linguistic connotations, addressing the types of this phenomenon, its roots, the factors that led to its emergence, and its consequences. The article's methodology relies on textual analysis of relevant Qur'anic verses, comparing the term "arrogance" with similar terms of connotation, to conclude that "religious arrogance" is the primary root of all other forms of arrogance. It also demonstrates that the dominance of arrogant classes, the power of military and economic forces, coupled with disregard for Allah and ignorance of His power, constitute the most significant factors in the emergence of this ominous social phenomenon.

Keywords:

The Holy Quran, Semantics, Arrogance, Oppression, Disbelief, Injustice.

1 - Research-Scientific Quarterly: Qur'anic and Hadith Studies, Year 12, Issue 1 (Consecutive No. 23), Autumn/Winter 2018, pp. 169- 198.

- Inevitability of the Arrogant Destruction, Salvation of the Weak: Qur'anic Sunnah Study.
- Arrogance in the Qur'anic Vision: Semantic Structure, Mechanisms of Domination over Consciousness, Society, Standard.
- While in the section of "Qur'anic Studies, Research", it was dedicated to explain: "Methodology of Expressing Educational Points in the Holy Qur'an: "Al-Hujurat" as Model."
- In the "Reviewing a Book" section, we will read "Arrogant Policies in the Holy Qur'an."

Thus, we hope that this issue will contribute to establishing a conscious Qur'anic reading that redirects the discussion towards values, liberates man from closed narratives, and establishes a civilizational awareness that makes the Qur'an a source of guidance in a troubled world, in accordance with the Almighty's saying: {Indeed, this Qur'an guides to that which is most upright.} [Al-Isra, verse: 9].

Allah is the One who grants success to the straight path.

One of the most serious contemporary problems is that some societies may succeed in achieving political liberation while remaining culturally and psychologically subjugated by systems of domination. A nation may reclaim its land but lose its consciousness, or it may gain political autonomy while remaining captive to the intellectual and value-based standards imposed by others. Therefore, the Qur'an emphasizes the liberation of the individual from within, because civilizational defeat often begins when a person loses faith in their identity, values, and capacity to create meaning.

Building cultural and moral immunity is a fundamental pillar in confronting arrogance. A person who loses their moral compass is easily manipulated, regardless of their material resources. Hence, the importance of connecting generations to the Qur'an as a book of awareness, action, and liberation.

Returning to the Qur'an is returning to the balance that enables a person to see reality clearly, amidst the entanglement of discourses, images, and interests.

The Qur'an reveals that arrogance, no matter how technologically or media-wise advanced it becomes, remains based on the illusion of absolute power and perpetual supremacy. Therefore, the Qur'an constantly reminds us of the inevitable downfall of tyranny, no matter how cohesive it may seem, in accordance with the Almighty's words: {And such days We alternate among people} [Al Imran, verse: 140].

The contemporary Qur'anic reading aimed at confronting arrogance seeks solely to establish a project of awareness that restores to humanity its inner freedom, its capacity for discernment, and its ability to resist the allure of power.

Ultimately, the Qur'anic message remains clear throughout the ages: that humanity's true struggle is not only against an external oppressor but also against every internal tendency to be dazzled by power, to submit to falsehood, or to elevate the self to the status of the center of truth. Therefore, the Qur'an does not merely dismantle idols of stone, but also seeks to dismantle idols of consciousness: for true liberation begins when humanity realizes that dignity is not derived from submission to the arrogant, but from servitude to God alone.

In conclusion, it should be noted that the research presented in this issue is structured as follows:

The "Focus" section addressed the following studies:

- Arrogance in the Holy Qur'an: Study of Natures, Types.
- Methods of Arrogant in Control, Misleading, Weakening Peoples: Qur'anic Models.

truth, holding fast to it, and resisting absorption into the systems of arrogance.

In this vision, great empires do not always make history; rather, small groups endowed with insight, will, and perseverance can break the logic of domination and reopen the path toward freedom, justice, and guidance for humanity.

Sixth: Towards Contemporary Qur'anic reading to Confront Arrogance

The most serious threat to the major Quranic concepts is their transformation into mere sermons divorced from the dynamics of reality and history. Discussing arrogance in the Qur'an is incomplete simply by describing the arrogant or invoking past examples. Rather, it necessitates a contemporary reading that reveals the structure of arrogance in the modern world, understands its new tools, and restores the Quran's liberating function as a book that shapes consciousness and reshapes humanity in the face of all forms of domination and hegemony.

What the nation needs most today is to move beyond a reductionist reading of arrogance as merely a political label or a mobilization slogan.

Arrogance in the Qur'an is far deeper than can be confined to a single state, geographical area, or temporary event; it is a comprehensive logic based on the deification of power, the monopolization of truth, and the perpetuation of subservience within systems of hegemony.

Therefore, confronting arrogance begins with rebuilding an awareness capable of understanding how hegemony operates within culture, media, the economy, education, and daily life.

Therefore, contemporary Qur'anic readings must dismantle the hegemonic discourse that cloaks domination in glittering moral and humanitarian slogans. Many projects of control today are marketed under titles such as "defending democracy," "protecting human rights," or "maintaining global security," while in essence they practice forms of subjugation, exploitation, and control over peoples, resources, and cultures. Hence, the importance of the Qur'anic approach in revealing the underlying structures that produce injustice, corruption, and supremacy on earth.

In this context, it becomes essential to restore the centrality of Qur'anic concepts in understanding contemporary reality. The Qur'an exposes the civilizational structures that produce tyranny and oppression. Concepts such as arrogance, oppression, corruption, luxury, and tyranny are profound analytical tools for understanding the movement of history, society, and power.

group has overcome a large group by permission of Allah} [Al-Baqarah, verse: 249]. The Qur'anic awareness redefines strength itself; true power lies in insight, patience, and the ability to remain steadfast in the face of attempts at subjugation.

In this context, the value of "patience" in the Qur'an emerges as an act of resistance rather than a passive state. Qur'anic patience is the ability to remain firm and not collapse under psychological, political, or civilizational pressure.

Hence, Allah says: {And We made of them leaders guiding by Our command when they were patient} [Al-Sajda, verse: 24]. The leadership here is linked to patience because the struggle for liberation requires the capacity to resist discouragement, fear, and deception.

It is also noteworthy that the Qur'an reveals the responsibility of some oppressed individuals for the continuation of oppression when they become complicit in systems of domination through fear, subordination, or justifying injustice. Allah says: {Indeed, those whom the angels take in death while they are wronging themselves, they will say, 'What were you doing?' They will say, 'We were oppressed in the land} [Al-Nisa, verse: 97]. The Qur'an does not allow oppression to be an excuse that entirely removes moral responsibility; it distinguishes between those who were truly subjected to coercion and those who surrendered to it, thus perpetuating it.

In the Qur'anic vision, the liberation is not merely a political shift but a reconstruction of the human being. The Qur'an does not aim to replace one tyrant with another but to establish a society founded on justice and humility on earth. When the oppressed inherit the land, they should not reproduce Pharaoh-like domination but rather become bearers of an ethical mission that preserves human dignity.

In the contemporary world, this Qur'anic vision is particularly significant, as many peoples today experience multiple forms of political, economic, cultural, and media oppression. Nations are stripped of their resources, their consciousness reshaped, and driven toward losing trust in their history, identity, and ability to rise. The most dangerous form of modern oppression is not poverty alone, but convincing people that they are inherently powerless and that global domination is an immutable destiny.

When the Qur'an speaks of the oppressed, it does not instill a victim mentality but builds a consciousness of mission. Therefore, the true oppressed are those who have not lost their humanity despite oppression and remain capable of recognizing

whereas oppression is a process imposed upon an individual or group with the aim of stripping away their will and turning them into instruments within a system of domination. Hence, Allah says about Pharaoh: {Indeed, Pharaoh exalted himself in the land and made its people into factions, oppressing a group among them} [Al-Qasas, verse: 4]. The oppression is not an inherent characteristic of the Israelites; it is a deliberate policy aimed at producing a psychologically and socially broken group, making them easy to control.

The Qur'an reveals that arrogance seeks to destroy the psychological structure of the oppressed by spreading fear, undermining self-confidence, and turning people into beings devoid of will. One of the most dangerous effects of domination is the creation of a mindset of helplessness and submission, where oppression becomes part of daily consciousness.

However, the Qur'an rejects the idea of turning the oppressed into a permanent negative identity. The pivotal verse in this context states: {And We desire to bestow Our favor upon those who were oppressed in the land and make them leaders and make them inheritors} [Al-Qasas, verse: 5].

This is one of the Qur'an's clearest expressions of its philosophy of history; it does not merely speak of ending injustice but of transforming the oppressed from a position of subordination to one of leadership.

The Qur'an envisions the oppressed as ethical and civilizational actors capable of rebuilding history based on justice.

In the Qur'anic vision, liberation begins with consciousness before weapons and with reclaiming dignity before reclaiming authority. This is why Moses (peace be upon him) did not first build an army, but rather rebuilt awareness within the oppressed community. A person convinced of their own helplessness cannot be liberated even if they possess instruments of power, because true defeat begins within the self.

The Qur'an repeatedly calls for psychological resistance to the arrogant. Allah says: {So do not weaken and do not grieve} [Al-Imran, verse: 139]. This is a call to resist the internal defeat that systems of domination constantly seek to produce.

Arrogance always relies on convincing others that it is an invincible force, that resistance is futile, and that the world cannot change. The first victory of the oppressed is to shatter the illusion of absolute arrogance in their consciousness.

The Qur'an does not link empowerment to numbers, wealth, or material power alone, but to faith, awareness, and perseverance. Allah says: {How many a small

One of the most dangerous manifestations of contemporary arrogance is cultural hegemony. Major powers seek to export their conceptions of humanity, family, sexuality, freedom, religion, and meaning. Media, education, art, and digital platforms are thus transformed into tools for re-engineering human identity globally. Therefore, the contemporary struggle is a struggle over the very definition of humanity itself.

In this context, technology and artificial intelligence stand out as among the most dangerous new arenas of conflict. These tools, despite their immense potential to serve humanity, could be transformed into unprecedented means of surveillance, control, shaping perception, and manufacturing public opinion. The most dangerous aspect of contemporary arrogance is that it no longer merely imposes obedience by force, but seeks to mold individuals who willingly embrace the values of dominance and reproduce them within their consciousness and daily behavior.

Despite the tools, technologies, and soft and hard power at its disposal, this arrogance remains an extension of the ancient logic, which prophets (peace be upon them) confronted throughout history: the logic of supremacy on earth, monopolizing truth, and subjugating humanity to systems of power. Therefore, the Qur'an does not present the confrontation with arrogance as a circumstantial battle tied to a specific time or place, but rather as an ongoing struggle between a project striving to liberate humanity for Allah and a project aiming to transform humanity into a subservient entity within systems of dominance, regardless of their changing names and slogans.

Fifth: The Oppressed in the Qur'an, From Victim to Historical Agent

If the Qur'an reveals the nature of arrogance, its mechanisms, and its psychological and civilizational structures, it does not, conversely, present the oppressed merely as helpless victims trapped in a cycle of subjugation without horizons. Rather, it presents them as a central force in the movement of history and the laws of transformation. The Qur'an regards oppression as a condition that can be transformed when human beings regain awareness, will, and connection to Allah. Thus, the discussion of the oppressed in the Qur'an is not one of pity, but of a project for historical, ethical, and civilizational liberation.

The Qur'an clearly distinguishes between "weakness" and "oppression." Weakness may be a natural state related to one's abilities and capacities,

The arrogance in the past was characterized by directness and explicitness, but today it has become more adept at concealing itself behind humanitarian, economic, and cultural slogans. Hegemony is now exercised in the name of freedom, nations are reshaped in the name of democracy, and countries are destroyed under the banners of "protecting the world order" or "combating terrorism." This highlights the depth of the Qur'anic approach, which reveals that arrogance is measured by the structure it produces: a structure of control and subjugation, and the reshaping of humanity to serve centers of power.

When the Qur'an speaks of the arrogant, it always links them to the attempt of "supremacy on earth." Allah Almighty says: {That is the home of the Hereafter, which We assign to those who do not desire exaltation upon the earth or corruption} [Al-Qasas, verse: 83]. The "supremacy" here does not simply mean material superiority, but rather the will to dominate that leads some powers to see themselves as guardians of the world, entitled to determine the destinies of peoples, cultures, economies, and even moral values.

Perhaps the most prominent transformation of modern arrogance lies in the shift from direct military occupation to soft power. Global media, communication platforms, cultural industries, and entertainment have become part of the battle for control of consciousness.

One of the most dangerous tools of contemporary arrogance is the manufacturing of collective consciousness. Humans today live amidst a massive influx of images, discourses, and information that not only convey reality but also reproduce it according to the interests of dominant powers.

The media becomes a tool for redefining criminal and victim, resistance fighter and terrorist, occupier and civilized person. When the Qur'an speaks of "beautifying deeds" or "obstructing the path," it reveals a profound mechanism that remains active today, even if the means and tools have changed.

The Qur'an does not separate arrogance from extravagance. Allah Almighty says: {And when We intend to destroy a city, We command its affluent ones, but they defiantly disobey therein} [Al-Isra, verse: 16]. The extravagance is a civilizational condition that results in detachment from values and transforms humanity into a consumerist being devoid of meaning. Thus, modern arrogance does not always require direct repression, as control can sometimes be achieved by immersing individuals in consumerism and entertainment, and reshaping their desires to the point where they become incapable of thinking outside the imposed system.

convince people that their continued dominance is necessary for stability and that any attempt at liberation will lead to chaos or collapse. Propaganda has thus historically been one of tyranny's most crucial tools. Domination does not rely solely on force; it relies on managing collective perception and producing beliefs that make oppression appear natural or necessary.

The Qur'anic approach is particularly profound in understanding contemporary forms of arrogance. Today's world is governed not only through military power but also through control over perception, the creation of mental images, and the reshaping of desires, fears, and values. Media, digital platforms, cultural industries, and artificial intelligence have become integral to this grand battle over consciousness. The modern arrogant does not always need to occupy land as long as they can occupy minds.

What is most perilous today is not merely overt arrogance but the kind that infiltrates consciousness to become part of one's very way of thinking. Individuals may become instruments within a system of domination while believing they are exercising full freedom. This underscores the Qur'an's emphasis on liberating perception before liberating reality, for the true struggle begins with restoring humanity's capacity to perceive truth outside the noise manufactured by forces of arrogance.

In deconstructing the psychological and cognitive structures of arrogance, the Qur'an aims not only to warn against tyrants but also to alert humans to their internal susceptibility to arrogance. Every moment in which desire becomes a higher reference than truth, every moment a person despises others or justifies injustice to preserve a privilege, constitutes the germination of arrogance within the self.

Fourth: Arrogance in Contemporary World, Transformations in Tools, Constant Essence

When the Holy Qur'an presents models of arrogant people throughout history, it aims to cultivate an awareness capable of recognizing the ever-evolving forms of arrogance. Arrogance is a persistent logic that reproduces itself whenever the tools of hegemony and the will to control are available. The danger of contemporary arrogance lies in its complexity and flexibility compared to older models. It has developed its tools to keep pace with global transformations, while its essence remains based on the monopolization of power, meaning, and truth.

preserves self-interest. This explains why many of the arrogant figures mentioned in the Qur'an recognized the truth of the prophets yet rejected them. Allah says: {Those to whom We gave the Scripture recognize him as they recognize their own sons.} [al-Baqarah, verse: 146]. The problem was not a lack of knowledge but a resistance to truth when it threatened existing psychological or social structures.

Among the most dangerous psychological mechanisms revealed by the Qur'an is the fabrication of an illusion of superiority. The arrogant always need to construct an imagined self-image as superior, more rightful, more knowledgeable, or stronger than others. For this reason, Satan's discourse is based on comparative arrogance: {I am better than him.} [al-Araf, verse: 12].

It is an integrated logic based on turning difference into a justification for superiority, and from this arise various forms of racism, classism, and cultural and civilizational colonialism; as the arrogant person sees the other as material for domination or subservience, not as a partner in humanity.

Building on this, one can discern the deep cognitive dimension of arrogance in the Qur'an. The arrogant attempts to redefine truth itself. Pharaoh's declaration exemplifies this: {I do not show you except what I see.} [Ghafir, verse: 29].

Hence, the Qur'an frequently discusses "adornment" and "hindrance from the path," because arrogance requires the distortion of awareness to persist. Allah says: {But Satan adorned their deeds for them.} [al-Nal, verse: 63]. The arrogant rarely see themselves as unjust; instead, they reproduce a discourse that justifies their behavior, granting it moral, civilizational, security, or religious legitimacy.

The danger of arrogance becomes apparent when it transforms into the capacity to invert concepts themselves: oppression becomes protection of the system, occupation becomes the spread of civilization, and exploitation becomes the defense of freedom.

Another perilous psychological mechanism revealed by the Qur'an is fear of losing privileges. The arrogant is not perpetually confident as they may appear; rather, they harbor a deep-seated fear of the collapse of their status. Accordingly, resistance to the prophets was always linked to concerns over authority, wealth, or influence. Allah, Almighty, says regarding Pharaoh's council: {Will you leave Moses and his people to corrupt the land and forsake you and your gods?} [Al-Araf, verse: 127]. They perceive liberation as corruption because any new awareness threatens the structures that preserve their privileges.

The arrogance often thrives on cultivating collective fear. The arrogant must

{Has He appointed gods besides Him? Indeed, this is a curious thing} [Sad, verse: 5]. Their rejection was not only of the message's content but also of the societal transformation it would bring.

The common thread among all these models is that arrogance often begins with an inflated self but does not remain confined to the individual; it transforms into a project of subjugating others and creating systems that preserve privilege through force, fear, spectacle, or control of perception. The Qur'an presents these figures as a perpetual warning of humanity's potential to reproduce Pharaonic, Qarunian, and Iblis-like arrogance in new forms.

The most dangerous aspect of arrogance is what it does to the arrogant themselves: it gradually isolates them from truth until they become prisoners of the illusion of absolute power. Hence, the end of the arrogant in the Qur'an is always a dramatic downfall revealing the fragility of power when severed from truth. Pharaoh drowned, Qarun was swallowed by the earth, and Iblis became a symbol of eternal curse. Arrogance, no matter how victorious it appears, remains fundamentally a project at odds with Allah's laws and history, carrying the seeds of its own destruction from the very beginning.

Third: Psychological, Cognitive Mechanisms of Arrogance

The Qur'an does not limit itself to describing the overt actions and crimes of the arrogant; rather, it delves into the psychological and cognitive structures that generate arrogance in the first place. This is because the Qur'anic discourse seeks to deconstruct the roots that render a person susceptible to becoming arrogant or compliant with systems of arrogance. The Qur'an approaches arrogance primarily as a distortion of perception before it manifests as a deviation in behavior, and as a disruption in the relationship with truth before it is merely a tendency toward domination.

One of the first insights the Qur'an offers in this context is that arrogance often begins with the inflation of the self, until it becomes a reference higher than truth itself. Allah says: {Have you seen the one who takes his desire as his god?} [al-Jathiya, verse: 23]. Here, the desire (hawa) points to a moment when the self becomes the ultimate criterion for judgment and evaluation.

The Qur'an links the arrogance to the "following of desire," because when desire becomes the center of consciousness, it impairs the ability to perceive objectively.

The person no longer seeks truth so much as what confirms the self and

will, and capacity to reclaim their humanity.

The Qur'an presents another equally dangerous model: Qarun (Korah). If Pharaoh represents the arrogance of authority, Qarun represents the arrogance of wealth. Allah says: {Indeed, Qarun was from the people of Moses, but he rebelled against them, and We gave him of treasures whose keys would burden a band of strong men} [Al-Qasas, verse: 76].

Notably, rebellion here is not linked to poverty or deprivation, but to abundance when divorced from humanity. Wealth for Qarun became a source of complete self-sufficiency, prompting him to claim: {I was only given it because of knowledge I have} [Al-Qasas, verse: 78].

This mindset deifies the self and nullifies the social and ethical dimension of blessings.

The Qur'an shows that economic arrogance transforms wealth into a tool of superiority and domination, reshaping values. People were drawn to Qarun's displays, saying: {Oh, would that we had what Qarun was given!} [Al-Qasas, verse: 79]. The arrogance asserts itself not only through force but also through spectacle.

The Qur'an does not limit itself to individual models but repeatedly addresses "al-mala", the collective elite that nurtures arrogance. In confronting the prophets, the first opponents were often influential classes who felt their privileges threatened.

Allah, Almighty, says: {And the eminent ones among his people who disbelieved and denied the meeting of the Hereafter and We had made them enjoy worldly life} [Al-Mu'minun, verse: 33]. Their worldly comfort creates a psychological structure that binds humans to their interests and generates fear of any change threatening the system of privilege.

The Prophets faced entire networks of political, economic, and cultural interests. This explains why resistance to divine revelation often came from the most influential forces: the message challenged structures built on injustice and exploitation.

The Qur'an also presents the Quraysh in response to the prophetic message as another dimension of arrogance. The Quraysh did not doubt the truthfulness of the Prophet (peace be upon him): {Indeed, they do not deny you, but the wrongdoers deny the signs of Allah} [Al-Anam, verse: 33]. The problem ran deeper than intellectual disagreement; Islam threatened the tribal, economic, and symbolic structures the Quraysh had built around the Kaaba, trade, lineage, and influence.

Quraysh's arrogance stemmed from fear of losing historical centrality, saying:

Second: The Arrogant in Major Qur'anic Models

The Qur'an presents the arrogant as illustrative models that reveal the nature of deviation when power transforms into a tool of deification and domination. The Qur'anic narratives are not built merely on storytelling; they aim to uncover recurring patterns across history. In the Qur'an, the arrogant represent a psychological and civilizational structure that can be reproduced whenever conditions of tyranny and absence of awareness prevail.

The Qur'an often begins with the root of arrogance: Iblis (the evil). Iblis did not lack knowledge of Allah, nor did he fail in worship, yet he fell when the self became the center of truth, saying: {I am better than him; You created me from fire and him from clay} [Al-Araf, verse: 12]. This verse exposes the deep structure of arrogance: measuring truth by the standard of the self, rather than measuring the self by the standard of truth. Iblis' problem was not intellectual but existential; he could not tolerate someone else being honored above him.

Iblis arrogance illustrates the danger of superior comparison that produces contempt and exclusion. The Qur'an then moves to the clearest political model of arrogance: Pharaoh. If Iblis represents primordial existential arrogance, Pharaoh represents the transition of arrogance into a full-fledged governing system. Allah, Almighty, says: {Indeed, Pharaoh exalted himself in the land} [Al-Qasas, verse: 4].

This "supremacy" signifies a state in which the ruler sees himself above the people, above truth, and above history. Hence, he declares: {I am your most exalted lord} [An-Naziat, verse: 24]. This is the apex of arrogance, when authority transforms into a claim of absolute reference.

Yet the Qur'an does not focus solely on Pharaoh's personal tyranny; it reveals the mechanisms he used to construct dominance. While he ruled with force, he also sought to control collective perception. He told his people: {I do not show you, except only what I see} [Ghafir, verse: 29]. The arrogant here seeks to monopolize vision itself, rendering people unable to think beyond the limits imposed upon them. Thus, Pharaoh's model in the Qur'an appears as a project of reshaping consciousness, not merely a political system of oppression.

The Qur'an links Pharaoh's arrogance to the production of the weak and subjugated: {He subjugates a group among them, slaughtering their sons and sparing their women} [Al-Qasas, verse: 4]. The arrogance always requires the creation of psychologically and socially broken groups to sustain control. The arrogant fears not only the military power of the weak but also their awareness,

verse: 88]. Here, the arrogance is the act of a class that possesses influence, authority, and the power to shape collective consciousness. In the Qur'an, "al-mala" represents the structure that guards hegemonic interests, those who, in most cases, opposed the prophets, because the divine message did not merely challenge corrupt beliefs but also threatened privileges built on injustice and exploitation.

Hence, the Qur'an consistently links arrogance with the attempt to dominate human perception. The arrogant seek to occupy consciousness itself. From this perspective, we understand the statement of Pharaoh in the holy verse: {I do not show you, except only what I see} [Ghafir, verse: 29].

This represents the peak of cognitive arrogance, where the ruler or the dominant class becomes a reference point that dictates to people how to think, what should be seen, understood, or believed. Here, the tyranny is no longer merely political oppression; it becomes the shaping of perception and the remolding of collective consciousness.

In this context, the danger of contemporary arrogance becomes clear. The tools of control are no longer limited to military power or direct coercion; they now rely on the construction of meanings, images, and narratives. The modern hegemony has become more capable of penetrating minds through media, culture, and technology, shaping public opinion. Here, the depth of the Qur'anic perspective is evident: the essence of arrogance remains constant, even if its tools change. In every era, the arrogant seek to monopolize both power and truth.

The Qur'an does not merely condemn arrogance on moral grounds; it presents it as a civilizational threat to human dignity. When the arrogant refuse to submit to Allah, they ultimately demand submission from others, giving rise to all forms of political, economic, and cultural enslavement. Therefore, the prophets' struggle with the arrogant represents a conflict between a project of human liberation and a project of transforming humans into subjects of hegemonic systems.

By presenting examples of arrogance throughout history, the Qur'an aims to cultivate awareness capable of recognizing arrogance in its renewed forms. The arrogant may be an individual, a state, or a media, economic, or cultural system.

Yet the defining feature remains the same: the rejection of truth when it threatens their dominance and the attempt to reshape humanity to serve the continuation of their control. Understanding arrogance from the Qur'anic perspective is essential to comprehending the nature of global struggles and how power, when separated from guidance, can become a project of corrupting both humanity and history.

reveals the nature of the deviation that occurs when an individual or a group becomes a closed center of truth, power, and meaning. In the Qur'anic perspective, arrogance is an existential stance toward the Truth, manifested in the refusal to submit to Allah, Almighty and in attempts to subjugate others to the will of the arrogant person and their system.

From this, we understand why the Qur'an links arrogance with turning away from Allah signs. Allah, Almighty, says: {Indeed, those who are arrogant toward My worship will enter Hell humbled} [Ghafir, verse: 60]. The arrogance, then, is the refusal of servitude to Allah, refusal to recognize a higher authority beyond the self, because the arrogant, in the Qur'anic view, strive to be the ultimate reference, independent of any higher standard.

The Qur'an emphasizes the cognitive dimension of arrogance even before its behavioral aspect. The problem is not always a lack of knowledge, but the will that refuses to surrender to the truth. Allah says of some of the People of the Book [Ahl al-Kitab]: {They denied it while their own selves were convinced of it, out of injustice and pride} [Al Namel, verse: 14]. Here, the supremacy is the arrogance that turns knowledge into a tool for contesting the Truth, rather than a means of approaching it. One of the gravest warnings of the Qur'an is that a person may know the truth yet reject it, because accepting it threatens their position, privileges, or self-image.

The arrogance represents a mental framework that shapes a particular worldview. The arrogant person sees themselves as the center of existence, others as subordinate, and the Truth as subject to their interests rather than as a standard to which they must adhere.

The Qur'an also presents arrogance as a collective phenomenon that produces complete social and political systems. For instance, Pharaoh established an arrogant structure, which reshaped society on the principles of domination, fragmentation, and control. Allah, Almighty, says: {Indeed, Pharaoh exalted himself in the land and divided its people into sects} [Al-Qasas, verse: 4]. This supremacy is a process of social engineering based on segregation, weakening, and creating dependence, illustrating the Qur'anic depiction of the system that arrogance generates.

It is noteworthy that the Qur'an employs the term "al-mala" (the elite or the prominent figures, or the leaders) in many prophetic narratives. For instance, Allah, Almighty, says: {The leaders of his people who were arrogant said...} [Al-Araf,

a foundational moment in the history of human deviation; for the problem lay not in knowledge, but in a will that refused to submit to the Truth. The Qur'an reveals that the most dangerous forms of deviation stem from an inflated ego, a condition that renders an individual incapable of acknowledging anything that threatens his privileges or his self-image.

This phenomenon expands in the Qur'anic models from an individual attitude into an integrated civilizational structure. Pharaoh represents the model of a state of arrogance and domination that monopolizes both power and narrative, in a moment of appropriating collective consciousness. The arrogant ruler becomes an absolute authority that dictates how people think and perceive the world, so that arrogance itself becomes a form of occupation of human perception. For this reason, the Qur'an consistently links arrogance with corruption, since the arrogant seek to reshape values and concepts in ways that ensure the perpetuation of their system of domination.

The significance of revisiting the concept of arrogant domination in our contemporary world lies in the fact that, while the tools of control are undergoing massive transformations, their essence remains unchanged. Today, the arrogance asserts its presence through media, economics, and technology, as well as through the reshaping of collective consciousness and the designing of global cultural norms. Hegemony has become increasingly adept at infiltrating minds, steering and even manufacturing desires. Consequently, the Qur'anic approach to the arrogance emerges as profoundly relevant, owing to its capacity to expose the deep-seated roots of domination, regardless of the forms it may assume.

Furthermore, the Qur'an presents the the oppressed as the primary force for change. Allah Almighty's says: {And We desired to bestow a favor upon those who were oppressed in the land and to make them leaders} [Al-Qasas, verse: 5].

Thus, the Qur'an does not merely describe reality; rather, it establishes a liberator consciousness that opens up a historical horizon, one that transcends the immediate moment of oppression to embrace a project of empowerment and justice.

First: Arrogance in the Qur'an, From Individual Morality to Civilizational Structure

When the Qur'an speaks of arrogance, it presents a complex concept that



Supremacy on Earth: When Power Loses Its Humanity

Editor-in-Chief:

◆ **Dr. Mohammad Mahmoud Mortada**

The issue of arrogance in the Holy Qur'an is not merely an isolated individual behavior; rather, it constitutes one of the pivotal themes that reveal the very nature of human conflict throughout history. The Qur'an views the arrogant oppressor as an entity bent on imposing hegemony, reshaping consciousness, and entrenching systems of oppression, corruption, and deviation. Consequently, the figure of the arrogant oppressor recurs throughout Qur'anic narratives as a perpetually renewing archetype, one that ceaselessly reproduces itself through ever-changing tools, guises, and names.

From this, it becomes clear why the Holy Qur'an often initiates the struggle for guidance by exposing the psychological and intellectual structure of arrogance before addressing its political or economic manifestations; for the very root of arrogance lies in a human being's stance toward Truth itself. Allah Almighty states: {146} will turn away from My signs those who are arrogant upon the earth without right} [Al-A'raf, verse: 146].

Thus, arrogance here is far more than a mere sense of superiority. Rather, it is a state of existential blockage, which renders a person incapable of perceiving the Truth, even when it is plainly evident. Indeed, within the Qur'anic context, arrogance is inextricably linked to spiritual blindness, the deliberate suppression of insight, and rebellion against the very imperatives of divine guidance.

Perhaps the most prominent model the Qur'an presents in this context is the evil [Iblis]. He was neither ignorant of Allah Almighty nor a denier of His existence; rather, he fell when he made his own self the sole criterion for truth, declaring: {I am better than him} [Al-A'raf, verse: 12]. From that very moment, arrogance became

index

Editorial

- 12 | **Supremacy on Earth: When Power Loses Its Humanity**
Dr. Mohammad Mahmoud Mortada

Focus

- 28 | **Arrogance in the Holy Qur'an**
Dr. Sima Joveinypour Dr. Soheila Pirouzfard
- 29 | **Methods of Arrogant in Control, Misleading, Weakening Peoples**
Sheikh Mohammad Asaad Nasser
- 30 | **Inevitability of the Arrogant Destruction, Salvation of the Weak**
Sheikh Dr. Loubnan Hussein Al-Zein
- 31 | **Semantic Structure, Mechanisms of Domination over Consciousness, Society, Standard**
Samer Tawfiq Ajami

Studies and Researches

- 32 | **Methodology of Expressing Educational Points in the Holy Qur'an**
Erfan Yousefi Moghaddam Mohammad Ali Mohammadi

Reviewing a Book

- 31 | **Arrogant Policies in the Holy Qur'an**
Lina al-Saqer

At Upcoming issue

Societies, Collapse of Civilizations

Magazine Message:

- 1 - Returning to Holy Qur'an and confirming the authority of its verses in addressing the issues of the contemporary nation.
- 2 - Spreading Qur'anic culture on a large scale and linking the nation to its Holy Book (Qur'an) to overcome leaving the Qur'an cognitively.
- 3 - Emphasizing the ability of Holy Qur'an to revive the spirit and renew effectiveness in the mind and conscience of the nation to achieve the desired renaissance.
- 4 - Consolidating the authority of Ahl al-Bayt (Prophet Family) (peace be upon him) in understanding and interpreting the Qur'an based on the Hadith of al-Thaqalayn (statement attributed to the Islamic prophet Mohammad, that introduces the Qur'an), due to the importance of this in paving the way for the promised Mahdist society.

Tabyin Magazine Copyright Pledge

I, the undersigned:

The author of the research titled:

.....

I pledge to transfer the copyright and distribution rights to (Tabyin) Magazine and Baratha Center for Studies and Research.

Signature:

Date:

Intellectual Property Pledge

I, the undersigned:

The author of the research titled:

.....

I pledge that the research I have completed has not been published or submitted for publishing to another magazine, whether in Lebanon, Iraq, or any other country, and I wish to publish it in Tabyin magazine.

Signature:

Date:

- Verses are documented in the text immediately, after the Quran text by mentioning the surah followed by a colon, then the verse number inside brackets, like this: [Al-Insan: 25].
- The Quran verses are inserted with vowels, according to the Quran diacritical marks, and are placed between two special brackets, like this: {In the name of Allah, the Most Gracious, the Most Merciful}.
- *Note: If the sources mentioned above are electronic, the link will be included after the page number at the bottom.
- A list of sources and references shall be included at the end of the research, as mentioned above, and adding the rest of the related details: Publishing house, publishing country, publishing date, edition number.
- The author uses the font (Simplified Arabic), in size (14) in the text, and the same font in size (12) in the margin.
- In English, the author uses the font (Times New Roman), in size (14) in the text, and size (12) in the margin.
- The following should be written on the first page:
 - The research title in Arabic.
 - The author's name in Arabic (if Arab), with a footnote stating: his nationality, academic description, academic degree and certificate, and affiliation (university, college), or (research institution).
 - An abstract of the research in Arabic, provided that each abstract does not exceed (100) words.
 - Keywords, provided that they do not exceed (7) words.
 - The magazine will translate the abstracts into the languages it considers appropriate.



Tabyin Magazine Authors' Guide

- The research must be new in its presentation, and no one has previously addressed the subject, using the same mechanism and reached the same results. It must be characterized by depth, analysis and criticism.
- The research must be free of linguistic and typographical mistakes, and punctuation marks must be taken into account when writing.
- The information, contained in the research, must be documented through accurate scientific sources and references.
- The author should ensure that the number of words in the research ranges between (4500) and (5500) words.
- «Plagiarism Check X» will be used to determine the extent of plagiarism.
- «Plagiarism Check X» will be used before the research is being presented for evaluation, and the research will be rejected if the plagiarism exceeds the internationally accepted rate (25%).
- Regarding the footnotes related to reference notes, the author will use «Chicago Modified Style», and insert footnotes at the bottom of the page via automatic insertion.
- Example of «Chicago Modified Style»:
 - When documenting from a book: Author's name, book title, the part or volume, page number.
 - When documenting from a magazine: Name of the author of the research or article, the research title, name of the magazine, the issue, page number.
 - When documenting from a collective book: Name of the author with the phrase «and others», the book or research title, page number.
 - When documenting from thesis or dissertation: Name of the researcher, thesis or dissertation title, university or college, page number.

following determinants:

- A. Determine the extent of scientific integrity of the research.
 - B. Determine the extent of conformity between the title and the content of the research.
 - C. Determine the extent of clarity of the research abstract.
 - D. Determine the extent of the research introduction clarification to the research idea.
 - E. Determine the extent to which the introduction of the research clarifies its idea.
 - F. Determine the extent of suitability and coherence of the subtitles.
 - G. Determine the extent of the scientific level of the research.
 - H. Determine the extent of the linguistic and literary level.
 - I. Determine the extent of the value of the sources and the accuracy of relying on them.
 - J. Determine the extent of the research importance and authenticity, in terms of mechanism and results.
 - K. Determine the extent of the research size.
 - L. Determine the extent of the research suitability for publishing.
 - M. Determine, accurately, the paragraphs that need to be modified by the researcher.
- The evaluator determines the reasons for rejection, if he decides that the research is not suitable for publishing.
 - The evaluation process is conducted confidentially.
 - If the first evaluator wants to discuss the research with the second evaluator, he must inform the editor-in-chief.
 - The scientific evaluator's comments on the research are sent to the editor-in-chief to be sent to the researcher if any, so that the author can take them into consideration for approval of publishing, without the evaluator and the researcher knowing each other.
 - The evaluators' comments and recommendations are relied upon in the decision to approve the publishing of the research or not.

Tabyin Magazine Publishing Ethics

- The magazine's management is committed to keep the intellectual copyrights of the authors.
- The magazine's management is committed to keep the principle of non-discrimination on the basis of race or gender, and to the rules of scientific thinking and its methods, and its language in presenting ideas, trends and topics, and discussing or analyzing them.
- The magazine's management is committed not to disclose the names of the evaluators (reviewers) to the authors, and is also committed at the same time not to disclose the names of the authors to the evaluators. The names remain confidential at the editor-in-chief and managing editor only.
- Respecting the intellectual copyrights of translated research.
- The research must be consistent with the standards of scientific integrity and scientific research ethics.
- It is required that the research submitted for publishing in the magazine has not been previously published in another magazine or in a book, or extracted from a thesis or dissertation, and that it has not been submitted for publishing in another magazine at the same time

Tabyin Magazine Evaluators' Guide

- The scientific evaluator's main task is to read the research submitted for publishing, which is within his scientific specialization, with great care, and evaluate it according to a scientific and academic vision and perspective that is not subject to any personal opinions, then put his constructive and honest observations regarding the research sent to him.
- Before starting the evaluation process, the evaluator ensures whether the research sent to him is within his scientific specialization or not. If the research is within his scientific specialization, he should estimate that he has enough time to complete the evaluation process; since the evaluation process should not exceed fifteen days.
- After the evaluator agrees to fulfill the evaluation process, and completes it within the specified period, he is committed to fulfill it according to the



« TABYIN » Magazine Publishing Terms



- Published research and studies do not necessarily express the opinion of the magazine.
- When the research is accepted, the author undertakes to transfer the ownership copyrights of the research to the magazine, and not to publish it in any other magazine, except after obtaining written approval from the magazine's management. The magazine has the right to publish the research in a collective book; and if the researcher wants to publish his research in any paper, or electronic publishing medium, he must obtain prior written approval from the magazine's management.
- The magazine is committed to inform the author of the approval to publish the research without modification, or according to specific modifications based on the comments of the evaluators, or apologizing for not publishing within a period not exceeding (30) days, except in the case of early writing (asking the author to write a sample to know his method), but the author is informed of that.
- If the research is rejected, the magazine has the right to inform the author of the reasons for rejection, or not to inform him of that.
- The arrangement of research (articles) within the magazine is subject to technical purposes, and has nothing to do with the status and fame of the author (researcher).
- The magazine management pays a financial reward for each research published in the magazine, and informs him - in advance- of its value, or how the calculation is done.
- Correspondence should be sent to the Editor-in-Chief: Dr. Ammar Abd al-Razzaq al-Sagheer at the following addresses:
- Phone number: 009647800441489 Email: tabyin.magazine@gmail.com
Web: Tabyin.barathacenter.com

Scientific Body

- Dr. Abbas Al-Fahham: Qur'an Rhetoric – Iraq.
- Dr. Hassan Reda: Education – Lebanon.
- Dr. Mabrouk Zad Al-Khair: Islamic Studies – Algeria.
- Dr. Mohammad Reda Haji Esmaili: Qur'an Studies – Iran.
- Dr. Iqbal Najm Wafi: Qur'an Sciences – Iraq.
- Dr. Jassem Mohamad ali alghorabi: : Interpretation and Qur'an Sciences – AlKufa Uni.Iraq
- Dr. Mounir Ben Jamour: Jurisprudence and its Sciences – Tunisia.
- Dr. Mohammad Kazem Rahman Staish: Qur'anic Sciences – Iran.
- Eng . Dr. Talal Faiq Al Kamali: Interpretation and Qur'an Sciences – Iraq.

Editorial board (alphabetical order)

- Eng. Dr. Asaad Abdul Razzaq Al-Asadi: Sharia and Islamic Sciences – Iraq.
- Sheikh. Dr. Jawad Riad: Jurisprudence and its Sciences – Egypt.
- Dr. Hassan Kadhim Asad: Interpretation and Qur'an Sciences – Iraq.
- DR. Iubnan Alzein: Qur'an and hadith – Almustafa Uni.- Lebanon).
- Eng. Dr. Hakim Salman Al-Sultani: Qur'an Sciences – Iraq.
- Eng. Ali Banayan Asfahani: Sciences of Qur'an and Hadith – Iran.
- Dr. qaed Abdelmotaleb Alfaham (Interpretation and Qur'an Sciences- Iraq.
- Eng. Dr. Leka Jawad Al-Kaabi: Sciences of Qur'an and Hadith – Iraq.
- Eng. Mohammad Reda Sotoudehnia: Sciences of Qur'an and Hadith - Iran.

General Supervisor:
**Sheikh Jalal al-Din
Al-Sagheer**

Editor in chief:
**Dr. Mohammad
Mahmoud Mortada**

Managing Editor:
**Dr. Fadel Madab
Al-Masoudi**

Managing Director:
**Dr. Ali mohammad
jawad fadlollah**

Creative Director:
Mr. Khaled Mimari

Proofreading:
Dr. Ali zaiter (lebanon)

Translators:
**Mrs. Lina al-Saqer
(English)
Dr. Mohamad Firas Alhelbawi
(Persian)**

For Quranic Studies
T **ABYIN**

«Tabyin for Quranic Studies» is a quarterly Peer-Reviewed scientific periodical magazine, issued by «Baratha Center for Studies and Research» in Beirut and Baghdad. It is concerned with approaching contemporary intellectual issues and challenges from a Qur'anic approach, and aims to root contemporary issues from a Qur'anic perspective, and to spread Qur'anic culture.

The journal adopts an Open Access policy, making all its content freely available online immediately upon publication, without financial or legal restrictions. All materials are published under the Creative Commons Attribution 4.0 International License (CC BY 4.0), which permits unrestricted reading, downloading, use, redistribution, and republication, provided that proper attribution is given to the original source.

Arrogance, Arrogants in the Holy Qur'an

Volume (3), Issue (11), spring 2026 - 1447 AH

ISSN:

 : 3005-6691

 : 3005-6705

For Quranic Studies
TABYIN

issued by:

A quarterly Peer-Reviewed journal
concerned with approaching
contemporary intellectual issues and
challenges from a Qur'anic approach
www.barathacenter.com
www.Tabyin.barathacenter.com
Tabyin.magazine@gmail.com



Baratha Center for
Studies and Research
Beirut- Baghdad

ISSN: : 3005-6691

: 3005-6705



For Qur'anic Studies
ABYIN

issued by Baratha Center
for Studies and Research



Volume (3), Issue (11), spring 2026 - 1447 AH

Arrogance, Arrogants in the Holy Qur'an

▶ **Editorial:** ■ Supremacy on Earth:

When Power Loses Its Humanity

▶ **Focus:** ■ Arrogance in the Holy Qur'an

- Methods of Arrogant in Control, Misleading, Weakening Peoples
- Inevitability of the Arrogant Destruction, Salvation of the Weak
- Semantic Structure, Mechanisms of Domination over Consciousness, Society, Standard

▶ **Studies and Researches**

- Methodology of Expressing Educational Points in the Holy Qur'an

▶ **Book Review**

- Arrogant Policies in the Holy Qur'an



Baratha Center for
Studies and Research